
ترجمة وإخراج: مركز الخطابي للدراسات
تأليف: وليام جونسون
تقديم: وليــام هــود
ردع الأعداء
داخل البلاد وخارجها
كيف تصبح ضابط مكافحة استخبارات

رَدْعُ الأَعْدَاءِ

دَاخِلَ البِلَادِ وخَارِجَهَا

كيفَ تصبحُ ضابطَ مكافحةِ استخبارات

تأليف: وليام جونسون

تقديم: وليام هود

ترجمة وإخراج مركز الخطابي للدراسات



جميع الحقوق محفوظة

2022 - 2021

"الآراء التي يتضمَّنها هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الخطابي للدراسات"

الفهرس

مقدمة مركز الخطَّابي

لا يخفى على أحد أهمية الاسْتِخْبَارَات بالنسبة للدول اليوم، حَيْثُ لم تعد الاسْتِخْبَارَات قوةً رديفةً للجيوش فحسب، بل قوة تشن الحروب بنفسها أحياناً، وأصبحت آثارُ أعمالها موازيةً لِتِلْكَ الآثار الَّتِي تحققها أسلحة الدمار الشامل. كما لم يعد العمل الاستخباري حكراً على الدول بل يمتد في عالم اليوم ليشمل الجماعات والتنظيمات وحَتَّى العصابات.

تنتشر في المكتبات العديد من المؤلفات الَّتِي تحدث عن هَذَا العالم المظلم، لكنَّ قلة منها تغلبُ الحقيقةُ فيه على الخيال والواقعية على المبالغة. والسبب هو أن معظم المؤلفين يجنحون لإرضاء خيال القُرّاء حول هَذَا العالم الخفي، فيمزجون بعض القصص الَّتِي راجت عن عمل الجواسيس مع بعض الخيالات والأوهام.

وإذا كَانَت الكتب الَّتِي تحدث عن عالم الاسْتِخْبَارَات متوافرةً، فمن النادر جداً أن تجد ومراجعَ تحدث عن موضوع هَذَا الكتاب وهو: "مكافحة الاسْتِخْبَارَات"، ذاك التخصص الدقيق النادر الَّذِي يتكامل تماماً مع أي عمل استخباري. ولمكافحة الاسْتِخْبَارَات بدورها تخصصات ترتبط بِهَا مثل التحليل الاستخباري وعمل ضابط الحالة وتشغيل العُمَلَاء المزدوجين على اختلاف أنواعهم وزرع "الخلد" وغيرها الكثير.

مؤلِّف هَذَا الكتاب ويليام جونسون ضابط ذو خبرة واسعة في هَذَا المجال، ولَهُ إنجازاته وبصمته لدرجة أن جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات الأمريكي حرص على نقل خبرته إلى الأجيال التالية من العاملين في هَذَا المجال.

يتميَّز هَذَا الكتاب بتناوله لموضوع مكافحة الاسْتِخْبَارَات بِشَكلٍ علمي منهجي، صادر عن قواعد هَذِهِ الحِرفة وتجربة الكاتب الشخصية الَّتِي تراكمت عبر السنين، بعيداً عن الأساطير والتهويلات، فهو من نوع الكتب الَّذِي يُلخِّص حياةً في كتاب. وهو يعرض هَذَا العلم: "كما هو، وليس كما ينبغي لَهُ أن يكون"، فيبدأ بالتفريق بين مكافحة الاسْتِخْبَارَات ومكافحة التَّجَسُس، هَذَا الفارقُ الدقيقُ الَّذِي يَلتَبِسُ على الكثيرين من العاملين في الاسْتِخْبَارَات

فضلاً عن غير العاملين. ويتحدَّث الكتاب بإسهاب عن تجنيد العُمَلَاء، وعن العُمَلَاء المزدوجين بأنواعهم والاختراقات والانشقاقات، وعن أدوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات من البوليغراف إلى التحقيق وأنواعه، إلى تصنيف البيانات والاستفادة منها، وأفضل الأساليب للتعامل مع العُمَلَاء المزدوجين بأنواعهم.

ترجم مركز الخطابي هَذَا الكتاب لما رأى فيه من فوائد جمة للمشتغلين في العمل الاستخباري في الثورات، إذ أن هَذِهِ الثورات هدف رئيسي للعديد من أجهزة الاسْتِخْبَارَات المعادية والإقليمية والعالمية، وحَتَّى للتنظيمات والجماعات المنحرفة. والتعامل مع هَذِهِ التهديدات الاستخبارية بل والاستفادة منها عند الإمكان يوفّرُ الكثير من الجهود العَسكَرِيّ والمادي، ويحقن الكثير من الدماء الغالية، ويحمي من المفاجآت الَّتِي لا تُحمَد عقباها.

ولم يقتصر عمل المركز على نقل هَذَا الكتاب من اللغة الإنكليزية إلى العربية، بل إنه صاغ العديد من المصطلحات الَّتِي لم تُعرَّب من قبل قط، واضعاً بِذَلِكَ نوعاً من القاموس للمصطلحات والتعابير الدقيقة لِهَذَا التخصص.

بقي أن نذكر بأن هَذَا الكتاب قد أُلِّف سنة 1986، مِمَّا يعني أنه بعيدٌ من الناحية التقنية عن عالم اليوم، حَيْثُ قطعت التقنيات المرئية والمسموعة وتقنيات الاتصالات بوناً شاسعاً ودخلت آفاقاً جديدة، حَتَّى أصبحت أحلام ذاك العصر حاجات أَسَاسِيَّة لا نتخيل حياتنا دونها اليوم. فبات لدى كُلّ إنسان جهاز اتصال حيثما كَانَ، وكاميرا في جيبه، وحاسوب محمول بحجم ووزن كتاب يرافقه أينما حلَّ، فضلاً عن شبكة الأنترنت وعوالمها المذهلة، والأقمار الصناعية وما تمخَّض عنها من تقنيات تكاملت من التقنيات آنفة الذكر فكوَّنت عالماً جديداً يكادُ الإنسان فيه لا يمت لعالم الماضي القريب بصلة. على أن هَذَا كله لا يبخس من قيمة معلومات هَذَا الكتاب شيئاً إذا نُظِرَ إليها بعين العلم البحتة، بل إنه يزيد من قيمته، فلم يغنِ اختراع الآلة الحاسبة ضرورة تعلم الحساب وحفظ جدول الضرب، ولم يُغنِ توافر الآلة الكاتبة عن ضرورة تعلم الكتابة اليدوية.

المصطلحات

مكافحة التَّجَسُس counterintelligence: هي النشاط الَّذِي يهدف إلى حماية برامج الاسْتِخْبَارَات من أجهزة الاسْتِخْبَارَات المعادية، ويشمَلُ جمع المعلومات وتنفيذ نشاطات تهدف لمنع التَّجَسُس أو التخريب أو الاغتيالات أو أي من أنشطة الاسْتِخْبَارَات الأخرى، الَّتِي تقوم بِهَا قوى معادية أو بالنيابة عنهَا، سواء كَانَت هَذِهِ القوى تنظيمات أم أفراداً.

العميل الموجه playback agent: عميل يكتشفه جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي بُعِث ليتجسس عليه، فيعيد تجنيده كي يعمل ضد هَذَا الجهاز.

العميل المزدوج double agent: هو العميل الَّذِي يتظاهر بالعمل لصالح جهاز استخبارات مُعيَّن في حين أنه يعمل لصالح العدو في الحقيقة.

ضابط الحالة case officer: ضابط مكافحة استخبارات يجنّد العُمَلَاء ويدير أنشطتهم.

الصندوق الميت dead drop: مكان لإيصال الرسائل وتمرير أشياء محددة أو معلومات بين شخصين يستخدمان موقعاً سرياً.

الصندوق البشري live drop: شخص يُستفاد منه لنقل الرسائل السرية، دون أن يعرف طبيعتها.

الصندوق الهاتفي phone drop: تبادل الرسائل السرية عن طريق الهاتف.

البيت الآمن safe house: مكان سري يُتَّخذ للاختباء أو التواري عن الأنظار، أو لعقد اجتماعات سرّيَّة.

المراقبة البشرية:physical surveillance مراقبة مُحَقِق أو عميل (إنسان) لشخص مشبوه.

المراقبة التقنية technical surveillance: استخدام أجهزة تنصت إلكترونية أو كاميرات مخفية. أو التلاعب بأجهزة إلكترونية موجودة في المكان لتنفيذ المراقبة.

الخلد mole: جاسوس طويل الأمد، يُجَنَّد قبل تبوئه موقعاً يخوله الوصول إلى معلومات استخباراتية سرية.

الاختراق penetration: تجنيد عُمَلَاء من جهاز استخبارات معادٍ.

البوليغراف (جهاز كشف الكذب) polygraph: جهاز يُستفادُ منه في معرفة ما إن كَانَ الشخص المُخْتَبَر صادقاً أم كاذباً، ويعتمد على قياس ضغط الدم ومعدَّل التنفس والتعرق.

العميل من نوع الطعم dangle ,provocation: عميل يبعثه جهاز استخبارات للعمل ضد جهاز آخر(معادٍ) بِحَيْثُ يُكتشف ويُعاد تجنيده.

معلومات بناء الثقة build-up information: هي المعلومات الَّتِي يمررها جهاز استخبارات إلى جهاز استخبارات آخر عن طريق عميل أو عميل مزدوج، كي يكسب ثقة هَذَا الجهاز.

ملاحظات الناشر

نفدت الطبعة الأصلية من كتاب "**ردع الأعداء في الداخل والخارج**" والَّتِي نُشِرَت سنة 1987، وبقيت المكتباتُ خاليةً من الكتاب لسنوات عديدة، لكن عاد الطلب عليه من المختصين والباحثين وغيرهم من المهتمين بعالم الاسْتِخْبَارَات، فأعادت مطبعة جامعة جورجتاون طباعة هَذَا الكتاب حرصاً منها على إيصال حكمة جونسون الَّتِي راكمتها السنون حول مبادئ وتكتيكات مكافحة الاسْتِخْبَارَات إلى متناول الجميع مجدداً.

كما قد نشرنا النص الأصلي كاملاً ودون تعديل باستثناء تصحيح بعض الأخطاء النحوية والإملائية الَّتِي وقعت سهواً في النسخة الأصلية، كما أضفنا مقدّمَة جديدة كي تُقَدِّمَ خلفيَّة عن الكتاب وعمل الكاتب. ولم يُنقَّح الكتاب بِحَيْثُ تُراعى فيه التغييرات التقنية أو الأوضاع العالمية المُستجِدَّة لسببين:

الأول: هو أن الغاية الرئيسية من هَذَا الكتاب هي تعليم القرّاء كيف يفكّرون بمكافحة الاسْتِخْبَارَات، وهَذِهِ المبادئ الأساسية تنتقل كما هي من عصر لآخر، أما التحديث بناءً على الأوضاع الحالية وأحدث الوسائل فيمكن أن يكون مفيداً على المدى القصير لكن سرعان ما ستسبقه التطورات فيصبح مِمَّا عفا عليه الزمن في غضون سنوات قليلة.

أما السبب **الثاني**: فيعود إلى أن الكاتب قد توفي قبل الإعداد للنشر، لذا فقد اخترنا ألا نفرض رؤى قد لا يوافِقُ عليها.

توطئة

أفضلُ تعريفٍ للتجسسِ هو: سرقة الأسرار، وعلى النقيض منه فمكافحةُ الاسْتِخْبَارَات ما هي إلا سلسلةٌ من المسؤوليات الَّتِي تتراوحُ ما بين حفظ الأسرار الَّتِي يتربَّصُ بِهَا جواسيس العدو والفضوليون وحَتَّى الصحفيون، إلى دراسة وكالات المخابرات الأجنبية والأفراد الَّذِينَ قد يكونون ضالعين فِي التَّجَسُس.

مكافحة التَّجَسُس عنصرٌ آخر من أهم عناصر مكافحة الاسْتِخْبَارَات، وبالتأكيد هو شديد الحساسية، ويشمل الاستفادة من العُمَلَاء الأجانب المُعتَقَلِين أو المُكتَشَفِين بُغية خديعة أو تضليل مُشغِّلِيهم. ومن أشهر الأمثلة على مكافحة التَّجَسُس المُعاصِرة استفادةُ الحلفاء من الجواسيس الألمان الأسرى الَّذِينَ عملوا لاحقاً لصالح الحلفاء لإيصال المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي رسَّخَت قناعةَ هتلر بأنَّ الإنزالات البحرية على شواطئ النورماندي فِي الحَرْب العالمية الثانية ليست إلا خديعةً للتغطية على الإنزالات الحقيقية الَّتِي ستجري على بعد عدةِ أميالٍ شمالاً من مكان الغزو الحقيقي.

كضابط برتبة نقيب فِي كتيبة استخبارات فِي فرقة المشاة الثانية فِي الجيش الأمريكي، شقَّ وليام جونسون طريقه عبر شواطئ النورماندي فِي السادس من حزيران سنة 1944، وبحلول شهر أيار سنة 1945 كَانَ فِي مدينة بيلسن المحررة فِي تشيكوسلوفاكيا.

بعد الحَرْب وفترةٍ من الدراسات العليا والتدريس، سأل بيل صديقاً قديماً -كَانَ قد ساعده فِي الكِتَابة والنشر فِي مجلة "فِيرِوسُو"[1] فِي جامعة "ييل"- عما إذا كَانَ ثمة عمل لَهُ فِي وكالة المخابرات المركزية (سي آي إيه). "يا للهول، طبعاً" هَكَذَا أجاب جيم أنجليتون، وكَانَ وقتها مدير فريق مكافحة الاسْتِخْبَارَات فِي السي آي إيه.

---

[1] مجلة أدبية جامعية تحظى باحترام كبير، وجذبت انتباه توماس ستيرن إليوت، وهو شاعر، وكاتب صحفي، وناشر، وكاتب مسرحي، وناقد أدبي. يُعتَبَرُ واحداً من أهم شعراء القرن العشرين، وشخصية رئيسية فِي الشعر الإنكليزي الحداثي.

أولى المهام الَّتِي كُلِّفَ بِهَا بيل في أوروبا أعطته نظرةً عن كثب ودوراً في بعضٍ من أنجح عَمَلِيَّات السي آي إيه في بداية فترة الحَرْب الباردة. وعندما حامت الشكوك حول هينز فيلف الضابط الأعلى منه رتبةً في جهاز الاسْتِخْبَارَات في ألمانيا الغربية الَّذِي شكَّله الغرب حديثاً، ارتدى بيل الَّذِي كَانَ من هواة تسلق الجبال بدلة التسلُّق وبادر بنفسه إلى تحري شاليه البافاري المُنعَزِل، والَّذِي ادَّعى فيلف أنه اشتراه بأموال قدَّمتها عمة لَهُ في الولايات المتحدة.

وبالفعل وجد الشاليه، وكَانَ حديث البناء، مرتَّباً، يحتوي تلفازاً كبيراً ملوناً -كَانَ اقتناء تلفاز ملوَّن في ذَلِكَ الوقت رفاهيةً يعجزُ عنها أي موظَّف حكومي في ألمانيا- لقد كَانَت فكرة أن موظَّفاً حكومياً من الدرجة المتوسطة يمكن أن يبني بيتاً فاخراً بأثاث باهظِ التكلفة ليقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع، هي الفكرة الَّتِي قدَّمَت الدليلَ الأوَّلي لاعتقاله ومن ثُمَّ إدانته مع عميلٍ فيدرالي آخر.

وبعد عشر سنوات من العمل في مجال مكافحة الاسْتِخْبَارَات في أوروبا، ذاك المجال الحيوي، أعادته وظيفته الجديدةُ إلى واشنطن حَيْثُ عمل في وظيفة رفيعة: **إدارة عَمَلِيَّات السي آي إيه في مجال مكافحة الاسْتِخْبَارَات في الشرق الأقصى**، وذَلِكَ اعتباراً من سنة 1960 حَتَّى نَقلِهِ إلى سايجون سنة 1973، وكَانَت هَذِهِ نقلةً نوعيةً كبيرةً.

معظم أفراد السي آي إيه رفيعو المستوى الَّذِينَ عملوا في مكافحة الاسْتِخْبَارَات بدأوا عملهم في الحَرْب العالمية الثانية كأعضاء في إكس-2؛[1] فرع مكافحة الاسْتِخْبَارَات في مكتب الجنرال "ويليان دونافان" لأجهزة الدولة الإستِرَاتِيجِيَّة. وغالباً ما عمل أفراد إكس-2 عن كثب -كتفاً إلى كتف- مع زملائهم من طاقم مكافحة الاسْتِخْبَارَات البِرِيطَانِيّ ذي التجربة العريقة في أوروبا والشرق الأدنى. وشملَ العملُ القبضَ على عُمَلَاء الألمان وتوجيههم إلى خداع أجهزة الاسْتِخْبَارَات النازية.

[1] **مكتب الأجهزة الإستِرَاتِيجِيَّة:** وكالة الاسْتِخْبَارَات الحربية للولايات المتحدة خلال الحَرْب العالمية الثانية، ويُعتَبَر الجهاز الأب لمكتب الاسْتِخْبَارَات والأبحاث، ووكالة الاسْتِخْبَارَات المركزي؛ سي آي إيه.

لعبت إكس-2 دوراً أقل في مسرح عَمَلِيَّات الأطلسي، نخلال الحَرْب العالمية الثانية رفض الجنرال "دوجلاس ماك آرثر"[1] أي نشاط كبير لمكتب الأجهزة الإستِرَاتِيجِيَّة في المنطقة الَّتِي تقع تحت قيادته. واقتصرَ الاستثناءُ الوحيدُ لِهَذَا القرار التعسفي على بعض الأنشطة شبه العَسكَرِيَّة خلف الخطوط اليابانية، دون الحاجة إلى دعمٍ كبيرٍ من مكافحة التَّجَسُس الَّذِي تميَّزت بِهِ العَمَلِيَّات الإستِرَاتِيجِيَّة في أوروبا والشرق الأدنى.

كما برزت مكافحة الاسْتِخْبَارَات في أنشطة مكتب الأجهزة الإستِرَاتِيجِيَّة في الشرق الأقصى بِشَكلٍ أقلَّ منها في أوروبا. وأدَّت مهمة بيل جونسون سنة 1960 في السي آي إيه في قسم الشرق الأقصى إلى الوصولِ إلى مستوى جديد من عمل السي آي إيه في هَذِهِ المنطقة. وبقي في منصبه حَتَّى سنة 1973، عندما عُيِّن في منصبٍ قياديٍّ كبيرٍ في "سايجون" عاصمة الفيتنام الجنوبية سابقاً، وبقي فيها حَتَّى إخلاء السفارة الأمرِيكِيَّة ومحطة السي آي إيه سنة 1975.

ومِمَّا يجدر ذكره هُنَا: رواجُ العديد من الادِّعاءات بأن السي آي إيه تركت خلفها الكثير من الملفات والمواد السرية في سايجون، وفي الحقيقة فالوثائق الوحيدة الَّتِي تركتها السي آي إيه دون إتلافها كَانَت بعضاً مِمَّا بقي في مكاتب الاتصال في أجهزة الاسْتِخْبَارَات الفيتنامية الجنوبية.

ولبعض الوقت بعد تقاعده، بقي بيل وزوجته باتريشا -الَّتِي كَانَت هي الأخرى عميلةً متقاعدةً للسي آي إيه في فيتنام- مُقَرَّبَين اجتماعياً من أصدقائهما الفيتناميين في منطقة واشنطن. وبعد انتقاله إلى كولورادو، أعدَّ بيل سلسلةً من المحاضرات عن الاسْتِخْبَارَات في الحكومة الَّتِي كَانَت عنصراً مهماً في مؤتمر جامعة كولورادو عن الشؤون العالمية.

[1] **الجنرال دوجلاس ماك آرثر**: كَانَ قائداً عسكرياً أمريكياً عمل كجنرال في القوات الأمرِيكِيَّة، وماريشالاً في الجيش الفيلبيني. وكَانَ رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي في الثلاثينات، ولعب دوراً بارزاً في جبهات المحيط الأطلسي خلال الحَرْب العالية الثانية.

"**ردع الأعداء في الوطن وفي الخارج**" دراسة فريدة وكرَّاس عن مكافحة الاسْتِخْبَارَات ومكافحة التَّجَسُس، وهو يحظى بتقييم جيد ولذا فقد اعتُمِدَ في العديد من المناهج الجامعية في الولايات المتحدة وخارجها.

وليام هود:

ضابط سابق في السي آي إيه ومؤلف كتاب" الخلد: القصة الحقيقية لأول جاسوس روسي أصبح جاسوساً أمريكياً.

مقدِّمة المؤلف

كتبت هَذَا الكتاب كي أُبيّن للذين يريدون أن يعرفوا ما هي مكافحة التَّجَسُس كما هي في الحقيقة وليس كما ينبغي أن تكون عليه، ولأجل أولئك المهتمّين بِهَا كمهنة أو عمل. هَذَا الكتاب يتناول ما يسمّيه ضباط الاسْتِخْبَارَات المحترفون "الِحرفة"، وتحديداً حِرفة عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات. لا يتعلق الأمر بعلم السياسة ووضع السياسات، ولا الشيوعية ومكافحة الشيوعية، ولا العدالة في العالم النامي، أو حقوق الإنسان، أو الدين، على الرغم من أن هَذِهِ الأشياء تؤثّر على مهنة مكافحة الاسْتِخْبَارَات، تماماً كما تؤثّر فيها أيضاً التجارة بالأسهم في البورصة والتنقيب عن النفط والصحافة، مع أننا سنعرِّجُ على تأثير هَذِهِ الأمور حين يحين الوقت، وسأوضّح مخاوفي حولها، لكن على اعتبارها عناصرَ ضمن البيئة الَّتِي تجري فيها مكافحة الاسْتِخْبَارَات فحسب.

خلال سنوات عملي في مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي امتدت لِمَا يزيد على ثلاثين سنة، قضيتها جميعاً كضابط أمريكي، لكنني عملت كثيراً مع ضباط مكافحة استخبارات من بلدان أخرى. وأعتقد أن هَذَا الكتاب سيكون مفيداً للقُرّاء ليس فقط من الولايات المتحدة بل للقُرَّاء من بلدانٍ أخرى مُتَحالِفَةٍ مع الولايات المتحدة أو غيرِ متحالفةٍ معها، ليس لأن هَذِهِ البلدان تَكِنُّ عداءً لأمريكا، بل لأن التَّجَسُس والإرهاب قد يحدث على أراضيها.

ولتوضيح نقاط مختلفة، استشهدت بالعديد من الحالات الَّتِي جرت بالفعل، وبعضها نُشِر للعلن بدرجات متفاوتة في الدقة، في حين أن بعض الحالات لم تُنشَرْ من قبل. والشخصيات في هَذِهِ القصص الَّتِي لم يهتمَّ بِهَا الصحفيون أو المؤرخون أو كُتّاب القصص الوثائقية الخيالية استبدلتُهم عبر تغيير الأسماء والتواريخ والأماكن (تُسمى عملية التغيير هَذِهِ في مصطلحات عالم مكافحة الاسْتِخْبَارَات "التعقيم"). وقد فعلت هَذَا لحماية نفسي وحماية ما يسميه القانون الأمريكي "المصادر والطرائق" من أعمال عدائية قد تلحق بهم جرّاء نشر أسمائهم الحقيقية.

كما أجريت بعض التعديلات وحذفت بعض المواد بناءً على طلب وكالة الاسْتِخْبَارَات المركزية الأمرِيكِيَّة، الَّتِي راجعت المحتويات بتأنٍ وتشجيعٍ وعنايةٍ. ما أعرفه حول عمل الجواسيس تَعَلَّمْتُهُ كضابط أدى اليمين للعمل تحت سلطة الحكومة، ولذا فالحقائق الَّتِي أعرفها حول أعمال التَّجَسُّس مِلْكٌ للحكومة وليست ملكي. أما الآراء فتعبِّر عنّي ولا تتبنى وكالة الاسْتِخْبَارَات الأمرِيكِيَّة هَذِهِ الآراء ولا ترفضها.

(1)

ما هي مكافحة الاسْتِخْبَارَات؟

يميلُ النَّاسُ إلى خلط الأمور بين مكافحة الاسْتِخْبَارَات (counterintelligence) والأمن، وهما عملياً مُتَّصِلان، لكنهما في الحقيقية مستقلان عن بعضهما البعض. وعلى هَذَا النحو، إن الأمنَ جزءٌ أسَاسِيّ من أعمال المخابرات بما في ذَلكَ المخابرات المركزية. لذا لدينا الأمن المادي: الأسوار المحيطة بالمباني، الأشخاص الَّذِينَ يتقلَّدون الشارات والرتب، الخزائن والضباط الَّذِينَ يفتشونها بانتظام على مدار الساعة للتأكد من أنها مُقفَلَةٌ ولا شيء متروك خارجها، أكياس الحرق،[1] مخافر الحراسة، كاميرات المراقبة، الدارات الإلكترونية لتشفير الاتصالات الهاتفية منعاً للتنصُّت، وغيرها كثير. فهي تُبعِد اللصوص وتمنع فقدان المعلومات سواءً كَانَ الفقدُ عَرَضَاً أم سهواً.

لدينا إضافةً إلى هَذَا الأمن الشخصي: التحقيقات المسبقة حول خلفية المرشَّحين للعمل، والتحرِّيات الدورية عن العاملين وغيرها. وأخيراً -وخصوصاً في عمل الاسْتِخْبَارَات- لدينا الأمن العملياتي، ويتلخَّص في "**إبقاء فمك مغلقاً**"، وحفظ الأسرار سواء كَانَت أسرارك أم أسرار حكومتك، وألَّا تسمح لأي شخص كَانَ بوضعك موضعَ الابتزاز.

وثمة شيء آخر وهو الأهم: يتطلبُ الأمنُ العملياتي الالتزامَ بقاعدة: "**المعرفة بقدر الحاجة**"، مِمَّا يعني أنه لا يمكن الوصول إلى معلومة حساسة إلا للأشخاص الَّذِينَ يحتاجون معرفتها. وبالمناسبة، يعزّزُ هَذَا القانونُ فاعليةَ الاسْتِخْبَارَات عن طريق الحد من التعامل مع الأوراق.

---

[1] أكياس الحرق: أكياس أمنية تُجمَع فيها الوثائق الحساسة والسرية الَّتِي يَجِبُ إتلافها بالحرق أو التفتيت بعد مدة معينة من الزمن.

الأمن العملياتي: هو طريقة حياة جميع الأنشطة السرية سواء كَانَت: مكافحة استخبارات أم مكافحة تَجَسُس أم تَجَسس أم خيانة زوجية أم لعبة البوكر، فبالنسبة لمن يقومون بِهَذِهِ الأنشطة تشبه حياتهم حياة كاتب أو رياضي أو موسيقي، لكن أعمالهم هَذِهِ ليست بحد ذاتها أعمالاً أدبية أو ألعاباً أو عزفاً. ومثل كُلِّ الأعمال الأمنية، الغاية من هَذِهِ الأنشطة السرية وقائية: فهي تُبعِد السموم والجراثيم المُعدِية (الشبهات).

مجالات الأمن كثيرة، فما هو المختلف بالنسبة لمكافحة الاسْتِخْبَارَات؟ تماماً كما يدل الاسم: إنها تهدف للعمل ضد الاسْتِخْبَارَات، ضد نشاط الاسْتِخْبَارَات المعادية، ضد جواسيس العدو. وهي إيجابية وليست سلبية إطلاقاً.

تَستخدمُ مكافحةُ الاسْتِخْبَارَاتِ عدداً من التقنيات، ومعظمها أنواع مختلفة مثل الاستكشاف والتحقيقات والبحث. وبالتأكيد تستفيد من العديد من تقنيات مكافحة التَّجَسُس. وجميع تقنياتها تهدف لإحباط أجهزة التآمر الأجنبية الَّتِي تسعى للحصول على معلومات سرية أو حساسة تتعلق بالحكومة الَّتِي تعملُ أنت لصالحها.

البعض -صحفيون، سياسيون، رواة، وحَتَّى بعض العاملين في الاسْتِخْبَارَات- يخلطون بين مكافحة الاسْتِخْبَارَات ومكافحة التَّجَسُس الَّتِي تُعَدُّ جزءاً منها. إن الاتجاه البِرِيطَانِيّ الَّذِي يجعل مكافحة الاسْتِخْبَارَات مندرجةً في مكافحة التَّجَسُس، هو عكس الطريقة الَّتِي يتَّبِعُها هَذَا الكتّاب لاستخدام هذين المصطلحين. ويستخدم بعض الضباط غير المبالين في وكالة المخابرات المركزية المصطَلَحَين دونما تفريق: مكافحة الاسْتِخْبَارَات/مكافحة التَّجَسُس، لكن هَذَا مضلل.

أما الصيغة المُستَخدَمَة في هَذَا الكِتَاب فهي أنَّ: مكافحة التَّجَسُس هي فرعٌ من مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي تخترق وتتلاعبُ بأي جهاز تَجَسُس أجنبي دخيل، وهي ليست نشطةً (دفاعية) فحسب بل هي هجوميةٌ أيضاً. فالميزةُ الأساسيةُ لمكافحة التَّجَسُس هي التلاعبُ، وهي الغايةُ النهائيةُ لِكُلِّ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَات.[1]

ولننظر للأمر من زاوية أخرى، تذكَّر أن مكافحة التَّجَسُس هي فرعٌ من التَّجَسُس، وأن التَّجَسُس سرقة. التَّجَسُس هو سرقة المعلومات مِمَّا يعني خرق القانون (قوانين الآخرين)، فإن لم يكن لدى هَذَا الآخر قانون ضدك عندما تجسس عليه فلن يُعدَّ عملك تجسساً. فلا شيء يثير حنق ضابطة استخبارات محترفة أكثر من أن يُقال لَهَا أن عَمَلَهَا يقتصر على جمع المعلومات، كما لو كَانَت فتاة ترتدي مئزراً وتجمع الجوز في شهر أيار، أو صحفية. بينما عملها الجديرُ بِهَا هو سرقةُ المعلومات -بعناية وانتقائية وسرّيّة- بالاستفادة من جهاز من العُمَلَاء الَّذِينَ يُجَنَّدون ويُدَرَّبون ويُختَبَرون ويُراقَبون ويحظون بالحماية الوثيقة.

مكافحة التَّجَسُس أيضاً هي سرقة المعلومات باستخدام جهاز من العُمَلَاء، والفارق هو أنك عندما تسرق سراً عسكرياً من القوة الجوية التابعة لدولة ما أو جيش، أو سراً سياسياً من وزارة خارجية لدولة ما فهَذَا يُسمى تجسساً، **أما عندما تسرق هَذِهِ المعلومات من جهاز استخبارات فهَذَا يُدعى مكافحة تَجَسُس.**

ومثل أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكيَّة يمكنك وصف الشخص الَّذِي تُجنّده وتُدرّبه وتحميه وتدفَعُ لَهُ وتُشرِفُ عليه كي يسرِقَ سراً من حكومة أجنبية "**عميلاً**". أما إن كُنْت تسرق من الكي جي بي؛ جهاز الاسْتِخْبَارَات التابع للاتحاد السُّوفيَاتِيّ السابق (لجنة أمن

[1] لم يستطع المؤلف في هَذِهِ العبارة التفريق بِشَكلٍ واضح بين مكافحة التَّجَسُس ومكافحة الاسْتِخْبَارَات، لكنه أشار أن مكافحة الاسْتِخْبَارَات أشمل وأوسع، ولعله يقصد أن مكافحة التَّجَسُس هي كشف جواسيس العدو واختراق جهاز استخبارات آخر وسرقة المعلومات منه، أما إذا ارتقى الأمر إلى مسار إستراتيجي مثل تضليل هَذَا الجهاز وشن حرب نفسية عليه بمعلومات مغلوطة بهدف توجيهه فذلك يدعى مكافحة استخبارات، أي أن كُلّ مكافحة استخبارات هي مكافحة تَجَسُس ولا عكس.

الدولة) أو من الشرطة الوطنية السويسرية أو منظمة التحرير الفلسطينية فَيَجِبُ عليك تسمية هَذَا "**اختراقا**" ("خلداً")، وأياً كَانَت الطريقة الَّتِي يتجسس فيها الجاسوس أو الجاسوسة على جهاز تَجَسُس ("تآمري")[1]، فالمعلومات الَّتِي يسرقها ستُستخدم للتلاعب بِهَذِهِ الأجهزة.

سنتحدَّث لاحقاً في هَذَا الكِتَاب عن تقنيات مكافحة الاسْتِخْبَارَات وأدوات هَذِهِ الحِرفة:

- جهاز الدعم.
- الاستجواب.
- المراقبة مادياً وتقنياً، والعُمَلَاء المزدوجون.
- الاختراق (الخُلد).
- المُنشَقُّون.
- الارتباط.
- ترتيب الملفات.

كُلّ هَذِهِ الأشياء تُستخدم في مكافحة الاسْتِخْبَارَات من أجل بعض المهام الخاصة مثل مكافحة الإرهاب، ومن أجل العمل الأهم لمكافحة الاسْتِخْبَارَات ألا وهو: الخداع الإستِرَاتِيجِيّ.

[1] يمكن أن يحصل التَّجَسُس على جهاز تَجَسُس صديق لعدة أهداف ستذكر فيما بعد، أما التَّجَسُس ضد جهاز تآمري فيقصد بِهِ التَّجَسُس على جهاز معادٍ.

(2)

من يقومُ بمكافحةِ الاسْتِخبَارَاتِ ولماذا؟

في زمانِنا هَذَا جميع الدول سواءً كَانَت كبيرة أم صغيرة، شيوعية أم غير شيوعية، مُنحازَةً أم غير مُنحازة، مُتقدمة أم غير مُتَقَدِّمَة، ونامية أم غير نامية، يَجِبُ عليها لِزامًا أن تقوم بأعمال مكافحة الاسْتِخْبَارَات. في بعض البلدان تكون المخابراتُ المركزيةُ مؤسسةً ضخمةً، وفي دول أخرى تكونُ امتداداً لعمل الشرطة المحلية، لكنها -في كُلِّ الأحوال- تدخل في كُلِّ شيء، لأنه لا يوجد أي دولة بمنأى عن التَّجَسُس.

في أماكن مثل بوركينا فاسو والباراغوي ولكسمبرغ يقوم الجواسيسُ بعملهم على أكمل وجه، لكن ليس ضد الحكومة المحلية بل ضد البلدان الأخرى وضد بعضهم البعض، فمثلاً سويسرا والنمسا تُعتبران ساحتين سيئتي السمعة للجواسيس، ليس لأنَّ لديهما أسراراً هامة تخصَّهما بل لأنهما أماكن مريحة لتنفيذ أعمال التَّجَسُس.

نتيجةً ظاهرة التَّجَسُس هَذِهِ ظهرت: "قوات مكافحة التَّجَسُس العالمي"، وما هَذِهِ القوات إلا نوعٌ من الأخوَّة غير الرسمية يقوم أفرادها بذات العمل ويستخدمون ذات الأدوات أياً كَانَت اللغةُ الَّتِي يستخدمونها وأياً كَانَ العَلَمُ الَّذِي يُحَيُّونَه عندما يُعزَف نشيدهم الوطني. لا يوجد مخابرات دولية رسمية على غرار الإنتربول، لكن ثمة تعاونٌ واسعٌ بِشَكلٍ غير رسمي بين أجهزة الاسْتِخْبَارَات، وخلال الحَرْب الباردة عَمِلَت الأجهزة المُعادِيَة للسوفييت معاً في ترتيبات مخصصة، وعملت أجهزة الكتلة السُّوفيَاتِيَّة تحت إشراف الكي جي بي المباشر، أما الأطراف المحايدة فقد انتقت واختارت.

ما السماتُ المُمَيّزة لضباطِ الاسْتِخْبَارَات؟

تعلَّم الخبراء أن لدى العاملين في مجال الاسْتِخْبَارَات سمات مشتركة سواء كَانَ هؤلاء العاملون يعملون لصالحهم أم لصالح غيرهم من أجهزة مكافحة الاسْتِخْبَارَات الأخرى، وهم ينقسمون إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: هي مجموعةُ محللي الاسْتِخْبَارَات الإيجابيين؛ أعطهم ورقةً عليها بعض المعلومات، وعلى الفور سيقومون بثلاثة أشياء:

1. يتحققون من مدى صحتها.
2. يقيّمونَها وفق سياق المكان والموضوع.
3. يحاولون الاستفادة منها لإنشاء تقريرٍ كاملٍ أو دراسةٍ يمكن تقديمها لصُنَّاعَ القرارِ على مستوىً ما، وكُلَّمَا كَانَ المستوى أعلى كَانَ ذَلِكَ أفضل.

الفئة الثانية: هي فئة ضابط حالة التَّجَسُس؛ أعطِ ذات الورقة لضابط حالة تَجَسُس يديرُ عُمَلَاء لجمع معلوماتٍ استخباراتيةٍ عَسكَرِيَّة أو سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ، سيقومُ هو الآخر بثلاثة أشياء، لكنها مختلفة:

1. يتفحَّصُها ليحددَ مصدرها.
2. يحاولُ معرفة أو تخمين دافعُ الكاتبِ لإصدارها.
3. البحثُ عن طريقة لاستخدامها للتأثير على شخص ما، وعادةً ما يكون هَذَا الشخص عميلاً مُحتَمَلاً.

الفئة الثالثة: هي فئة ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، تنحصرُ أعمال ضابط مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ في الجمع بين عمل هذين النوعين من الضباط:

1- مثل محلل الاسْتِخْبَارَات، سيحاول ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات استغلالها عبر إدخالها في سياق معرفته وليس لنشرها (إعداد تقرير استخباراتي)، بل من أجل إضافتها إلى

ملفات العمل المُتزايِدَة والمُتغَيِّرَة (انظر الفصلين 16 و17). الاسْتِخْبَارَات "الإيجابية"[1] - العَسكَرِيَّة والسِّيَاسِيَّة والاقتصاديَّة- ليست محل اهتمام، إلا إن كَانَت تُشَكِّل خداعاً أو تلفيقاً، وبالتالي قد تؤدي إلى تحقيق هدف من أهداف الاسْتِخْبَارَات المضادة.

2- ومثلَ ضابط حالة التَّجَسُس سيبحث ضابط الاسْتِخْبَارَات المضادة عن طريقة لاستخدام التقرير للتأثير على شخص ما، ليس للقيام بالمزيد من عَمَلِيَّات التَّجَسُس بل لتجنيدِ عميلٍ مزدوجٍ أو لتحقيق اختراق. فإن كَانَ التقرير يبدو مُختَلَقاً، سيُكَثِّفُ تحقيقاته حول المصدر، لأن المصدرَ هو النقطة الَّتِي قد يلتقي فيها مع العدو.

لاحظ: تتكون تقارير الاسْتِخْبَارَات الإيجابية من جزأين، الأول يضمُّ المعلومات، والثاني يحددُ مصدر هَذِهِ المعلومات ولكن بِشَكلٍ مشفرٍ، فالجزء الَّذِي يظهر الاسم الكودي للمصدر لا يُعطَى للمستفيدين. في هَذِهِ الأجهزة "المُخْتَلَطَة" الَّتِي تُجري أعمال التَّجَسُس ومكافحة الاسْتِخْبَارَات، واحدةٌ من أعمال مكتب مكافحة الاسْتِخْبَارَات هي الحفاظُ على التحريات المستمرة للعملاء لكشف أولئك الَّذِينَ اندسُّوا داخل الجهاز (عُمَلَاء من نوع الطعم) أو الَّذِينَ اكتشفهم العدو فجَنَّدهم ليصبحوا عُمَلَاءَ مزدوجين لَهُ.

3- بخلاف زملائه/زملائها سيُجَفِّفُ ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات التقرير من كافة المعلومات عن الأشخاص، ويضعُ هَذِهِ المعلومات في نظام الملفات.

[1] يُقصد **بالاسْتِخْبَارَاتِ الإيجابية**: الاسْتِخْبَارَات الموجَّهة للعمل في الدول الأخرى سواء كَانَت معادية أو غير معادية، وليست الغاية منها الوقاية من التَّجَسُس.

الفروقُ بينَ ضابطِ الحالةِ وضابطِ التحليلِ وضابطِ مكافحةِ التَّجَسُسِ

ضابطُ الحالةِ	ضابطُ التحليلِ	ضابطُ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ
المسؤول عن تشغيل الجواسيس ويتحقق من مدى صحة المعلومات.	يتفحَّصُ المعلومات ليحددَ مصدرها.	يحاول استغلال المعلومات عبر إدخالها في سياق معرفته وليس لنشرها (إعداد تقرير استخباراتي)، بل من أجل اكتشاف أي محاولة اختراق.
يقيِّم المعلومات وفق سياق المكان والموضوع.	يحاول معرفة أو تخمين دافع الكاتب لإصدارها.	سيبحث ضابط الاسْتِخْبَارَات المضادة عن طريقة لاستخدام التقرير للتأثير على شخص ما، ليس للقيام بالمزيد من عَمَلِيَّات التَّجَسُس بل لتجنيد عميل مزدوج أو لتحقيق اختراق
يحاول الاستفادة من المعلومات لإنشاء تقرير كامل أو دراسة يمكن تقديمها لصُنَّاع القرار على مستوىً ما، وكُلَّمَا كَانَ المستوى أعلى كَانَ ذَلِكَ أفضل.	البحث عن طريقة لاستخدامها للتأثير على شخص ما، وعادة ما يكون هَذَا الشخص عميلاً مُحتَمَلاً.	بخلاف زملائه/زملائها سيُجَفِفُ ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات التقرير من كافة المعلومات عن الأشخاص، ويضعُ هَذِهِ المعلومات في نظام الملفات.

لا شكَّ أنَّ هَذَا التفريق ضروري. وفي ميدان العمل وخصوصاً في الأجهزة المُختَلَطَة مثل وكالة الاسْتِخْبَارَات الأمرِيكيَّة المركزية وجهاز الاسْتِخْبَارَات البريطانية السرية، وجهاز الاسْتِخْبَارَات الألمانية، يَجِبُ أن ينتقل الضابط من مجالٍ إلى آخرٍ ويَجِبُ أن يتولى عدة مهامٍ معاً، ضابط حالة تَجَسُس حَتَّى الظهيرة، ثُمَّ محلل استخبارات حَتَّى المساء، ثُمَّ ضابط مكافحة استخباراتٍ حَتَّى وقت النوم.

وفي هَذِهِ الأجهزة يُعَاني الضباط قليلاً من انفصامٍ في الشخصية، وقد يخففون من هَذَا الانفصام عبر تبنّي مجالٍ واحد أو تخصص واحد فقط. وُجِدَ أن تكليف الضباط الَّذِينَ "يغلب على اهتمامهم مكافحة الاسْتِخْبَارَات" بمناصب إشرافية على الوحدات الَّتِي تتحمل أعباء تَجَسُس ثقيلة يؤدي إلى تحسين جودة نتائج عملية التَّجَسُس. وفي المقابل فالمشرفون الَّذِينَ "يركّزون على جمع كميةٍ كبيرةٍ المعلومات" يزيدون غالباً من كفاءة وحدات مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي يقودونها. ففي الأجهزة المُختَلَطَة يَجِبُ أن يكون جميع الضباط متعددي التخصصات، مِمَّا يعني مزيجاً من الفئات الثلاث الَّتِي تحدَّثنا عنها آنفاً، مع تركيزٍ على واحدٍ منها.

سِماتُ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ، هل لديكَ هَذِهِ السمات؟

المُستَجِدُّون في مهنة مكافحة الاسْتِخْبَارَات، وأولئك الَّذِينَ يفكّرون بدخولها، ربما عليهم التفكيرُ مليَّاً ببعض من السمات الآتية:



سِمات مكافحة التَّجَسُس

الفضول:

لا حاجة للقول بأن شخصاً يكونُ العمل بالنسبة إليه مجرد وظيفة -يقتصر عمله على: أشخاصٌ يستثيرُ اهتمامهم، تعليماتٌ يتَّبِعها، يومٌ يُمضِيه- فإنه لن يرغب بالحصول على عمل في عالم مكافحة الاسْتِخْبَارَات، كما لن يرغب هَذَا العالم بِهِ. انطلاقاً من هَذِهِ الحقيقة؛ يَجِبُ أن يكون لدى ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات نوعٌ خاصٌ من الفضول، نوعٌ يركِّزُ على المواد الَّتِي في متناول اليد ومن ثُمَّ يتجاوزها إلى نطاقات مُجاوِرَة.

حَتَّى المُبتَدِئون الَّذِينَ يبدؤون كموظفي ملفات يَجِبُ أن يشعروا بالفضول حول الملفات الَّتِي يعملون عليها وحول نظام الملفات نفسه. المبدأ الذهبي للعمليات الأمنية الَّذِي ينص على أن الإنسان يَجِبُ أن يعرف بقدر ما يحتاجُ فقط؛ لا يتعارض مع الفضول المهني من جانب ضباطِ مكافحة الاسْتِخْبَارَات، فالحصرُ المناسب لتداول المعلومات غير ممكن دون فضول أولئك الَّذِينَ يرتِّبون هَذَا الحصرَ ويضبطونه.

التعرُّف على الأنماطِ:

العادة الشقيقة لعادة الفضول هي تِلْكَ العادة العقلية الَّتِي تبحث عن الأنماط والتجانس والتناظر. وأبسط نموذج للأنماط هو ما يسمِّيه ضباط الشرطة "طريقة العمل"؛ أي عادات العمل لمجرم مُعيَّن. فالسارق الَّذِي يرتدي مرتين قناعاً للوجه ويوجِّه سلاحه مرتين إلى رأس الصرّاف بدلاً من جسده، وفي المرتين يخرج من البنك متراجعاً للوراء وليس عَدْوَاً؛ فهَذَا يتَّبع نمطاً يساعدُ في تحديده.

في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، تكونُ الأنماطُ أكثرَ تعقيداً. فإن أخبر ضابط حالة العدو عميلكَ المزدوجِ أن تقييماته للأزمة في سريلانكا كَانَت ذات قيمة كبيرة في موسكو أو براغ أو هافانا وأن جهاز الاسْتِخْبَارَات قد رَقّاه بسببها إلى رتبة عقيد، ستعرف أن عميلك المزدوج هَذَا يتطوَّرُ ليس ككاتب للتقييمات بل كعميل دعمٍ. وعلى الأغلبِ ستكونُ مَهَمَّتَهُ التالية القيام برحلةٍ قصيرةٍ إلى منطقة لا يستطيع ضابط حالة العدو الذهاب إليها، حَيْثُ يتعيَّن عليه تفريغ صندوقٍ ميت.[1]

كيفَ تَعرِفُ هَذَا؟

لأنك تعرف النمط: السُّوفيَات أو التشيكيون أو الكوبيُّون يتملّقون عملاءهم في العادة ويعملون على إراحة ضمائرهم ويشغلونهم بكِتَابة "تقييمات"، ثُمَّ يرمون هَذِهِ التقييمات في أكياس الحرق، وفي ذات الوقت ينتظرون الرسالةَ من الصندوق الميت في واغادوغو،[2] أو العريش أو البوقريك[3] حَيْثُ سيستلمها شخصٌ لا تحوم الشبهات حوله ولديه "غطاء" (سبب بريء) للسفر إلى هناك.

---

[1] **الصندوق الميت أو القطرة الميتة أو صندوق الرسالة الميت،** هي طريقة مُتَّبعةٌ في عالم التَّجَسُس وتُستخدَم لتمرير شيء ما أو معلومات بين شخصين باستخدام موقع سري، متجنّبَين الاجتماعات المباشرة، ودون تعرف الطرفين على بعضهما البعض، ويمكن عبرَ هَذَا أن يحافظ الأفراد على السريَّة العملياتية.

[2] عاصمة بوركينا فاسو.

[3] مدينة مكسيكية.

أو ربما يُطلَبُ من عميلك المزدوج أن يُعرِّفَ ضابطَ حالة العدو على صديق، أو شخص آخر يمكنه الوصول إلى هدف استخباراتي أو إلى صديق آخر يمكنه الوصول إلى مثل هَذَا الهدف. يمكن أن تقترحَ ضابطةُ حالة العدو مثلاً عشاءً بريئاً يمكنها من خلاله التعرف - باسم مستعار تستخدمه مُسبَقَاً مع عميلك المزدوج- على ذاك الصديق. ستقترحُ الغداء - بالتأكيد- كخدمةٍ ثانويةٍ لا تتعلق بأي شكلٍ بالتقييمات الهامة الَّتِي يكتبها عميلك المزدوج عن سريلانكا.

الأنماط: هي اسم اللعبة عندما تعمل ضد الأشخاص غير القانونيين (العُمَلَاء الموثّقون كمواطنين في البلدان الغربية، غالباً ما يكونون مواطنين سابقين من الاتحاد السُّوفيَاتِيّ أو من دولةٍ تابعةٍ لَهُ). في إحدى فترات الحَرْب الباردة انكشفَ عددٌ من المتستّرين بالجنسية الكندية كعملاء سوفيات، حَيْثُ استخدم ضابط الكي جي بي الروسي كولون مولودي هوية الكندي الميّت "جوردون أرنولد لونسدال"، واستخدم عميل غير شرعي آخر هوية شخص كندي حي توقّع بأنه لن يتقدَّم أبداً بطلبٍ لجوازِ سفر.

اتَّبَعَ جهاز دعم الكي جي بي غير الشرعي -وبالاستفادة من عُمَلَاء الدعم الَّذِينَ يعملون لصالحه- نمطاً للبحث في سجلّات المواليد والموتى في كندا (وفنلندا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا، وغيرها) للحصول على شهادات الميلاد وبالتالي جوازات السفر حَيْثُ تُبدَّل وتصدر لأشخاص غير شرعيين. عندما بات النمط واضحاً لضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات الغربيين، خضعَ عددٌ من العُمَلَاء السُّوفيَات غير الشرعيين للتحقيق والمحاكمة، بينما استدعى الكي جي بي وجهاز الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة السُّوفيَاتِيَّة عدداً آخر من هؤلاء العُمَلَاء على وجه السرعة.

الحساسيةُ اتجاهَ النمطيةِ أسَاسِيَّةٌ لكشفِ الخداع. أوَّلُ نمط يتوجَّب عليك البحث فيه (والحذر منه) هو النمط الَّذِي يبدو فيه أن جهازك الاسْتِخْبَارَاتِيّ يحقق نجاحاً باهراً، تذكَّر أن المبدأ الأساسي الَّذِي يَسِمُ الخداعَ هو أن تخبر الطرف المُستهدَف بما يريد أن يُصَدِّقَهُ. فإن كَانَ لديك نجاح بين يديك فانظر إليه بحذرٍ: هل يخبرك بوهمٍ تُرِيدُ تصديقَهُ؟ أم يخبرك بما هو المنطقي والممكن؟ يوجد على الدوام فرق.

أراد شمشون تصديق أن دليلة تحبه، في حين أن قليلاً من المنطق والمعرفة بالنمط الفلسطيني للتفكير كانا سيقولان إنَّها كَانَت تسعى للانتقام منه، وبعدها بفترةٍ قصيرةٍ وجد نفسه في غزَّة وقد سُمِلَت عيناه، في مطحنة العبيد،[1] يُثْبِتُ هَذَا المثال أن تاريخ مكافحة الاسْتِخْبَارَات يرجع إلى زمن سحيقٍ ولا يتغير.

للوهلة الأولى يبدو القبض على الجواسيس ودراسة الشعر الإنكليزي عَمَلَين لا يَمُتَّان لبعضهما بصلةٍ، لكن ثمة شيءٌ مُشتَرَك بينهما: فكلاهما عندما يُنفَّذان بكفاءة يعتمدان على معرفة الأنماط. وليس من قبيل المصادفة أن بعضاً من أكفأ ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَاتِ البريطانيين والأمريكيين في الحَرْب العالمية الثانية انضمُّوا إلى الحَرْب بعد أن كانوا يعملون كناقدين للأدب الإنكليزي. لقد تدرَّبوا على البحث عن المعاني المُتعدِدَة الكامنة للكلمات والعبارات واستيعاب البُنيَة الكاملة للقصيدة أو المسرحيَّة، وليس الحبكة السطحيَّة أو مجرد الكلام.

فالمعاني المتعددةُ إذاً والمعاني الكامنة والنموذج الأكبر (في الأدب) كَانَت بمثابةِ تهيئةٍ لهم لخوض غمار مكافحة الاسْتِخْبَارَات. لا أطلب أن يكون ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات الجدد قادرين على مناقشة تعقيدات مسرحيات شكسبير، لكن إن ضبطُّتهم يدرسون كتب "فهم الشعر" لبروك وورين[2] فلن أستشيطَ غضباً، بل سأطلب منهم أن يقرأوا

[1] جاء في العهد القديم في (سفر القضاة ـ ص 408) أن (شمشون) كَانَ جباراً عتيّاً يمكنه أن يواجه قبيلة بمفرده، فيقتلُ ألف شخص بضربةٍ واحدةٍ، فلمَّا أراد الفلسطينيون الإمساك بِهِ عجزوا عن ذَلِكَ لقوته الخارقة، فأرسلوا لَهُ (دليلة) الَّتِي وقع في غرامها وباحَ لَهَا بسر قوته قائلاً: (قوّتي في جدائل شعري السبعة فإذا حُلقتْ ذهبت قوتي)؟!! فلما نام على ركبتيه غافلته (دليلة) فقصَّت شعره، ونادت القوم فأمسكوا بِهِ وسملوا عينيه، ثُمَّ سَخَّروه في العمل في الطحن بدلاً عن حمارِ الرحى.

[2] فهم الشعر: كتاب صادر عن جامعة أمريكية ويضمُّ مُختاراتٍ شعرية، كتبه كلينث بروكس وروبرت بن وورن، نُشِر للمرة الأولى سنة 1938. وأثَّر الكتاب في الاتجاهات النقدية الجديدة وصدرت الطبعة الرابعة منه سنة 1976. أثَّر الكتاب بشدةٍ على دراسة الشعر في المستوى الجامعي بأمريكا.

مؤلفات كلينث بروكس عن "لغة المفارقات" لأن مكافحة الاسْتِخْبَارَات هي التعاملُ مع المفارقات.

الاهتمامُ بالناسِ:

الطبيبُ الَّذِي لا يحبُّ التعاملَ مع المرضى وجهاً لوجه من الأفضل أن يصبح طبيبَ تصويرٍ شعاعي، أو طبيباً شرعياً أو باحثاً. وكذلك الأمر مع ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، فالضابط الَّذِي يمتعُ وجهه من التواصل مع الناس وجهاً لوجهٍ من الأجدى لَهُ أن يلتزم مكتباً آمناً كضابط حالة، ويَجِبُ عليه/عليها التخلي عن الجزء النشط من تحقيقات مكافحة الاسْتِخْبَارَات، مثل: التحريات الميدانية وتشغيل العُمَلَاء المزدوجين، وأن يكون تابعاً للأبد للضابط في الميدان (وهَذَا ليس عيباً)، ذَلِكَ الَّذِي يقابل الناس ويتعامل معهم ويتلاعب بهم.

إن كَانَ ضابط الاسْتِخْبَارَات الميداني يقرعُ الجرسَ (رجاءً سيدتي، أعطني الحقائق)، فلابد وأن لديه الحسَّ الَّذِي يتمتع بِهِ رجال المبيعات والكَهَنَة: اهتمام عاطفي بالناس وحافز للتأثير فيهم، كما يفعلُ الكاهنُ لجعل الناس يرون نور الإيمان، وكما يفعل رجل المبيعات ليجعلهم يشترون بضاعته. دون هَذَا الطبع ينبغي أن يبقى حبيسَ المكتب مع الملفّات. لكن هَذِهِ النوعية لوحدها غير كافية، ففي الحقيقة عندما يكون هَذَا الطبعُ وحيداً فإنه يدمّرُ ضابطَ مكافحة الاسْتِخْبَارَات، إذ يَجِبُ أن يتحلّى ضابطُ مكافحة الاسْتِخْبَارَات ببعض الصفات الأخرى الَّتِي سنتحدَّث عنها.

يَجِبُ على ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات في الميدان مقابلةَ الغرباء، وإدارة فِرَقِ المراقبة، والتعامل مع العُمَلَاء المزدوجين، وإجراء التحرِّيات، وإدارة -إن حالفه الحظ- الاختراقات، والتعامل -إن حالفه الحظ- مع المُنشقّين، بمعنى: التعامل مع الناس. ويتعيّنُ عليه القيامُ بِهَذَا ضمن مسار تحليل مكافحة الاسْتِخْبَارَات وما يحيط بِهِ من ملفات.

الريبة:

أُذكِرُ على الدوام القادمين الجددَ إلى مهنة مكافحة الاسْتِخْبَارَات والقدامى منهم أيضاً بأنهم ينالون أجرهم لقاءَ أن يُكذَبَ عليهم، سيتدفَّقُ الكذبُ من أفواه الَّذِينَ تَحتَكُّ بهم وعلى سطور الأوراق الَّتِي تعملُ بِهَا، وعملك هو كظم الغيظ واستنباط الأنماط، وكلما بَدَت الأمورُ أكثرَ عقلانية يَجِبُ أن تزدادَ ريبتك. وأتمنى أن يكون لديك حسُّ الدعابة حيال هَذِهِ الأشياء جميعاً.

الصبر:

امزِجْ جميعَ الصفات الَّتِي تحدَّثنا عنها آنفاً وأضفها إلى الصبر. إن كَانَت أعصابك مُنفَلِتَةً فتعلم إمساكها، مع خوض التجربة سيتسلل إليك بعض الملل وستعتقد أنه ما من شيء يمكن أن يُفاجِئَك، ثُمَّ ستُفاجأ وتُفاجأ ثانيةً وثالثةً، حَتَّى تملَّ من المفاجأة. ستصبح عندها ضابط مكافحة استخبارات عقلانياً وصبوراً. ابدأ بتنمية فضيلة الصبر بأسرع ما يمكن، فستقيك من القرحة الهضميَّة ومن نوبات الشريان التاجي ومن ارتفاع ضغط الدم.

ضبطُ الأعصابِ:

في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات ستأتي أوقات يتعيَّنُ عليك فيها العملُ دون معرفة كافية بموقفك، وفي هَذَا الموقف يكون عمل ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات مثل أي موقف قتالي في وقت الحَرْب، وفي بعض الأحيان -كما في القتال- تكونُ الظروفُ خطيرةً وتتطلبُ شجاعةً. وعادةً ما تكون المخاطر بيروقراطية بحتة، لكنها تتطلب الاستعداد لتحمُّل المسؤولية والعمل سريعاً، وتَحَمُّل العواقبِ إن كَانَ تخمينك خاطئاً. رباطةُ الجأشِ مطلوبةٌ في كُلِّ مفصلٍ سواء كَانَ في تحليل حالة على رف في غرفة الملفات أو مقابلة عميل اختراق محتمل للعدو. لا نريد رعاة البقر في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، وإنَّما يتعيَّنُ علينا ضمُّ أُناسٍ يستطيعون اتخاذ قراراتهم والالتزام بِهَا بعد ذَلِكَ.

(3)

الأهدافُ المتضاربةُ: فرضُ القانونِ مقابلَ التلاعبِ

خارج الكومونويلث[1] (وألمانيا)؛ تُوكِلُ الدول مهامَ مكافحة الاسْتِخْبَارَات لأجهزة الشرطة. والسبب واضحٌ: التَّجَسُس والتخريب والإرهاب جرائم، والجرائم شأن الشرطة. أما البريطانيون فقد جعلوا الأمر أكثر تعقيداً حَيْثُ أوكلوا مهام الاشتباك مع أجهزة المخابرات المعادية إلى جهاز منفصل، ليس لديه صلاحية الاعتقال. هَذَا الفرع تُسَمّيه الصحافة (إم أي 5) حَتَّى الآن على الرغم من أن أعضاءه يُسمّونه جهاز الأمن. إنهم يُوكلون مهمة ملاحقة جرائم الاسْتِخْبَارَات إلى فرع خاص للشرطة، لكنهم يمنعون هَذَا الفرع من استخدام تقنيات مكافحة التَّجَسُس مثل العمالة المزدوجة والاختراق.

أعضاء الكومونويلث -على سبيل المثال: أستراليا وكندا ونيوزيلاندا- يعملون وفقاً للنظام البِرِيطَانِيّ، وكذلك الأمر مع العديد من المستعمرات البريطانية السابقة مثل ماليزيا وسنغافورا، وكذلك الأمر في ألمانيا. ففي أستراليا على سبيل المثال يُسمى جهاز الأمن على نحو يبعث على الخلط: مؤسسة الاسْتِخْبَارَات الأمنية الأسترالية، بينما في ألمانيا يُسَمَّى باسم يصعب التلفظ بِهِ: المكتب الفيدرالي لحماية الدستور (Bundesamt für Verfassungsschutz, BfV)، والقسم النظير لَهُ في جهاز الشرطة هو "الفرع الخاص" في المجموعة الأمنية ضمن الشرطة الألمانية الفيدرالية الجنائية.

لا تتداخل أي من هَذِهِ الأجهزة "الداخلية" مع الأجهزة "الخارجية" الَّتِي تعمل خارج حدود البلاد -على سبيل المثال جهاز المخابرات السرية البريطانية (SIS) جهاز المخابرات السرية الأسترالية (ASIS) والمخابرات الفيدرالية الألمانية في الداخل- لكنهم جميعاً يقومون

[1] **الكومونويلث**: رابطة سياسية تأسست سنة 1931 من 54 دولة تضم الدول الَّتِي كَانَت خاضعة للإمبراطورية البِرِيطَانيَّة.

بأعمال التَّجَسُس ومكافحة الاسْتِخْبَارَات في الخارج، حَيْثُ لا يكون لديهم بطبيعة الحال السلطة للاعتقال. وعملهم مماثل لعمل السي آي إيه الأمرِيكِيَّة والأجهزة "الخارجية" في معظم البلدان غير الشيوعية.

في الولايات المتحدة كما في غيرها من البلدان ما عدا الدول الَّتِي تنتهج النهج البرِيطَانِيّ والبلدان غير الشيوعية يطبِّق جهاز الشرطة الوطنية قوانين مكافحة التَّجَسُس بالإضافة إلى القوانين الفيدرالية الأخرى، لذا ففصل الملاحقة القضائية عن مكافحة التَّجَسُس يَجِبُ أن يبدأ في المكتب الفيدرالي للتحقيقات (FBI)، تماماً كما أن هَذَا الفصل موجود داخل الشرطة النمساوية أو التايلاندية. قد يسبب هَذَا بعض الحزازات في النفوس، لكنه مفيد كتعلُّمٍ مُتَبَادَلٍ مع الغير.

الشرطةُ مع عملِ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ:

إن كَانَ عملك هو فرضُ القانون، فأنت تستخدم آلية القانون، وهَذَا يعني أن إجراءاتك مصممة لكشف الجرائم وجمع الأدلة عنها، واستخدام هَذِهِ الأدلة في محاكمة عادلة لإدانة المجرم. وربما يكون لديك مُخبِرُونَ أو بعض العيون الَّتِي تأتيك بالمعلومات عن الجريمة، ويمكن أن تُجري بعض الترتيبات لمساعدة هؤلاء على تفادي العقاب في مقابل معلوماتهم، لكن الغاية الأساسية هي الوصول إلى إدانتهم في المحكمة.

بالنسبة لضابط فرض القانون فالتلاعب بالمجرمين للإضرار بالعصابة الَّتِي ينتسبون إليها جزءٌ من العمل، لكن الضررَ الَّذِي يأمل/تأمل بإلحاقه بهم هو الحُكم الَّذِي سيصدره القاضي بحق أفراد العصابة الآخرين بعد أن ترى هيئة المُحَلَّفين أنهم مذنبون. عندما تكون الجريمة هي السطو المسلح أو الاختلاس أو المُقَامَرَة غير القانونية، تكون هَذِهِ الإجراءات مناسبة، أما عندما تكون الجريمة هي التَّجَسُس أو التخريب أو الإرهاب تتخذُ حياتك كرجل قانون مَنحَىً مُغايراً، لماذا؟ لأن الإدانة والعقوبة القضائية للجاسوس قد لا تكون مُفيدةً لحكومتك، ولن تكون الإدانة والعقوبات القضائية لتنظيمات الجواسيس عمليَّة.

على سبيل المثال خلال الحَرْب الباردة ما كَانَ لأحد أن يتهم الكي جي بي في محكمة قانونية، أما إن فعلت، فهَذَا يعني أنك تلعب بالنار بمحاولتك استدعاء مدير الكي جي بي إلى المحكمة. التشابه بين جهاز التَّجَسُس الأجنبي والعصابة الإجرامية واضحٌ للغاية بالنسبة إلى رجل القانون، لكن إن كَانَ يطبِّق القانون حرفياً في التعامل معهما على قدم المساواة فلن يتحصَّلَ إلا على جهاز مكافحة استخبارات رديء.

إن كَانَت الغاية الأساسية من مؤسستك هي فرض القانون فستؤثِّر إجراءاتها -وأحياناً تهيمن- على العمل حَتَّى ولو كُنْت تُفَكِّرُ بهدفك بعيدِ الأجل وهو التلاعبُ بجهاز الاسْتِخْبَارَات الأجنبي. ستكون المشكلةُ هي الأسلوب الَّذِي تُجمَع فيه المعلومات وتُصنَّف وتُرتَّب. وسيتَّجه الضغط عليك لجمع الأدلة وترتيب المعلومات الَّتِي ستدعم الدليل، أو تؤدي إلى الدليل، أو تُشكِّل دليلاً، النوع الَّذِي يمكن أن يؤديه شاهدٌ محددٌ بدقةٍ، أو دليلٌ يمكن أن يُوضَعَ على الطاولة من قبيل مسدس أو سكين.

المشكلةُ هي أنه لا يمكنُ التصريحُ بمصادر مكافحة الاسْتِخْبَارَات في محكمة عَلَنِيَّة دون قطع تِلْكَ المصادر (فضحها وعدم الانتفاع بِهَا في المستقبل). والدليلُ الموثَّقُ سواءً كَانَ مُلقىً على طاولة موظف أو كَانَ معروضاً في جلسات استماعٍ في محكمة، يمكن أن يدمِّرَ المنفعةَ من مصادرِ هَذَا الدليل.

قادةُ الجواسيسِ وعملُ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ:

افترضْ أنَّك تعمل في جهاز ليس لديه الصلاحية لاعتقال أحد، ستتجه لرؤية أي شكل من أشكال "العمل التنفيذي" (الَّذِي يعني ببساطة الاعتقال والمُحاكَمَة) فشلاً لبرنامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل فيه.

لكن مهلاً، آخر مرة اكتشفتَ فيها جاسوساً وذهبتَ لتجنيدهِ كعميلٍ مزدوجٍ، كيف أقنعته بالتعاون؟ ربما خيَّرته ما بين التعاون والاعتقال، وكي تكونَ أكثرَ مصداقيةً ربما اصطحبتَ معك ضابط شرطة.

على رِسلِك، ماذا عن تِلْكَ الحالة الَّتِي عرفت فيها أن جهاز أمن الدولة الهنغاري القديم (الفرع الهنغاري لد كي جي بي) عرف أن عميله بات عميلاً مزدوجاً وكاد أن يسحب مشغّله؟ فلنفترض أنك حاولت تجنيد المشغّل، واصطحبت معك ضابط الشرطة إليه بِشَكلٍ وِدّي، وعندما قالَ لك المُشغّل اذهب إلى الجحيم اعتقله ضابط الشرطة. سيسأل ضابط الشرطة: "أين الدليل الَّذِي سنقدمه للمحكمة؟"

وماذا ستفعل في حالة أخرى قررت فيها وزارة الخارجية جعل المحاكمة علنيةً كجزء من برنامج دبلوماسي؟ (وهَذَا ما يحدث غالباً) فأديت التحية ثُمَّ ذهبت إلى العمل لتحوّل معلومات مكافحة الاسْتِخْبَارَات لديك إلى دليل، محاولاً حماية مصادرك وطرقك بأفضل ما تستطيع بينما تعمل عن كثب مع المُدعين العامّين.

وبالتالي لن ينتابك شعور بالنجاح لأن عملك الأساسي هو مكافحة الاسْتِخْبَارَات وليس تطبيق القانون. فأنت لست فوقَ القانون.

الشرطةُ وقادةُ الجواسيسِ، الاختلاطُ والاندماجُ:

حددَ مرسومُ الأمن القومي سنة 1947 في الولايات المتحدة اللوائحَ القانونية الخاصة بالسي آي إيه والـ إف بي آي. وبموجبه نالت الـ إف بي آي الَّتِي تعمل ضمن حدود الوطن سلطة إجراء التحقيقات والاعتقال، وحدد المرسومُ مجموعةً من الإجراءات من شأنها -من خلال مجموعة من الأدلة- متابعةُ الملاحقة القضائية في محكمة فيدرالية. وأعطى القانون السي آي إيه حق العمل خارج البلاد دون سلطة الاعتقال، ووُضِعَت مجموعة من الترتيبات بِحَيْثُ تشترك أجهزة المخابرات في التحقيقات وعَمَلِيَّات العُمَلَاء المزدوجين والاستفادة من المُنشقِّين وزرع الاختراقات (الخلد) دون اعتقال أحد.

وللأسف فقد كَانَ تطبيق فصل السلطة والمسؤولية في كلا الجهازين فوضوياً، والَّذِي وُضِعَ لَهُ ضوابط دقيقة في قانون الأمن القومي، من أجل راحة العاملين في مكافحة الاسْتِخْبَارَات في كلا الجهازين. وبموجب المرسوم فقد نقلت السي آي إيه ما لديها من معلومات عن المواطنين الأمريكيين في الخارج والمسؤولين الأجانب الموجودين على أراضي الولايات المتحدة إلى الإف بي آي. ووجدت الإف بي آي صعوبة في التعامل مع كثير من هَذِهِ المعلومات لأن السي آي إيه لم تحدد في غالبية الأحيان المصادر وكَانَت في أغلبها "مُبهَمَة" غير قابلة للاستخدام وفق قواعد الأدلة القانونية.

بدورها نقلت بموجب قانون الأمن القومي إلى السي آي إيه معلومات عن أجانب مقيمين في الولايات المتحدة عندما سافر هؤلاء الأجانب خارج البلاد، لكن السي آي إيه وجدت هَذِهِ المعلومات سطحيَّةً وأكثرها لا صلة لَهُ بالموضوع. وبدا الأمر وكَانَ الإف بي آي يهتمون بجمع المعلومات حول الأنشطة الَّتِي لم تكن جرائم بحد ذاتها وإنما كَانَت جزءاً من مُسانَدَة الجريمة، كما بدا أنها لم تهتمَّ بالصورة الكبيرة لشكل عملية التَّجَسُس المعادي حول العالم وبنية الكي جي بي أو أجهزة المخابرات الَّتِي تدور في فلكها.

وحدثت الأزمات مراراً وتكراراً عندما كَانَ يُنقَل عميلٌ مزدوج أو اختراق كَانَت السي آي إيه قد دربَّته وطوَّرته إلى خارج الولايات المتحدة ويخضعُ لسلطة الإف بي آي.

وأذهلت الفوارقُ ما بين المُشغِّلين القُدامى والمُشغِّلِين الجدُد العُمَلَاء المزدوجين وأحبطتهم؛ إذ غلب على المُشغِّلين الجدد: نقص الاهتمام بمتطلبات العدو، وروتينه، والاختلاف في الاهتمام بتنظيف المعلومات وتوفيرها لتمريرها للعدو. وأتذكَّر إحدى هَذِهِ الحالات عندما نُقِل عميل مزدوج من أوروبا كَانَت تقاريره حول اتصالات العدو تحظى باهتمامٍ تفصيلي من مُشغِّلِه الأمريكي. ووجد أن مشغِّله في الإف بي آي بدا مهتماً فقط فيما إن كَانَ قد لاحظ قراءة عداد المسافات في السيارة الَّتِي التقى فيها بمشغِّله من جهاز العدو، في حين كَانَت مهمته الرئيسية -كما قال- هي خدمة الإف بي آي في مراقبة ضابط العدو (وليس سيارته).

وخَالَفَ التعليمات، وخرجَ عن قنوات التواصل واتصل بمُشغِّله السابق خارج البلاد، وقال إنه سيستقيلُ ما لم يُستبدَلُ أولئك الحمقى بمن يعرفون عن عمل الجواسيس بقدر ما يعرف هو نفسه على الأقل، فحدث هرجٌ ومرجٌ وجرت تنقُّلاتٌ وتعديلاتٌ.

من ناحية ثانية، على الجهة الأخرى من الأطلسي أولئك العُمَلَاء المزدوجون الَّذِينَ تطوروا في الولايات المتحدة وسُلِّموا إلى السي آي إيه للعمل في الخارج لم يعتادوا أن تخضع حياتهم للمراقبة من قِبَل مشغليهم وكانوا معتادين على الارتجال في الحالات الَّتِي يعملون عليها. وعندما وجدوا أنفسهم يكتبون أنشطتهم اليومية بالتفصيل، حدثَ مزيدٌ من الهرج والمرج.

لكن هَذَا بات الآن من التاريخ. فقد تعلمت الإف بي آي الَّتِي كَانَ عملها فرض القانون تشغيل العُمَلَاءِ المزدوجين والتعامل مع الاختراقات، وتعلَّمت السي آي إيه تحضيرَ معلوماتها بِشَكلٍ يدعمُ الدليلَ، وكلاهما طوَّرَتا نظاماً لإدارة الملفات وترتيبها بِحَيْثُ تكون مشاركة المعلومات مع مكافحة الاسْتِخْبَارَات مفيدةً لكلا الجانبين، وللوكالات الأخرى التابعة للحكومة الأمرِيكيَّة.

وسواءً كَانَ عملُكَ فرضَ القانون أم التَّجَسُس، ستجدُ أن الشرطة والجواسيس ينظرون إلى العالم بطريقتين مختلفتين بعض الشيء. ربما تخازُ بعضَ الشيء إلى المؤسسة الَّتِي تعمل فيها، لكن نصيحتي للشرطة هي اقتباسُ بعض صفات الجواسيس، ونصيحتي للجواسيس هي اقتباس القليل من طباع الشرطة، وبعد هَذَا جادلني كما تشاء، سيكونُ هَذَا تعليماً لكلا الجانبين، فلديهما الكثيرُ من القواسمِ المشتركةِ وعلى رأسها مواجهةُ ذات العدو.

كما ستُكوِّنُ بعضاً من الصداقات الجيدة، وتحظى بشركاء في الهوايات المُشتَرَكَة؛ الصيد وصيد الأسماك والقمار والشطرنج والذهاب إلى الأوبرا والمسرح وروابط أولياء الأمور في المدارس. بعض أفضل أصدقائي من الشرطة وبعضهم جواسيس، استأمنت بعضهم على حياتي، وبعضهم استأمنني على حياته. هُزمنا في بعض الأحيان في لعبة مكافحة الاسْتِخْبَارَات، وفُزنا ببعضها، لكننا لم نتكبَّد الكثير من الخسائر، بل القليل منها، فليرقدوا بسلامٍ.

(4)

جهازُ الدعمِ The Support Apparatus

أفضل مثال نضربه عن تركيب جهاز دعم مكافحة الاسْتِخْبَارَات هو "تركيب نظام السِّباكة"،[1] وكما في تمديدات السباكة الحقيقيَّة، فإن تركيب جهاز الدعم السباكة مُكلِف للغاية، وإصلاحه إذا لم تجرِ الأمور بخير أكثرُ كُلفة. وفيما يلي بعض الأشياء الَّتي تشكِّل جهاز دعم مكافحة الاسْتِخْبَارَات.



مكونات جهاز الدعم في مكافحة التجسس

[1] السباكة (Plumbing) نظام من المواسير الَّتي تحمل الماء إلى داخل المبنى أو خارجه. يتكون نظام السباكة من مجموعتين منفصلتين من المواسير، نظام التغذية المائي ونظام الصَّرْف. يقوم نظام التغذية المائي بجلب الماء النقي إلى المغاطس والرشاشات (الأدشاش) وأحواض الغسيل والمراحيض وغسالات الصحون وسخانات الماء الحار وغسالات الملابس. ويقوم نظام الصرف بالتخلص من الماء والفضلات.

السطحُ والجدرانُ (الَّتِي تغطي أنابيبَ السباكة)

تكمن الكفاءة في الحفاظ على السرية، والسرية تضمن الأمن، ولا يتحقق ذَلِكَ إلا بغطاء. رجالُ مكافحة الاسْتِخْبَارَات مجموعةٌ سرية، ويحبّون ألا يعرفَ الناسُ حقيقتهم، يحبون أن يظنهم الناس محامي براءات اختراع أو باحثين في شؤون الأسواق أو شرطة مرور وليس مكافحي تَجَسُس، مِمَّا يجعل مكافحة الجواسيس أسهل. لأن معظم الجواسيس الَّذِينَ يعملون ضدهم يشعرون بذات الشعور، فالعاملون في مكافحة الاسْتِخْبَارَات لديهم نوع من التشابه مع الجواسيس بِشَكلٍ عامٍ. فإن لم تُناسِبكَ كُلّ هَذِهِ السِّرِّيَّة فمن الأفضل أن تجد لنفسك عملاً آخر.

من أهم متطلبات نجاح التخفي أن يكون غائباً عن النظر بِشَكلٍ كاملٍ. يَجِبُ أن يكون لديك مكان تحت تصرفك يحوي غرفة على بابها شارة غير صريحة بمعنى: "آمن، ادخل وقُل كُلَّ ما لديك"، إن كَانَ هَذَا مكتب شخص آخر غيرك يمكنك العمل معه عن قرب فهَذَا جيد. نسمي هَذَا النوع من التخفِّي "مانعةَ الصواعق" لأنها تُبعدُ المشكلات عن باب مكتبك الحقيقي المكتوب عليه "خدمات النظافة، يُرجى مسحُ القدمين قبل الدخول".

يرى بعض الصحفيين أن هَذِهِ مراوغةٌ شريرةٌ، لأنها تصعِّب عملهم. وكعاملين في مكافحة الاسْتِخْبَارَات كَانَ الألم سيعتصر قلوبنا حيال هؤلاء الصحفيين المزعجين لولا الفارق الجوهري بيننا: **فهم يكسبون معيشتهم عبر إذاعة الأسرار، أما نحن فعبرَ حفظها.** اعتاد الجنرال "كريتون أبرامز" أن يقول لرفاقه أن الحديث للصحفيين يُشابِهُ مصارعةَ الخنازير: حَيْثُ يقضي الخنازير وقتاً ممتعاً بينما لا تنالُ أنت سوى القاذورات.

ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار عند تركيب تمديدات السِّباكة الشكلَ الَّذِي سيبدو عليه السطح والجدران الَّتِي ستؤويك وتضع عليها ملفاتك وصورك ومكاتبك. آمُلُ أن نكون قد

ابتعدنا عن هَذِهِ الأغطية غير المعقولة مثل "مركز إعادة التأهيل والتخطيط" أو غطاء ملفق من قبيل "كتيبة إصلاح أدوات المائدة للجنود" التابعة لمكافحة الاسْتِخْبَارَات الأمرِيكِيَّة.[1]

فرقُ المراقبةِ:

سنتطرق إلى المراقبة البشرية بالتفصيل في الفصل السابع، فهي واحدة من الأدوات الضرورية لك، سواءً كُنْت تجريها مع فريقك (كما ستفعل في بعض الأحيان) أو مع بعض المختصين الَّذِينَ لا ينتمون إلى فريقك لكنهم يُجنَّدون ويتدرَّبون ويُدفَعُ لهم لقاء عملهم. يَجِبُ أن تُجهّزَ أدوات المراقبة في المكان المناسب قبل بدء العمل، ويَجِبُ أن تُقَدّمَ لِهَذِهِ الأدوات الصيانة المستمرة. مع الانتباه الى أن حماس ونشاط فرق المراقبة البشرية ينفدُ أسرع من نفاد شحن بطاريات المصابيح، هَذَا مع العلم أن هَذِهِ الفِرَق ليست قابلةً لإعادة الشحن.

ورشةُ الميكرفونِ المخفي ودارةِ التنصتِ الهاتفي:

سنتطرق بالتفصيل للمراقبة التقنية في الفصل الثامن، إنها أداة لعملك وقطعة من قطع تمديدات السّباكة الَّتِي يَجِبُ أن تقتنيها في ورشتك، سمّها "القسم التقني" لأغراض إعداد التقارير، لكن ما الَّذِي نستفيده من "الميكروفونات المخفية" و"دارات التنصُّت الهاتفي" (الأدوات الَّتِي تتنصت على الإشارات الَّتِي تتناقلها الأسلاك).

من الممكن أن تشغَلَ معداتُ دارات التنصُّت على الهواتف والميكروفونات المُصغَّرة مساحةً كبيرةً من العقار الَّذِي يجري منه العمل، ليس لأن الآلات ضخمة فحسب بل لأن صيانة هَذِهِ الآلات تتطلبُ الكثيرَ من الخزائن كي توضع فيها الكثيرُ من معدات الصيانة المُعقَّدَة. كما يتطلبُ تشغيلها طاقماً واحداً مُدرَّباً على الأقل. إن كَانَت وحدة مكافحة الاسْتِخْبَارَات لديك صغيرة، ينبغي أن تكون أنت أو أحد أفراد طاقمك مؤهَّلاً للقيام بِهَذَا العمل. وفي

[1] كَانَت هَذِهِ المواقع مقرات سرية لِلاسْتِخْبَارَاتِ الأمرِيكِيَّة وكَانَت هَذِهِ التسميات مجرد غطاء لعملها الحقيقي.

الوحدات الكبيرة، يكون القسمُ التقني في العادة منفصلاً ومتخصصاً، يستطيع أفراده تشغيل جميع المعدات التقنية بما في ذَلِكَ التصوير والإخفاء (سنتطرق لَهَا لاحقاً).

البيوتُ الآمنةُ Safe Houses:

لما لا يأتي المنشقُّون والعُمَلَاء المزدوجون وقادة فرق المراقبة إلى المكتب الحقيقي؟ (ذاك الَّذِي تُمَيِّزُهُ عبارة "خدمات التنظيف") الإجابة: لأنك تخضع لمراقبة العدو، وتحت عيون غير ودودة من الموظفين من سكان البلاد الأصليين والشرطة المحلِّيَّة والمُحَرِّضين العابرين، وآخرين ممن يسرِّبون المعلومات أكثرَ مِمَّا يفعلُ موظفو لجان الكونجرس في واشنطن. ما من وسيلةٍ لضبط هَذَا.

هل ذهبت إلى واشنطن مؤخراً؟ هل لاحظت رائحة البول المنتشرة حول قاعات المجلس ومباني مجلس الشيوخ؟ إذا أصبح مكتبك يستقبلُ المرجعات ستشمُ أنت أيضاً هَذِهِ الروائح في الممرات المجاورة لمكتبك، يمكن لزملائك الفرنسيين تسمية هَذِهِ التجربة (déjà senti).[1]

إذاً يَجِبُ أن يكون لديك بيوت آمنة ويَجِبُ أن يكون لديك نظام لإنشائها واستبدالها وصيانتها. سيكون بنداً كبيراً في ميزانيتك واستنزافاً لقوة العمل لديك، لكن من دونه أين ستستقبل المُنشقِّين وتتعامل معهم؟ وأين ستقابل العُمَلَاءَ المزدوجين؟ وأين ستدرِّب فرق المراقبة؟ وأين ستتعاملُ مع الأشخاص الَّذِينَ يستأجرون البيوت الآمنة الأخرى لك ويشغِّلون الناس الَّتِي تنظِّف وتغسل الغسيل؟

يمكن الاستفادة من بعض الثغرات. يمكن استخدام الشقق الحالية مؤقتاً لاستجوابات من جلسةٍ واحدةٍ، والزملاء الَّذِينَ في الأقسام العلنيَّة يمكن إقناعهم بإعارة صالاتهم ليلة واحدة في الأسبوع حين يذهبون إلى السينما. لكن تذكَّر: عندما ترتجل سيكون الأمن في مهب الريح، والتغيير يحمي البيوت الآمنة عادة.

---

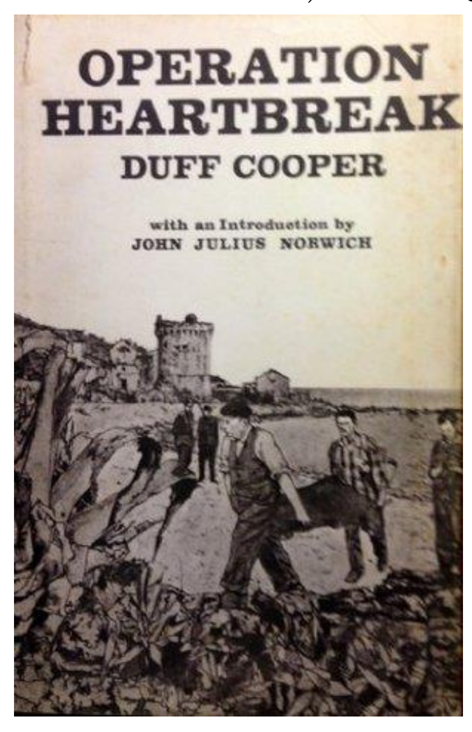
[1] الشعور بأنك عايشت الحالة العاطفية الحالية في موقف سابق.

ورشةُ التزويرِ:

عندما أكتب شيكات لدفع ثمن الخمر الَّتي أشتريها يعرفني الموظفُ أحياناً، فلا يُلزِمُني بإبداء شهادة السواقة، لكن الموظَّف لا يبقى في عمله أكثر من أسبوعين في العادة، وبما أن الموظفة الجديدة لا تعرفني، وخوفاً مني بأن تَرُدَّ الشيك الَّذي وقعتهُ بدايةً أضطر أن أُريها "وثيقة" عن هويتي، في عمل الجواسيس يَجِبُ أن تكون مُستَعِدَّاً لإظهار الوثيقة، وثيقة مزورة، دائماً وحيثما كُنْت وأياً كَانَ ما تفعله.

إن كَانَ لديك خمسة ضباط حالة يعملون، وكُلّ منهم يستخدم ثلاث هويات فلديك ثماني عشرة هوية (مع احتساب الهوية الحقيقية) ولذا يَجِبُ عليك المحافظةُ على مجموعةٍ كاملةٍ من وثائق الهوية، بما في ذَلِكَ الأوراق المتنوّعَة الَّتي يحمِلُها الناس معهم أينما حَلُّوا، كما يتوجب عليك نسخ الوثائق والاحتفاظ بِهَا بالإضافة إلى الهويات تحسُّباً لطَلَبِها في أي لحظة.

وكمثال عن الطريقة الَّتي وثَّقت بِهَا إحدى أجهزة الاسْتِخْبَارَات عميلاً مهماً (تصادف أنه جثة)، انظر رواية إيون مونتاجو "**الرجل الَّذي لم يكن لَهُ وجود**" (1954 إصدار الولايات المتحدة). العميل الَّذي كَانَت هويته المزوَّرة عائدة لوليام مارتن الرائد بمشاة البحرية الملكية، كَانَ يعملُ في غواصةٍ بريطانية على شاطئ إسبانيا المحايدة في 30 نيسان 1943، حمل واحداً وأربعين وثيقةً تعود لـ "وليام مارتن" بدءاً من لوحتيه المعدنيتين[1] مروراً برسائل من والديه وخطيبته وصولاً إلى قلم الرصاص الَّذي كَانَ يملكه، وكي ترى حقيقة أشد غرابة من الخيال فما عليك سوى قراءة رواية "**عملية الحسرة**" وهي سرد لنفس الأحداث.



[1] **اللوحة المعدنية** جزآن أحدهما يوضع في القدم والآخر على معاصم الجنود للتعرف على الجثث.

المركباتُ:

في بعض الأماكن الَّتِي عملت بِهَا كَانَت مركبة المراقبة الرئيسية هي الدراجة الهوائية، لكن حَتَّى في هَذِهِ الأماكن، اضطر عملاؤنا لاستخدام السيارات، لأن استخدام الدراجات الهوائية للتنقُّل في البلدات بدا غريباً بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين واليابانيين. (قديماً كَانَت هَذِهِ ميزة في سايجون، حَيْثُ لم تتمكن مجموعات الفيت كونج -المُدَرَّبَة على استهداف السيارات الأمريكِيَّة من نوع "سيدان" بعبوات المولوتوف- من التأقلم على رؤية الأمريكيين يجوبون مناطقهم ممتطين دراجات هوائية، لقد تعرَّض تفكيرهم للشلل، فكيف يمكن أن يصدِّقوا أن برجوازياً أمريكياً رأسمالياً ثرياً، يركب دراجة هوائية! وبالتالي فلا بد وأن هَذَا الرجل إما محتال أو مناصر للفيتناميين).

عندما تتولى مهمة توثيق سيارة، ستُذهلُ من كمية المعاملات الرسمية، ففي كُلّ مكان في العالم تحتاج السيارة تراخيص وعقود البيع ووثائق التأمينات وفواتير الضرائب وسجلات الإصلاحات. يَجِبُ أن يكون لديك نظام للتغييرات السريعة وغير الملحوظة لبعض اللوحات وبعض الوسائل كي تتجنب أن يُوقَعَ بك وأنت تحمل أكثر من مجموعة من الوثائق، فمن الجميل جداً أن تكون ذكياً وواسع الحيلة في إتقان هَذِهِ التفاصيل الدقيقة للغاية. وكم من الرائع أن ترى هَذَا الجزء من تمديدات السِّباكة يُوضَعُ مكانه، وكم هو خطيرٌ ألَّا يُوضَع في مكانه.

وبالطبع يصبحُ الأمر أسهلَ بكثير عندما تعمل في ميدانك الخاص، إذ يمكن لوكالات فرض القانون عادة أن تتدبَّر توفير وثائق فارغة لأي عدد من المركبات يحتاجونه ومن ثُمَّ ملئ هَذِهِ الوثائق بأية أسماء مستعارة حسب الحاجة، وفي حال حصول حادث ما يمكن لوكالة فرض القانون عادة أن ترتِّب تحقيقاً للتحفُّظ على الموضوع، لكن حَتَّى هَذِهِ الترتيبات تتطلب براعة وانتباهاً لتغطيتها، فأنت لا تريد أن يعرف مكتب المخالفات المرورية سر عملك قبل أو بعد الواقعة.

وكم من الجميل أن تكون لك علاقات عمل جيدة مع المسؤولين المحليين إذا كُنْت في الخارج (مُغتَرِبَاً) لكن كن حذراً، فأنت لا تريدهم أن يعرفوا سِرَّكَ أيضاً.

مختبرُ التصويرِ:

مختبر التصوير مزعجٌ ومملٌ لأنه يَجِبُ أن يبقى مخفياً، كما يَجِبُ تزويده بالكهرباء والماء ويَجِبُ أن يكون جاهزاً للعمل على مدار الساعة، بغضِّ النظر عن ساعات العمل الفعلية في المبنى الَّذِي تتخذه غطاءً. وهُنَالِكَ عقبة ثانية تتمثل في أن لمختبرات التصوير روائح مميزة تتسرَّب عادة إلى الممرات ومكاتب الاستقبال الَّتِي تبدو بريئة المظهر، لكن يمكن لمراوح التشتيت أن تساعد، فإن استطعت أن تعثر على مكان لا يستطيع العدو شمَّ الروائح فيه فعليك بِهِ لتصريف روائح الأسيتات[1] إليه.

هل يمكن لمعمل الصور الخاص بك القيام بِهَذِهِ الأعمال الروتينية؟

النسخُ السريعُ لمجلدٍ: اليوم السعيد لضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات هو اليوم الَّذِي يُقَدِّمُ لَهُ فيه عميلٌ مزدوج أو اختراق رزمةً من الوثائق، يَجِبُ أن تُنسخ وتُعاد خلال مدة وجيزة، فإن لم يكن لدى تقني التصوير المُكَلَّف بالنسخ؛ التقنيات والخبرة للتعامل مع هَذَا العمل، فلن يكون هَذَا يومٌ سعيداً.

التعاملُ مع كمياتٍ كبيرةٍ: تُنتج فرق المراقبة -وأحياناً العُمَلَاء المزدوجون- كَمَّاً كبيراً من أفلام التصوير (نيجاتف) الَّتِي يَجِبُ أن تُعالَج على الفور (تُحَمَّض) لإمكانية الاستفادة منها. تستهلك لقطات الصورة الثابتة -منها على سبيل المثال تصوير كُلّ الداخلين والخارجين إلى بناء (ربما باستخدام فلم الأشعة تحت الحمراء في الليل) - معظم الفلم ومعظم وقت التحميض.

التصويرُ السريعُ لصورٍ صغيرةٍ: بطاقة الهوية مثلاً. يتطلب هَذَا العمل الروتيني المتواصل عدسات خاصة، وكاميرا وأضواء، ومعظم محلات التصوير تنشئ مرافق دائمة لِهَذَا الغرض.

---

[1] الأسيتات: مادة كيميائية ناتجة عن الجمع ما بين حمض الأسيتيك مع مادة قلوية.

معالجةُ النصوصِ المصغَّرَة: النصُّ المُصَغَّر هو صورة ضوئية صغيرة جداً يمكن إخفائها في نقطة على صفحة مطبوعة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة. وغالباً ما تكون نصاً من صفحة كاملة، صُوِّرَت ثُمَّ صُغِّرَت إلى حجم لا يمكن قراءتها فيه إلا باستخدام المجهر. معالجة الرسائل المصغرة (Microdot) تتطلب مُعِدَّاتٍ خاصَّة تجدها في مختبر التصوير وفي معدات العميل أيضاً. وبالنسبة للرسائل الواردة يمكن استخدام المعدات الخاصَّة بالعميل إلى حدٍّ ما، لكن إن توجَّب على العميل المزدوج قراءة النقطة فقط، فَيَجِبُ أن يطبع محتوياتها. ولذا تحتاج معدات ضخمة، فإن احتجت أن ترسل تعليمات بِشَكلِ صورة مصغَّرة لعميل أو لاختراق، تحتاج أيضاً معدات ضخمة نسبياً لنسخ رسالتك المطبوعة إلى فلم صورة مصغَّرَة. ويحتاج هَذَا إلى فريق يعمل مطوَّلاً بِحَيْثُ لا تحتاج المساعدة من قادتك.

السينما والتلفاز: غالباً ما يُستفاد من التقنيات السينمائية عند المراقبة بالكاميرا، وعندما تُنتجُ هَذِهِ التقنيات فلماً سينمائياً يَجِبُ أن يكون مختبرك قادراً على تحميضه وعرضه والتقاط صور ثابتة منه. وعند استخدام الكاميرات التلفزيونية، يكون العرض أسهل لكن عمل مطبوعات ثابتة يتطلب معدات خاصة. المطبوعات الثابتة ضروريةٌ ولا يمكن التخلي عنها. ولنفترض مثلاً أن مشكلتك هي تحديد مُشغِّل عميلك المزدوج، يَجِبُ عندها أن تُرِيهِ اختياراً من صور مطبوعة ("كراس صور") وليس ساعات من التصوير التلفزيوني.



الصناديق: الحية، الميتة، والهاتفية:

ثمة ثلاثة أنواع للصناديق: الحية والميِّتة والهاتفية. فلنلقِ نظرةً على كُلّ منها على حِدا:

الصناديق الحية (البشرية) live drops:

تُسمى الصناديق الحية أحياناً "ع.إ" عناوين الإقامة أو صناديق الرسائل "ص.ر". تُوصَفُ هَذِهِ الصناديق بأنها حَيَّة لأنَّها بَشَرِيَّة، عُمَلَاء مجنَّدون، ممن يتلقُّون الرسائل الورقية أو من خلال أجهزة التلغراف أو الطرود أو المواد الَّتِي تُسَلَّم باليد ويسلّمونها لشخص آخر، تبقى هويته مُستَتَرَة وراء الصندوق الحي. وأياً كَانَ من يُجَنّد أو يدفعُ المال ويوجّه أو يتعامل مع الصندوق الحي يَجِبُ عليه أن يستخدم هو نفسه هويةً مُستعارةً وعند الإمكان جنسيَّة مُستعارةً.

وعادةً ما يُجنَّد الصندوق الحي تحت ذريعة: "لدي صديقة، انظر لا أستطيع تلقّي البريد في البيت بسبب زوجتي الغيورة (والثريَّة)، لذا سأدفع لك مبلغاً ثابتاً لقاء كُلّ رسالة تتلقاها عني، يمكنك التَّعرُّف على هَذِهِ الرسائل من خلال العلامة الطريفة على زاوية المغلَّف".

تذكَّر أن تحافظ على الصندوق الحي نشطاً عبر الترتيب لإرسال رسائل مُزيَّفَة على نحو متكرر، من شأن هَذَا أيضاً أن يدفن الرسائل الحقيقية تحت ركام تِلْكَ المزيفة ويقلل من مخاطرِ الانكشاف بسبب فضول عميل الصندوق حول حياتك الشخصية، أو رغبته بابتزازك، أو الانكشاف من أي شخص قد يراقب بريد الصناديق الحية لأسباب أخرى.

عندما تُرَكّب تمديدات السّباكة (ترتيبات مكافحة الاسْتِخْبَارَات)، ضع عدداً من الصناديق الحية لتتلقَّى مواداً مزيفةً فقط حَتَّى يحين الوقت لتفعيل هَذِهِ الصناديق والاستفادة منها لتوجيه عميلك المزدوج أو الاختراق لاستخدام القناة، وابقِ بعضها احتياطياً في كافة الأحوال.

وأخيراً تذكَّر أن صناديقَ العدو الحية هي إحدى أفضل أهدافك، فإن استطعت أن تُحكِمَ السيطرة على صناديق حية للعدو، فقد هتكت بِذَلِكَ سترَ اتصالاته وأحكمتَ قبضتيك حول عنقه، الصندوق الحي للعدو واحدٌ من أفضل أنواع العُمَلَاء المزدوجين الَّذِينَ يمكنُ الوصولُ إليهم.

الصناديقُ الميِّتَة Dead Drops:

تسمى الصناديق الميتة أحياناً "المخابئ"، وهي إما فجوات في الجدران أو أقفال في محطة القطار أو صخور في الصحراء أو أي مكان مخفي آخر. وأكثر المخابئ شيوعاً هي بكرات الأفلام الصغيرة وبكرات المال الملفوف، لكن الصندوق الميِّت قد يضمُّ أي شيء، من بطاقة بريدية تحمل نقطة مصغَّرَة واحدة، إلى بطارية سيارة يمكن إخفاء مسدس فيها للقيام بعملية اغتيال، كما في حالة خوخلوف (كَانَ نيكولاي خوخلوف ضابطاً في قسم الكي جي بي في "الشؤون الرطبة"[1] التابعة للكي جي بي ثُمَّ في القسم رقم 13 الَّذِي يُعنَى بوضع علم للاغتيالات والتخريب. كَانَت المسدسات المُصَمَمَة خصّيصَاً لقتل زعيم مهاجر في ألمانيا قد خُبِّأت في بطارية سيارة كَانَت حينئذٍ صندوقاً ميتاً لَهُ في خزانة في محطة قطارات ميونخ. ولحسن حظ ضحاياه، انتابت خوخلوف نوبة من تأنيب الضمير وانحاز إلى الضحية).

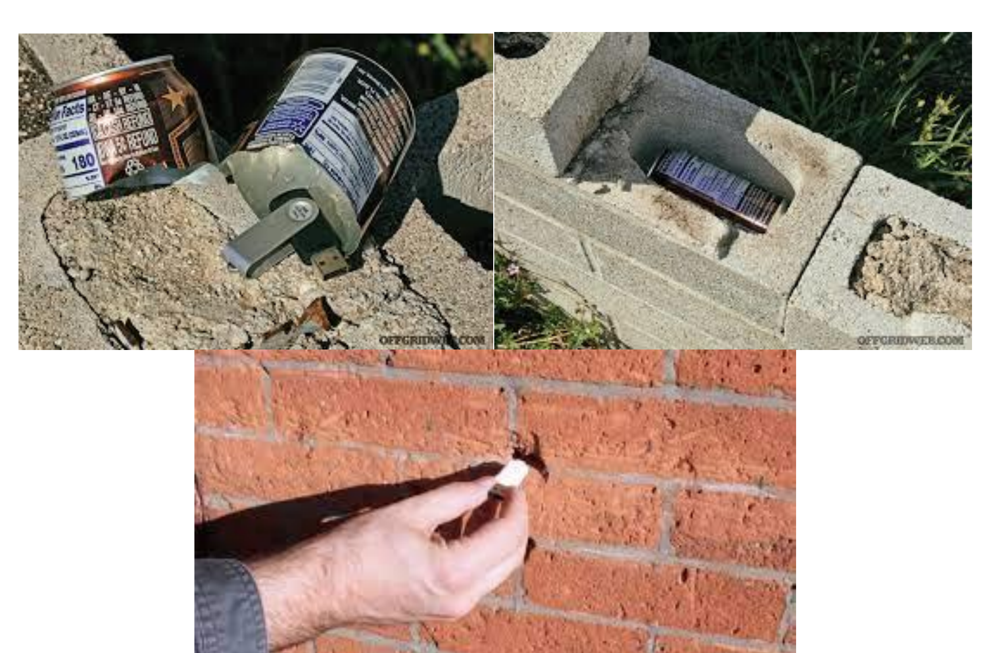


في العادة عندما يشحنُ عميلٌ ما صندوقاً ميتاً فإنه يعطيك إشارة؛ علامة بالطباشير على حجر الرصيف أو غطاء زجاجة متروك على سور أو خط تحت اسمٍ معين في دليل هواتف عام. الغاية من الصناديق الميتة هي تجنب اللقاء الشخصي، الَّذِي يمكن ملاحظته أو مراقبته، بين جاسوس ومشغِّله. عندما يلقي عميل الدعم الحزمة في "موقع الصندوق الميت" فقد قام عندئذٍ "بشحن" الصندوق.

[1] الشؤون الرطبة: كناية عن الجريمة أو الاغتيالات الَّتِي تُسفك فيها الدماء.

إذاً عندما تضعُ التجهيزاتِ لبرامج العميل المزدوج والاختراق، ضعْ بعضاً من الصناديق الميّتَة وصوِّرها وتدرَّب على شحنها. واستخدم مصادر التحرِّيات لإيجاد الصناديق الميتة لدى عدوك، لن يكون هَذَا هيِّناً، وستحتاج بعض المساعدة من عملائك المزدوجين.

عندما يشحنُ عميلٌ مزدوجٌ صندوقاً ميتاً للعدو، فلديك مشكلتان شائكتان: كيف يمكنك مراقبتها لتحديد وتعقُّب من يقوم بصيانتها؟ وهل تجرؤ على التدخل في محتوى النقطة؟ العميل المُدَرَّبُ جيداً يُحَضِّر مواد لتكون بمثابة ألغام وشراك تشير إلى ما إن كَانَ شخص ما قد عَبِثَ بِهَا، شعرة توضع تحت الشريط اللاصق، أو بودرة تحت حافة لفافة الفلم مثلاً. وربما تكون متلهِّفاً لمعرفة ما فيها، فهل ستدمِّر المعلومة الاسْتِخْبَارَاتِيَّة؟ من الأفضل إذاً ألا تنفعل. قدرتك على التفتيش سري قد لا تكون على درجة من الكفاءة بما يكفي للتعامل مع رسائل الكي جي بي المفخخة، كما اكتشفت الإف بي آي مرة أو مرتين. وإن لم يكن بوسع فريق المراقبة تغطية موقع الصندوق دون التسبب بافتضاح أمره، فاتركه دون مراقبة.



الصناديقُ الهاتفيةُ Phone Drops:

معظم العُمَلَاء المزدوجين يعيشون حياةً حافلةً، ولا يمكن لبرامجهم أن توضع بِحَيْثُ تتوافق مع ساعات مكتبك. وأوقات الاجتماع يَجِبُ أن يضعها العميل وليس ضابط الحالة، والطريقة الفعَّالة لتحديد وقت الاجتماع هي الهاتف. لكن بالتأكيد لا يستطيع العميلُ الاتصالَ بك في المنزل أو المكتب، لسبب واحد وهو أنه لا يعرف أين تعيش ولا أين تعمل، وربما لا يعرف أرقام هواتفك. فضلاً عن إمكانية تتبع المكالمات الهاتفية، لذا يَجِبُ أن يكون هُنَالِكَ مُكافئ هاتفي للصناديق الحية والميتة.

وأبسط صندوق هاتفي هو الصندوق الحي؛ عميل يأخذ الرسائل وينقلها إليك. في بعض الأحيان يَجِبُ أن تكون الرسالة إشارة فقط: عدد محدد من الرنَّات. ولا يحتاج الأمر أن يَرُدَّ عميل الصندوق الهاتفي أو أن يعرف معنى الإشارة، بل إنه يتَّصِلُ بك بعدها بدقائق ليقول لك أن هاتفه رنَّ ثلاث رنَّات، وأن هَذَا تكرر بعدها ثلاث مرات، فتعرف حينئذ من الترتيبات المُسبَقَة مع عميلك على سبيل المثال: أن الاجتماع الَّذِي كَانَ مُقرَرَاً في وقت لاحق هَذَا المساء قد أُلغي.

وفي بعض الأحيان إن تمكَّنتَ من الوصول إلى نظام المركز الهاتفي يمكنك استخدام مُعَدَّات مخصصة لصناعة نوع من صندوق هاتفي ميت. فالرقم المُعطَى للعميل قد يكون مُدرَجاَ على قائمة في دليل الهاتف، لكن مُعدّاتك تحوِّل الاتصال إلى جهة أخرى. إعادة الاتصال برقم من مسافة بعيدة ليس مُحبَّذاً، ما لم يكن ذَلِكَ عبر نظام تشويش راديوي جيد جداً، لأن معظم مكالمات المسافات البعيدة هَذِهِ الأيام تنتقل عبر الموجات القصيرة ويمكن اعتراضها، وفي الحقيقة يمكنك المراهنة على أن معظم المكالمات الواردة إلى مقر قيادتك تعترضها وتحللها أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية بمهارة.

التفتيش السري، الرسائل المصغرَّة، الحبر السرّي:

يَجِبُ أن يكون عنصر مكافحة الاسْتِخْبَارَات قادراً على قراءة بريد الآخرين دون معرفتهم. وهَذَا يعني أنه بعد أن تجد طريقة لتصل إلى بريد شخص مشبوه، فَيَجِبُ أن تتمكن من فتحه وتفحُّصِهِ وربما نسخه وبعدها إعادته إلى مكانه دون أن يشعر صاحبه، لذا يَجِبُ أن تمتلك تقنيات خبير.

الجواسيسُ الَّذِينَ يستخدمون البريد للاتصالات، غالباً ما يلجؤون إلى الكتابة السرية. فإن كانوا يسعون إلى تجنُّب الانكشاف العَرَضي، فيمكن أن يكون حبرهم هو عصير الليمون أو كربون ورق الشمع، مِمَّا يخفي الكتابة عن أعين حامل الرسالة أو طفل فضولي. وفي بعض الأحيان لا تتوافر الكتابة السرية كما في حالة المسافرين الَّذِينَ يشيرون إلى مسار رحلتهم عن طريق ختم البريد على بطاقة بريدية بريئة، وهَكَذَا تصل الرسالة من خلال الخدمة البريدية.

من ناحية ثانية، يمكن أن يستخدم العميل حبراً ابتكره أحد أفضل كيميائي الدولة، من قبيل التشفير الجيد الَّذِي يتطلب اكتشافه إجراءات كيميائية مُعَقَّدَة. إن كُنْت تعرف أو تشتبه أن الأحبار المُعَقَّدَة أو النصوص المُصغَّرَة تُستَخدَم في البريد الَّذِي تتلقاه، ربما يكون لديك حالة هامة. يتوجب عليَّ أن أترك مناقشة التكنولوجيا الَّتِي ستستخدمها للتقنيين الَّذِينَ ستعمل معهم.

عمليةُ التفتيش السري (Flaps and Seals) مُرهِقةٌ للأعصاب، ويَجِبُ على التقني أن يكون حذراً ومنهجياً وقادراً على العمل تحت الضغط، هَذَا العمل لا يختلف كثيراً عن عمل خبير إزالة القنابل، وبالفعل (هل تذكر الرسائل المفخخة؟) تكون أحياناً بذات الخطورة.

الأسلحة:

وكالات فرض القانون الَّتِي تعمل في الوطن لديها إجراءات قياسية للحصول على الأسلحة وتخزينها وصيانتها وإصدارها، وكذلك التدرُّب على استخدامها، أما وحدة مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي تعمل في الخفاء على التراب الأجنبي تتعرض لمشكلات لا يمكن للشرطي على أرض الوطن أن يتصوَّرَها.

القاعدة الأولى حول الأسلحة هي: لا تحمل السلاح ما لم تتوقع -تتوقع حقًّاً على أساس معرفة صلبة- أنك ربما تستخدمه، وينطبق هَذَا على وجه الخصوص على المسدسات المَخَفِيَّة، أمَّا الهِراوة أو القبضات النحاسيَّة أو حَتَّى الخنجر فتُصنَّف بِشَكلٍ مختلف بعضَ الشيء، بالأخذ بعين الاعتبار كميةَ جرائم الشوارع الَّتِي تحدث هَذِهِ الأيام في أماكن يُقال إنها مُتَحَضِّرَة، والوقت الَّذِي يمكن أن تقضيه جماعتك في هَذِهِ الشوارع المتحضِّرة. لذا يَجِبُ أن تُجري تقييماً يومياً وكُلّ ساعة، لأن جماعتك تحمل عادة مواد حساسة تُلزِمُك حكومتك بحمايتها، كما تتوقع حكومتك منك حماية أفراد جماعتك ومساعدتهم على حماية أنفسهم.

تذكَّر أن السلاح لا يحمي صاحبه ما لم يعرف حامل السلاح كيف يستخدمه، ولا يعني هَذَا أن تتعلَّم كيفية استخدامه بل عليك أن تتمرَّن أيضاً، ويمكن اختبار الرجل أو المرأة فيما يخص استخدام، مسدس براوننج 9 مم مثلاً، بِحَيْثُ تتأكد من أن هَذَا الرجل أو هَذِهِ المرأة بوسعها حمل هَذَا المسدَّس وأن بوسعهما إطلاقُ النار بسرعة ودقة، لكن الرماية مثل لعبة البلياردو تتطلب مراناً مستمراً وإلا ستفقد المرونة البصرية والتوقيت والشعور بالسلاح.

في الوطن ربما يكون لديك مُتَّسَع لإطلاق النار في القبو أسفل مقرات القيادة وفق جدول منتظم للتدريب على الأسلحة. وفي الخارج يَجِبُ ترتيب هَذِهِ الأمور تحت أي غطاء تجده مناسباً، أو عبر التأكد من أن جماعتك تُجري التدريب المناسب على السلاح خلال الرحلات الدورية الَّتِي تقوم بِهَا إلى الوطن.

تخزين وصيانة السلاح هي مهام ورشة الدعم، في مكان ما قرب مختبر الصور وورشة التفتيش سري والرُّكن الَّذِي تضع فيها المُعِدَّات الصوتية، يَجِبُ أن يكون هُنَالِكَ مستودع لِمُعِدّات التنظيف ومستودع آمن للذخيرة.

أما كيفية توصيل الأسلحة إلى مستودع الذخيرة فتتوقَّف على الوضع الَّذِي تتخذه غطاءً لوضعك الحقيقي. استخدم كافة القنوات المتاحة، وارتجل حَيْثُ أمكنك، واعمل على التودد للشرطة المحلية، وكن شديد الحذر إن لم تكن علاقتكم ودية.

الأقفالُ، المفاتيحُ، السطو:

أوائلَ السبعينات فقدت الولايات المتحدة إدارةً كاملةً بِكُلِّ ما فيها من سياسيين ومن خطط سياسة خارجية بسبب عملية سطو فاشلة في مكان يُدعى ووترغيت.[1] وكَانَت هشاشة وجهل رجال الأمن والاسْتِخْبَارَات المتقاعدين الَّذِينَ حاولوا أن يصبحوا لصوصاً صادمةً، تماماً مثل هشاشة الدافع السِّيَاسِيّ لدى المسؤولين الَّذِينَ وجّهوهم.

إن كُنْت كضابط مكافحة استخبارات جزءاً من جهة فرض قانون في بلادك، فَيَجِبُ أن تلتزم بالقانون وأوامر المحكمة، وسلسلةٍ واضحةٍ من مُصادَقَات السلطات، والحكم المتواصل من جانبك على صلاحية وضرورة كُلِّ عملية من عملياتك. أما إن كُنْت تعمل على تراب دولة أجنبية، فعملك غير قانوني حسب قوانين البلد المُضيف، أياً كَانَ عدد الاتفاقيات المُوَقَّعَة بين جهازك وبين الحكومة المُضيفَة. وسواء كُنْت تعمل في بلدك أو في دولة أجنبية، يَجِبُ أن يكون لديك المصادرُ المُتاحة لارتكاب ما يُسمَّى تلطيفاً "البند السرّي".

الغاية النهائية للسطو في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات هي سرقة المعلومات، إمَّا بِشَكلٍ مباشر أو عبر سرقة الوثائق أو نسخها، أو عبر تثبيت أجهزة مراقبة (انظر الفصل الثامن) من شأنها سرقة المعلومات وإيصالها إليك. ولذا ستستفيد من أشخاص يستطيعون المراوغة في

[1] فضيحة ووترغيت: فضيحة سياسية كبرى في الولايات المتحدة تورطت فيها إدارة الرئيس ريتشارد نيكسون من عام 1972 إلى عام 1974 وأدت إلى استقالة نيكسون.

أعمال مُعَيَّنَة، مُراقبين، تقني تصوير، مشتغلين بالاستراق ومحو الآثار، مُزَوِّرين ومموّهين (لإعطاء لصوصك بعضاً من التغطية) وهَكَذَا.

لكن يَجِبُ أيضاً أن يكون لديك بعض الأشخاص المدَّربين على اختراق الحواجز الأمنية المادية، سواءً كَانَت أقفالاً بسيطة يمكن فتحها بسلك أم أنظمة المجسَّات الإلكترونية الَّتِي تحيط عادةً بغرف الاتصالات. وهؤلاء الأشخاص يَجِبُ أن يُدعَموا بورشة جيدة مزوَّدة بأدوات حِرفة الأقفال. ولن يضرك أو يضر أياً من ضباط الحالة لديك أن تتلقَ بعضاً من التدريبات الأساسية حول الأقفال وفتحها، لتعرف كيف تستخدم "ريشة فتح الأقفال"،[1] وتفهم مبدأ الأقفال ونظام الأقفال الرئيسي من خلال تطبيق مثال على باب يمكن الوصول إليه في مبنى مستهدف، وأن تعرف كيف تطبّقُ مجموعةً من أعمال التأمين وكيف تعمل الأقفال الآمنة، وتفهم أساسيات التنصُّتِ الإلكتروني الَّذِي يعزل غرف الاجتماعات عن المراقبة الصوتية.

الأقنعة:

انتشار موضة الوجه المُشعِر من جديد (بعد الحَرْب الكورية) كَانَت نعمةً للأشخاص الَّذِينَ يتعيَّن عليهم التهرُّب من المراقبة، أفواج الجواسيس الَّتِي كَانَت تعفي الشوارب والبعض منهم كانوا يرخون اللحى، حلقوا هَذِهِ الشوارب واللحى سريعاً حَتَّى يتمكَّنوا من تغيير أشكال وجوههم بشعر مستعار وفقاً لما يتطلَّبه الوضع. اللحى البُنّيَّة في الصباح تتحول إلى لحى سوداء في الظهيرة وحمراء في المساء. الشوارب تتبدلُ كُلَّ ساعة، من نمط فرشاة الأسنان إلى نمط المِقوَد إلى نمط الحارس.[2]

وحَتَّى بعيداً عن قصص الإثارة الفيكتورية فالتمويه لَهُ مكانه. فالكاميرا السينمائية المخفيَّة الَّتِي تُصَوِّركَ وأنت تغادر مبنى يمكن غالباً أن تتشوَّشَ بسبب تغيير الثياب، أو تغيير لون

[1] فتح الاقفال باستخدام الإبر أو ما شابه.

[2] أسماء تسريحات للشوارب.

اللحية، أو بالتظاهر بعرجةٍ خفيفةٍ بسبب حصى في حذائك، وهَذَا ينطبق على فريق المراقبة البشري الَّذِي يتتبعك.

تهريب منشق من مبنى رسمي إلى سيارة انتظار أسهل إن غيرت مظهره، مِمَّا يجعل كِلاكُما أقلُ عُرضةً لحادث اصطدام مميت بشاحنةٍ أو إصابةٍ بطلقة قناص.

لذا في مكان ما بالقرب من كرسي من يقوم بتفتيش سري ربما تحتاجُ أدوات التجميل مع شعر مستعار وصباغ شعر ولحى مستعارة. كما يَجِبُ أن يكون لديك خزانة ملابس، لملابس مُتَنَوِّعَة وكُلّ ضابط حالة لديك (وفريق المراقبة) يَجِبُ أن يحافظ على تشكيلة متنوعة من الملابس مِمَّا يرتديه السكانُ المحليون، دون إهمالِ مكانٍ للأحذيةِ.

الستيرتنزيه (الزي الفضي والأخضر) شائع في أستراليا لكنه ليس كذلك في شوارع فيينا، وغالباً ما ينظر الأستراليون إلى الأحذية، ويعرفون كيف تبدو الأحذية غير الأسترالية.

(5)

التحقيقاتُ: (كيفَ تجري حقاً؟)

أسطورةُ التعذيبِ:

تعرِضُ أفلام الحَرْب العالمية الثانية رجال الغوستابو[1] الساديين يقتلعون عيون الأبطال المدنيين من المقاومة الفَرَنسيَّة، وتعرضُ الأفلام عن الثورات في أمريكا اللاتينية كيف يُضرَبُ الرجال والنساء حَتَّى يفقدوا وعيهم من شدة الألم، ثُمَّ يُوقَظُون بِسكب دِلَاء الماء المختلط بالدم على رؤوسهم، يُزَجُّ بهم في الزنازين ومن ثُمَّ يُزَجُّ بهم في أقبية التحقيق ثانيةً. والحقيقة فالأفلام الَّتِي تعرض التعذيب بِشَكلٍ درامي تلقى رواجاً كبيراً لدرجة أن المرء يتساءل من هو السادي حقاً، الشخصيات أم الجمهور؟!

لكن هَذِهِ الأفلام، أياً كَانَت الغاية الأخلاقية أو الدعائية منها، مجرد كلام فارغ عندما يتعلق الأمر بالتحقيق الفعلي. فلنبدأ بالخبراء في التحقيقات (يبدأ هَذَا في الحَرْب العالمية الثانية) هؤلاء الغوستابو المُعذِّبين كَانَ هُنَالِكَ الكثيرون منهم بالفعل، لكن لم يحصلوا على معلومات ذات قيمة من سجنائهم. رغم أن مشكلة التعذيب هَذِهِ لازالت موجودةً في العديد من البلدان حَتَّى الآن.

لِمَ لا يجدي التعذيب نفعاً؟ لأن الإنسان تحت تأثير الألم ليس ناقلاً دقيقاً للمعلومات، واسأل أي طبيب.

لم تكن الغاية من التعذيب في العصور الوسطى انتزاع المعلومات، بل كَانَت لمعاقبة المجرمين، والأعداء السياسيين أو المُهَرطِقين، أو للانتقام أو استعراض القوة أو الاستمتاع. أما

[1] الغوستابو: الشرطة النازية السرية في ألمانيا النازية، وفي أوروبا الَّتِي وقعت تحت الاحتلال النازي. أسسها هيرمان غورنج سنة 1933، عبر الجمع بين العديد من أجهزة الشرطة السرية في ألمانيا في جهازٍ واحد.

الاعترافات المُنتَزَعَة -كما هو الحال اليوم- فكَانَت تتعلقُ بجرائم يعرفها المحققون أو وجدوا أنه من المفيد أن يلفّقوها. الغاية من التعذيب أينما استُخدِمَ اليوم باسم التحقيقات هي ذاتها الَّتِي كَانَت سائدة في الماضي، أما الواقع فهو أن التعذيب لا يأتي بمعلومات ناهيك عن السيطرة على عميل محتمل أو عميل مزدوج.

وحَتَّى لو لم ترتكب أي خطأ فالتحقيق من أي نوع عملٌ قذرٌ، فهو يحطُّ من شأن المُحَقَق معه لأنه يُتطفَّل على خصوصياته. وهَذَا يعني أيضاً أن هَذِهِ إهانةٌ وحطٌّ من قدر المُحَقِق.

التحقيقُ عملٌ قذر لذا يَجِبُ أن يجريه أطهرُ الناس، فإن كَانَت لديك ميولٌ ساديَّة، فرجاءً تنحَّ عن هَذَا العمل الآن، هَذَا ما لا خلاف عليه أبداً، اذهب وعذِّب الحشرات أو شيئاً من هَذَا القبيل، ولا تَقرَب عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، فلا نريدك زميلاً لنا.

المحققُ المثالي:

فيما يلي بعضٌ من المواهب والصفات الشخصية الَّتِي يَجِبُ أن يتمتع بِهَا المحقق الجيد:

- معرفة عامة بِكُلِّ مجالات عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات الأخرى.
- الخبرة في تحليل مواد الملفات.
- معرفة عملية في علم النفس.
- فهم نفسه والسيطرة على عواطفه.
- بعض القدرة على التمثيل، مع إحساس الممثل بالتوقيت المناسب.
- الصبر.

الشخص الَّذِي يستمتع بأذيَّة الناس محقق رديء حَتَّى في أكثر المواقف إنسانية، لكن في نفس الوقت الشخص الإنساني الَّذِي يمتقع وجهه من التلاعب بالأشخاص الَّذِينَ يحقق معهم، هو محقق رديء أيضاً.

فكِّر بالتحقيق كنوعٍ من رياضة الجودو، فالمبدأ في الجودو هو أنك توجّهُ قوةَ خصمك لتعمل ضده، فهو يكيل لك الضربات وأنت تستفيد من زخمه لتعيد توجيه ضرباته إليه.

لكن يَجِبُ أن تعرف ما هي نقاط قوته، وإلا فلن تتمكن من فعل هَذَا، ويَجِبُ أن تعرف كيف تستنفذ قوته.

المحقق مثل الكاهن أو الطبيب يَجِبُ أن تكون لديه مَلَكَة التعاطف والحاجة الإنسانية للتواصل مع الآخرين، ويستطيع أن يُقَدِّمَ سبباً يمنحُ الآخرين من خلاله الأملَ حَتَّى عندما تُمارس عليهم أعظم الضغوط العاطفية. أما غضبه، أو سخطه، أو احتقاره للسجين فَيَجِبُ أن يُدارى على الدوام بنوعٍ من موقف الطبيب اتجاه المريض، فربما يكره الطبيبُ هَذَا المريضَ لكنه يعرفُ كيف سيتأثر بشعور الكراهية لذا يُنَحِّي كراهيته جانباً.

وفي المقابل، إن وجد سجينه محبوباً فَيَجِبُ أن يُنَحّي شعوره الطيّب جانباً، خصوصاً إن كَانَ سجينه من الجنس الآخر وكَانَ فاتناً. عدد المحققين الَّذِينَ خدعهم سجناء فاتنو الجمال منذ فجر التاريخ وحَتَّى الآن هو 43،123،465على وجه الدقة وحَتَّى الانتهاء من كتابة هَذِهِ السطور لابد وأن العدد ازداد بمقدار 314.[1]

بالمناسبة، قد يبدو الأمر وكأننا نفترض أن جميع المحققين رجال، لكن هَذِهِ القاعدة تنطبق على النساء أيضاً، المحققات قليلات، لكن أولئك اللواتي يدخلن هَذِهِ المهنة يَكُنَّ في العادة ماهرات جداً، ربما لأنهن يمتلكن معرفة جيدة بتحليل الحالات وكشفها حَيْثُ لا مجال لأي تهاون، أو لأنهن يمتلكن موهبةً يسميها الرجال الحدس الأنثوي.

[1] يذكر الكاتب هَذِهِ الأرقام من باب التندر، وليست أرقاماً صحيحة.

الضغط:

قلنا إن الألم البدني لا صلة لَهُ بالتحقيق، أما الضغط لإثارة القلق والإذلال والوحدة وامتحان الكبرياء فموضوع آخر.

عندما أراد الصينيون في كوريا، وفيتنام الشمالية بعدها بسنوات غسيل دماغ السجناء، لم يستخدموا الألم، بل استخدموا المضايقة والتجويع والإذلال مصحوباً بواحدةٍ من أقسى أنواع التعذيب على الإطلاق: العزلة. فبعد أسابيع من العزل الانفرادي في زنزانة ضيِّقَة، جائعاً، وليس لديك ورق مرحاض ولا فرشاة أسنان، ولا أي وسيلة لمقاومة القمل والبراغيث، لا تعرف كم مضى من الوقت، وليس لديك بطانيةٌ تقيك البردَ في الليل، ولا إنساناً لتتحدَّث إليه، ستكون وقتئذٍ طوع بنان أول شخص يقول لك: "صباح الخير، كيف تشعر؟ أحتاج مساعدتك".

ليس أنت، ألا تقول هَذَا؟ جربها مرةً. ستكتسب المعرفة حول هَذِهِ الحيلة الأساسية من حيل مهنة ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي تسمى الاستجواب. هَذِهِ هي المعرفة الَّتِي يَجِبُ على ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات أن يحصل عليها لأداء عمله. لماذا؟ ثمة سببان: يَجِبُ أن يحضِّر الناسَ (ونفسه) لتحمُّل التحقيق، ويَجِبُ أن يستخدم معرفته بِشَكلٍ فعَّال في إجراء التحقيقات.

لا تجري جميع التحقيقات في السجون.

ماذا تقول؟ خطأ.

نفسياً، كُلّ الناس الَّذِينَ يخضعون للتحقيق هم سجناء، وإلا فلن يكون هَذَا تحقيقاً وإنما مقابلة أو استخلاصاً للمعلومات.

مهمتك الأولى: والَّتِي تنطبقُ على كُلّ حالة، هي الوصول إلى طرف الخيط في جميع مواد التحقيق ذات الصلة، ومع التقدم في القضية، يَجِبُ مراجعة هَذِهِ المواد باستمرارٍ للتمييز بين المعلومات الحقيقية والمُضَلِّلَة الَّتِي تحصل عليها من خلال الاستجواب. واعلم أن ملفاتك

هي سلاحك الرئيسي في التعامل مع المُحَقَقِ معه، فمن خلال الملفات تعرف ما يعرفه، ولا يعرف هو ما تعرفه أنت. ومع تقدُّم التحقيق وتعقيد أنماطه، عادةً ما ينسى المُحَقَقُ معه ما قاله ويبدأ في الكثير من الأحيان بمناقضة نفسه، ويمكن للمحقِق أن يساعد في زيادة حالة الارتباك هَذِهِ عبر زرع أفكار خاطئة عما هو موجود في ملفاته.

خلال الحَرْب الباردة كَانَت أجهزة الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيَّة تجعل هَذِهِ العملية عمليةً آليةً عبر إجبار السجناء على كتابة بيانات مرةً بعد مرة، ثُمَّ تُقارَن هَذِهِ البيانات لمعرفة التناقضات الَّتِي تُستَخدَم في التحقيق كوسائل ضغط.

مهمتك الثانية: هي ترتيب الأشياء بِحَيْثُ يشعر المُحَقَق معه أنه سجين. الزوج الَّذِي يأتي إلى البيت بعد قضائه ليلة في البلدة هو -نفسياً- سجين زوجته الغاضبة. فليس لديه مكان ليذهب إليه ويتعيَّنُ عليه الإجابة على الأسئلة، فإن خرج من البيت أو قال لَهَا اذهبي إلى الجحيم أو أوسعها ضرباً، تكون بِذَلِكَ قد فشلت كمُحَقِقَة، على الأقل لحظياً. ويمكن أن تجده في صباح اليوم التالي على عتبة الباب (عائد إلى السجن) وتائب، وفي هَذِهِ الحالة تكون في طريقها للنجاح.

وهَذَا يعني أنه ينبغي عليك إجراء التحقيق في ميدانك، وإن اضطررت لإجراء التحقيق في ميدان العدو فتولَّ المسؤولية عن هَذَا الميدان، ضع حارساً عند الباب، وعيّن مساعداً يدخل ويخرج حاملاً دفتراً كبيراً أو مُسجِّل صوت، أعد تنظيم الأثاث بِحَيْثُ تجلس أنت على أفضل كرسي، ووفِّر لنفسك مساحةً للمشي، لكن أبقِ المُحَقَق معه جالساً.

ستفكِّر ببعض الحيل لتتناسب مع الوضع الراهن، استخدم هَذِهِ الحيل لتجعل المُحقق معه يشعرُ بالعزلة، مقطوعاً عن بيئته الاعتيادية، ووحيداً معك تتحدث إليه. تذكَّر أن أي إنسان طبيعي لديه سجيَّةُ التحدث منذ الطفولة، والحاجةُ إلى التحدُّث إلى شخصٍ آخر يستجيب له، والردُّ على شخص آخر مبني على ما نسمِّيه الطبيعة البشرية.

مهمتك الثالثة في التحقيق: هي أن تجعل سجينك يرغب بالحديث من تلقاء نفسه، حَتَّى لو كَانَ يكذب فقط. تذكر أنك تكسب مرتَّبك مقابل أن يكذب الناس عليك، لذا فمشكلتك هي تصوُّر ما يجعلُ المُحَقَق معه يتردد، على سبيل المثال:

- **الفخر:** هل هو فخور بعمله؟ إذاً اطلب منه تصحيح تصوراتك الخاطئة عنه. دعه يعلّمِك، ويلُقي المحاضرات عليك، ويسخر من مقدار جهلك، لكن دعه يتحدّث.
- **الخجل:** هل هو خجل من شيء فعله؟ إذاً أرهِ بكياسة أن بوسعه التكفير عن خجله دون أن يفقد احترامك لَهُ. دعه يُطنِب الحديث عن خجله وإشفاقه على نفسه، لكن دعه يتحدث.
- **الخوف (أ):** هل هو خائفٌ من زملائه؟ إذاً اطلب منه المساعدة لوضع خطة لحمايته (لا تتبجّح بأن جهازك يستطيع حمايته، فقد لا يكون هَذَا صحيحاً وربما تحتاج خوفَهُ لاحقاً كأداة ضغطٍ عليه)، عندما يصبح شريكك في التخطيط لحمايته الشخصية (والتآمر ضد أصدقائه السابقين)، سيشعرُ أنه مُجبَرٌ على أن يكون شريكك في كُلّ شيء آخر.
- **الخوف (ب):** هل هو خائف منك ومِمَّا قد تفعله لَهُ؟ فاطلب منه المساعدة في عملك، وأوضح لَهُ أنَّك لا تريد معاقبته، بل تريد معلومات فحسب، وأنه يَجِبُ أن يساعدك كي لا يضطرك لمعاقبته. ويَجِبُ أن يكون التهديدُ مبطَّناً وليس صريحاً، وأوضحْ أنك مضطر -على مضضٍ- لفرض "قواعد اللعبة".

قصة شميديت:

فيما يلي نروي قصة لتوضيح -من بين أشياء أخرى- الاستخدام الإنساني نسبياً للتحقيق المُرهِق للأعصاب والعواطف. كَانَ ثمة ضابط استخبارات ألماني غير نزيه في الحَرْب العالمية الثانية جعل عمله متواضعاً إذ كَانَ يكتفي بجلب صحف لندن ونيويورك عبر مكتب في دولة في أوروبا الغربية (مُنِعتُ من تسميتها) قبل أن تصلَ إلى برلين، وبحصوله على هَذِهِ المعلومات القيِّمَة اختلق (سأسمّيه شميديت) شبكةً من العُمَلَاء وادَّعى أنها جمعت المعلومات حول بواخر الذخيرة والإمدادات الحساسة الَّتِي تعبر الأطلسي[1] ولفَّقَ سلسلةً من التقارير وأرسلها إلى ضبَّاط الاسْتِخْبَارَات الأعلى منه في برلين. وعندما وصلت الصحف إلى برلين بعدها بعدة أيام، أكَّدت أضغاث المعلومات في هَذِهِ الصحف صحة تقارير شميديت، وبناء عليه رُقِّي بِشَكلٍ متكررٍ.[2]

لكن الحَرْب انتهت، وبات شميديت عاطلاً عن العمل، وكذلك كَانَ زميله "موللر" الَّذِي عمل كضابط استخبارات في مقر قيادة الاسْتِخْبَارَات في برلين طوال الحَرْب، وعرف كُلّ ما عرفه الألمان حول القوات السُّوفيَاتِيَّة الجوية. لذا شكَّل شميديت وموللر فريقاً بغية الحصول على عمل ضمن جهاز استخبارات الحلفاء، فافتتحا مكتباً في برلين واشتركا في كافة صحف الحلفاء الَّتِي تتحدث عن تقنيات الطيران (وكَانَت -ولا تزال- تفشي الأسرار بِشَكلٍ طائشٍ) ولفَّقا شبكةً من العُمَلَاء السريين في الاتحاد السُّوفيَاتِيّ، وشرعا في كتابة التقارير عن آخِرِ التصميمات السُّوفيَاتِيَّة الجديدة في مجال الطائرات المقاتلة.

---

[1] كَانَت الولايات المتحدة تُمِدُّ بِرِيطَانيَا والدول الأوروبية الأخرى الَّتِي تواجه ألمانيا عبر السفن المحملة بالذخيرة والسلاح والَّتِي كَانَت تعبر المحيط الأطلسي وصولاً إلى السواحل الإنكليزية.

[2] كَانَ شميديت يجمع المعلومات من الصحف ثُمَّ يرسلها بعد إجراء بعض التعديلات الَّتِي توحي بأنها نتاج عمل شبكة استخبارات إلى قادته عبر الاتصال اللاسلكي، فتصل قبل وصول نسخ الصحف إلى برلين.

في البداية استقبلت استخبارات الحلفاء تقارير شميديت بحماسٍ، لكن بمرور الوقت بدأت التقارير تبدو غير مُتَّسِقَة مع ظهور تقارير من مصادر أخرى، وحامت الشكوك حول شميديت واستُدعي أحدُ ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات لدى الحلفاء للتحقيق معه.

وكَانَت المهمة الأولى كالمعتاد هي البحث في الملفات، وفي مكتبة من الوثائق الألمانية الَّتِي استولى عليها الحلفاء وجمعتها أجهزة مخابرات الحلفاء (أو المحللون الَّذِينَ يعملون معهم) وجدوا تسجيلاً لتحقيق أجراه ضابط استخبارات ألماني مع شميديت سنة 1944، حيث حامت حوله الشكوك آنذاك، إذ لم تجد الغواصات الألمانية أياً من السفن الَّتِي تحمل القنابل ومحركات القنابل الَّتِي تحدَّثَت عنها تقارير شميديت.

الغريب في الأمر أن التحقيق مع شميديت كَانَ قد توقَّف عندما تشفّع لَهُ صديقه موللر. وعندها تحرى ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات حول موللر فوجد أنه يعيش في مدينة بألمانيا الغربية في مكتب تتوافد إليه باستمرار الصحف الفَرَنسِيَّة والأمرِيكِيَّة والبِرِيطَانِيَّة.

وهَكَذَا بانت أطراف الخيوط في التحقيق. وباستخدام سلطات استثنائية للشرطة وقوة اقتحام دبَّر ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات التابع للحلفاء لاعتقال شميديت بِشَكلٍ آمنٍ، ثُمَّ ساقه معصوب العينين ولمدة ساعة ثُمَّ قيّده وزجَّ بِهِ في مخزن نبيذٍ فارغٍ لا نوافذ لَهُ في قلعة. وكَانَ فراشه بطانية واحدة ووسادته حجراً على الأرض (كَانَ الفصل صيفاً لكن الجو كَانَ صقيعاً في الليل في مخزن النبيذ)، وكَانَ المرحاض مجرد علبة كبيرة من الصفيح، ولم يكن لديه موس حلاقة ولا فرشاة أسنان ولا مرآة، وكَانَ المصباح -الَّذِي يعمل ليلاً نهاراً- مصباحاً واحداً يتدلى من السقف. ولم يكن الطعام مُنتظماً ولا وفيراً، ويُقدَّم إليه عبر فتحة في الباب، ولم يكن يُسمَح لِحُرَّاسِه بالتحدُّث إليه، وبقي على هَذِهِ الحال لفترةٍ من الزمن.

وذات يوم، أو مساء، أو صباح، أو ليلة -كَانَ شميديت قد فقد الإحساس بالوقت- دخل أحد الحرس مستودع النبيذ وغطى رأس شميديت بغطاء وسادة وربطه من خصره، ثُمَّ

دخل ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات التابع للحلفاء، ودون أن يراه شميديت، بدأ الضابط التحقيق (تحدث بلغة ألمانية لا تشوبها شائبة) قائلاً:

- "سررت لرؤيتك بِهَذِهِ الصحة الجيدة، هل لديك أي سؤال؟"
- "أين أنا؟"
- "لن تعرف هَذَا أبداً"
- "ماذا سيجري لي بعد هَذَا؟"
- "هَذَا يتوقف عليك"
- "ماذا تريد مني؟"
- "أنت تعرف ما أريد"
- "أحتاج فرشاة أسنان"
- "آسف عليَّ الذهاب الآن. سأعود"
- "متى؟"
- "ستعرف عندما أعود"

ثُمَّ مضت أيام وليال. وعندما عادَ ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، أحضر آلة كاتبة ورزمة من الأوراق. "سأتركُ آلةً كاتبةً وماعوناً من الأوراق، ستجدها عندما يرفعون غطاء الوسادة، اكتب لي ما أريد معرفته"

- "وما هو؟"
- "سمِّها قصة شميديت"

وعندما عاد ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات وجد رزمةً من بضع عشرات من الأوراق المطبوعة إلى جانب الآلة الكاتبة، فمزَّقها دون قراءتها ومضى في سبيله. كم استغرقت هَذِهِ اللعبة؟ أسابيع؟ شهور؟ وفي النهاية وصلت قصة شميديت إلى ثلاثمئة صفحة -وكلها واقعية ومُبهِرَة- وضمَّت أيضاً قصة مولر، الَّذِي كتب هو الآخر في مخزن نبيذ مشابه في قلعة أخرى

بغطاء وسادة آخر، لكن تحت إشراف ذات المُحَقِق، الَّذِي لم يقضِ من وقته سوى ثلاث ساعات كُلّ أسبوع لكامل العملية.

سيق شميديت وموللر كلاً على حدا معصوبي العينين لمدة ساعة في مدينتين مختلفتين، وأُطلِق سراحهما مع بعض رزم المال ليبدآ بدايةً جديدةً، ولم يعد أي منهما قط إلى عمل اختلاق المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة.

هل استُخدِم التعذيب؟ حسناً، لقد أمضى شميديت وموللر وقتاً عصيباً وقُلِلَ من شأنهما كثيراً، لكنهما كانا رجلين مرنين. وعندما تعّرض ضابط مكالحة الاسْتِخْبَارَات إلى تأنيب الضمير قليلاً، حدَّث نفسه بأنه ما كَانَ ليلجأ إلى هَذِهِ الطريقة لو لم يثبت لديه أن هذين الشخصين عنيدان ومراوغان. وبعدها بعدة سنوات وفي جزء آخر من العالم، أصبح المحقق بالمصادفة صديقاً لشميديت، الَّذِي لم يعرف أن صديقه اليوم كَانَ عدوه بالأمس.

عندما لا تجدي الحيلةُ نفعاً:

هُنَالِكَ ثلاثةُ أنواعٍ من الناس لا تجدي معهم الحيل السابقة دوماً: المعتلون اجتماعياً، ومن تعرضوا للتعذيب في السابق، وضباط الاسْتِخْبَارَات المحترفون. وفيما يلي بعض التلميحات.

المعتلُّون اجتماعياً:

يشمل صنف المعتلّين اجتماعياً المصابين بمرض الكذب والمدمنين على ارتكاب الجرائم، فربما يكونون أذكياء وواسعي الاطلاع، لكن تسيطر عليهم الحاجة إلى الهيمنة على الوسط المحيط بهم بين الفينة والأخرى مهما كَانَت عواقبُ سلوكهم. وتتجلى نقطة ضعفهم في أنهم عندما يفقدون السيطرة في موقف ما وجهاً لوجه، فإنهم يبذلون حينئذٍ جهوداً مُضنِيَةً (لدرجة قول الحقيقة) حَتَّى يستعيدوا شعورهم بالسيطرة. ما يزعجهم في العادة ويضعهم على طريق التعاون هو أن يَهُزَّ المحققُ كتفيه استهانةً، ويقولُ إن هَذَا السجين تافهٌ جداً ولا يستحق تضييع الوقت، ويتظاهر بإنهاء التحقيق. الشخص المريض اجتماعياً يعاني عندما يُطرَد مكللاً بالازدراء، ثُمَّ يعودُ ليعملَ على تجنيد المحقق في نوع من المؤامرة الَّتِي يمكنه هو السيطرة عليها. اللعب مع هؤلاء على إيقاع لعبتهم اعتباراً من هَذِهِ النقطة خطِرٌ لكنه ضروري.

من تَعَرَّضوا للتعذيبِ سابقاً:

الناجون من التحقيق الوحشي الطويل على أيدي -على سبيل المثال- الغوستابو في فرنسا أو اليابانيين في ملايا أو الكي جي بي في لوبيانكا[1] ربما نجوا لأنهم تعلموا حيلة إطفاء الشعور. وأياً كَانَت التسمية الَّتِي تُطلِقها على هَذَا ("التوحد الطوعي"؟) فإنه يُوصل التحقيقَ إلى طريقٍ مسدودٍ.

[1] الاسم الشائع لمقر جهاز الأمن الروسي الفيدرالي، والسجن التابع لَهُ في ميدان لوبيانكا في منطقة مشانسكي في موسكو، وهو مبنىً ضخمٌ واجِهَتُه من الحجارة الصفراء، صممه ألكسندر إيفانوف سنة 1897.

متى يمكن أن تواجه هؤلاء المُخضرمين بالتعذيب؟ أكثر مِمَّا تظن. مثال (1): فلاح من بلاد في أمريكا الوسطى،[1] تعرَّض للتعذيب الوحشي على يد الشرطة مِمَّا دفعه للانضمام إلى مجموعةٍ شيوعيةٍ مُتَمَرِّدَةٍ، وفيها تجنَّد وتدرَّب كعميلٍ في المديرية العامة لِلاسْتِخْبَارَاتِ (جهاز الاسْتِخْبَارَات الكوبيَّة) للعمل في بورتوريكو[2] مثلاً. مثال (2) ناجٍ يهودي سلوفاكي من معسكر شلوويتش[3] جنَّدته المخابراتُ للعمل كعميلٍ في إسرائيل.

لكن مع أمثال هؤلاء السجناء لديك امتياز ألا تقوم بأعمال التعذيب، وبالصبر سيُعيدُ التباين بين طريقتك والطرق الوحشية القديمة في التعذيب السكينةَ للسجين، وهَذِهِ هي النقطة الَّتِي يَجِبُ أن تتخلى عندها عن التهديدات تماماً، إن لم تستطع الوصول إلى التعاون باستخدام الود والواقعية والتحليل فاستسلم. لكن إن كُنْتَ تستفيد من هَذَا بالشكل المناسب، فربما ستجد أنه ليس عليك أن تستسلم. من السهل أن يشعر الإنسان بالتعاطف الإنساني اتجاه شخص تعرَّض للتعذيب ومن السهل نقل هَذَا الشعور، مِمَّا يصنع رابطةً قويةً بين المحقق والسجين.

ضباطُ الاسْتِخْبَارَاتِ المحترفون:

لا يوجد حالةٌ أصعبُ ولا أمتعُ من التحقيق مع زميل من جهاز استخبارات معادٍ، فهو يعرف حِيَلَكَ، ويعرفُ ما يستطيع إبعاده وما يَجِبُ عليه حمايته، ولديه الكثير من المعلومات الَّتِي يستطيعُ عبرها تشتيت انتباهك عن أهم المعلومات إلى التافه منها، أو من الصحيح عموماً إلى الخاطئ خصوصاً. ضع في الحسبان من البداية أن المحترف يمكن أن ينحني لكن لا يمكن أن ينكسر (انظر "نقطة الانكسار" لاحقاً). وحَتَّى المنشقُ بصدقٍ لديه بعض الأسرار الَّتِي لن يبوح لك بِهَا أبداً -لأسباب الشعور بالعار والولاء للقادة

[1] غواتيمالا، هندوراس، نيكاراغوا، كوستاريكا، بنما.

[2] جزيرة كاريبية تابعة للولايات المتحدة، عاصمتها سان خوان.

[3] معسكر اعتقال أوشفيتز عبارة عن مجمع يضم أكثر من أربعين معسكرَ اعتقالٍ وإبادة كَانَت ألمانيا النازية تديره في بولندا المحتلة خلال الحَرْب العالمية الثانية وأعمال الهولوكوست.

القدامى والتخطيط لاستخدام المعلومات لمصلحته الشخصية- وفي بعض الأحيان تكونُ هَذِهِ الأسرارُ مهمةً.

حَتَّى شميديت الَّذِي ذكرنا قصته آنفاً، احتفظ ببعض الأسرار الَّتِي لم نعرفها إلا فيما بعد، بما في ذَلِكَ سرٌّ هامٌ عن أن موللر أقام صِلاتٍ في وقت الحَرْب مع الاسْتِخْبَارَات السُّوفياتِيَّة من خلال مجموعة شويلز بويسن في برلين (كَانَ الملازم أول "هارو شويلز بويسن" اختراقاً سوفياتياً لقيادة استخبارات القوة الجوية الألمانية حَتَّى انكشافه وإعدامه سنة 1942).

ضباط الاسْتِخْبَارَات "القانونيون" -أولئك الَّذِينَ يتمَّتعون بالحصانة الدبلوماسية- لديهم "أساطير" (قصص تغطية) مبنيِّة على "غطائهم" مثل سكرتير ثانوي، مُلحق ثقافي، وعلى هَذَا المنوال. وسيكون لديهم على الدوام أسطورة "تشتيت" يعترفون من خلالها بكونهم جواسيس أقلُّ أهميةً مِمَّا هم عليه في الحقيقة.

يعتمد "غير القانونيين" في المقابل عادةً على كونهم غير واضحين لتجنُّب الانكشاف، ولديهم مشكلة في إبقاء غطائهم متماسكاً في حال إلقاء القبض عليهم. ومع بعض أعمال التحقيق والتحليل يمكن عادةً فضح زيف وثائقهم، ووسائلهم الظاهرية لكسب المعيشة يمكن كشفها هي الأخرى إذ تكون في الغالب غير مُقنِعَة.

كولون مولودي، ضابط استخبارات غير قانوني في الكي جي بي عمل في لندن باسم "جوردون آرنولد لونسدال"، حَيْثُ كَانَ يدير عملاً يبيع من خلاله آلات البينبول،[1] وُثِّق بهويةٍ كندي متوفٍّ. وعندما تفقَّدوا سجلات الولادة في كندا، وجدوا أن جوردون لانسديل الحقيقي مختون بينما لا تزال قلفة[2] "جوردون لاسيل" في لندن سليمة. هَذَا التحرِّي الَّذِي أجرته شرطة الخيالة الكندية الملكية كَانَ محل ترحيب من المُحقِقين مع

[1] البينبول: نوع من ألعاب الكرات، يستخدم فيها اللاعب المضارب للتلاعب بكرة أو أكثر داخل آلة البينبول. وآلة البينبول مغطاة بالزجاج.

[2] الجلد الرقيق الَّذِي يغطي أعلى قضيب الذكر.

"مولودي" في لندن. لكن مولودي التزم الصمت ولم يتمكَّن المحققون من تحصيل سوى القليل من المعلومات منه لتوسيع قضيتهم ضد عمل هَذَا الجاسوس المقيم غير القانوني.[1]

التحقيق مع ضباط الاسْتِخْبَارَات المحترفين من أمثال مولودي شاق، لكنه سهلٌ في نفس الوقت، لأن العلاقة مع المحترف تحدث تلقائياً في الغالب. فالجيولوجي النفطي من تكساس يتحدث ذات اللغة الأساسية الَّتِي يتحدثها منافسه في إيران، ربما يكونان على طرفي نقيض، لكنهما يفهمان بعضهما. وهَكَذَا فهَذَا هو الحال مع المحترفين في عالم التَّجَسُس، بعد عدة دقائق، ستتحوَّل عملية التحقيق مع المحترف إلى مزيجٍ من الشطرنج والجودو... حظاً موفقاً.

نقطةُ الانكسارِ:

يتحدَّث المحققون عن نقطة انهيار المُحَقَقِ معه. هَذَا اختزالُ لحثِّ المُحَقَقِ معه ليقرر أن يعترف بِكُلِّ شيء، وأن يتوقَّف عن الكذب والمراوغة، أو ليأخذ دواءه، أو لينصاع لتوجيهاتك. غالباً ما يكون الانهيار مؤلماً مع أعراض انهيار عصبي.

عندما "ينهار" المُحَقَقُ معه، ينتهي التحقيق، نظرياً. ومن هُنَا فصاعداً -نظرياً- إمَّا أنك تستخلص منه المعلومات أو أنك تُدرِّبه ليصبحَ عميلاً مزدوجاً أو تسجِّل اعترافاته لاستخدامها في محاكمته. لكن التحقيق في الحقيقة لا ينتهي أبداً، عندما يلتقي محقِّقٌ ومُحَقَقٌ معه لاحقاً بعدها بشهور أو بسنوات تظهر جدران السجون غير المرئية حولهم.

وهَذَا ما ينبغي أن يكون الوضع عليه، إن قام المحقِّقُ بعمله. ضع في حسبانك أنه قد يكون هُنَالِكَ مصافحة وعناق ونيَّات طيِّبَة، لكن تبقى جدران السجن. وإن أصبح عمل المُحَقَق معه الآن عميلاً مزدوجاً فعلى المحقق أن يتذكَّر أنه بات الآن ضابط حالة، والعمل القديم للتحقيق بات الآن اختباراً للعميل والتعامل معه وحماية حياته، فقد تحول التحقيق الآن إلى مكافحة تَجَسُس.

[1] الجاسوس المقيم في عالم التَّجَسُس هو عميل يعمل داخل دولة أجنبية لفترات طويلة من الزمن.

(6)

كيفَ تستفيدُ من جهازِ كشفِ الكذبِ؟ (البوليغراف)

العاملون في وسائل الإعلام الإخبارية، ممن لا يحبُّون الاعتراف بأنهم يكسبون عيشهم من العمل في إحدى صناعات التسلية -الَّتِي تموِّلها صناعة الإعلانات- تضيق أنفاسهم عندما يذكرون آلة البولغراف، الَّتِي يسمّونها عادة "كاشف الكذب". وبما أن وسائل الإعلام الإخبارية هي البحر الَّذِي يسبح فيه السياسيون، لذا يُرغي السياسيون ويُزبِدون عندما يتحدَّثون عن "كاشف الكذب"، الكذب الَّذِي لا تنفكُّ ألسنتهم تلهجُ بِهِ، في تقمُّص لموقف معروف هو سَخَطُ المتظاهرِ بالورع من الآثام الَّتِي يرتكبها غيره.

يمكن لوزير خارجية ينضح بالوطنية أن يقول: "اليوم الَّذِي ستقولون لي فيه لم تعد محل ثقة في هَذِهِ الحكومة سيكون آخر يوم لي فيها... لديَّ تحفظات قويةٌ حول ما يسمى اختبار كشف الكذب؛ لا يمكن أن يكون أداة علمية، إنه يميل إلى تصنيف الأبرياء على أنهم مذنبون ويبرّئ بعض المُذنبين من الكذب. كما ثبت بالتجربة أن بوسع الجواسيس المحترفين ومسرِّبي المعلومات المحترفين التدرُّب على التملص من اختبار كشف الكذب" (جورج شولتز،[1] 19 كانون الأول، 1985، في تصريح لوكالة أسوشيتد برس). ولست أريد هُنَا التحدُّث عن أخلاقيات استخدام البوليغراف كوسيلة تحقيق بل عن الحقائق حول استخدامه.

[1] جورج برات شولتز: اقتصادي ودبلوماسي ورجل أعمال أمريكي. عمل في العديد من المناصب في عهد ثلاث إدارات أمريكية جمهورية، ويُعتَبَر واحداً من رجلين شغلا أربعة مناصب وزارية مختلفة.

ما هو البوليغراف؟

إنه أداةُ قياسٍ، لا أكثر، فهو يجمع بين ثلاثة أجهزة طبية (فكلمة بولي بالإنكليزية تعني العديد)، تقيس (1) ضغط الدم والنبض، (2) معدل التنفس، و(3) نمط التنفس. وكُلّ جهاز موصول إلى قلم كتابة ميكانيكي مجهَّز بقلم حبر يُدعى المُرقِم، والمُرقّمات الثلاثة ترسُمُ خطوطاً في نفس الوقت على مخطط يُمَرَر عبر عارض، وبالتالي فهو مشابه للعديد من الآلات الَّتِي تُستخدَمُ طبِّيّاً لتشخيص الأمواج الدماغية (مخطط كهربيّة الدماغ) وأداء القلب (مخطط كهربائية القلب)، وما شابه (في الواقع يمكن أن تُدمَج هَذِهِ الأدوات مع بعضها في المستقبل لتشكِّل معاً بوليغرافاً مُدمجَاً).

الآلة بالكامل مع مزيد من الورق والحبر ومنظِّمات كهربائية وحقيبة أدوات تُشكّلُ حقيبةً تشابه في شكلها ما يُسمى اليوم الحاسب "المحمول". ويكون مُعَدَّل الإصابة بمرض الفتق في صفوف المشغِّلين الميدانيين لجهاز كشف الكذب في الميدان مرتفعاً، حَيْثُ يسحبون أجهزتهم "المحمولة" من مكتب إلى سيارة ومن منزل آمن إلى آخر.

أهم مكونات جهاز **ضغط الدم** هي قطعة المطاط الَّتِي توضع حول الذراع عندما تُجري فحصَاً بدنياً، حَيْثُ تُنفخ بالهواء كي تخنق دورتك الدموية قليلاً بِحَيْثُ يُسَجَّل ضغط الهواء الناتج عن انتفاخ قطعة المطاط عبر مؤشر ساعة الضغط. يستخدِمُ البوليغراف ببساطة مُرقِّمَاً بدلاً من ساعة الضغط، حَيْثُ يسجِّل المُرَقِّم التغييرات على المخطط المتحرِّك، ويُظهِرُ معدَّل النبض تلقائياً، لأن ضغط الدم يرتفع ثُمَّ ينخفض قليلاً (انقباض/انبساط) مع كُلّ نبضةٍ للقلب.

قياسُ **التعرُّق** يعتمدُ على حقيقة أن عرق الإنسان يحتوي على الملح والملح ناقل للكهرباء، وكلما زاد التعرق زاد الملح، فإن كَانَ يمر عبره تيار كهربائي ستزيد الناقلية الكهربائية بزيادة التعرق، وهَذَا قابل للقياس عبر جهاز "غلفانوميتر" أو مقياس تيار كهربائي موصَّل إلى راحة يدك، والَّذِي بدوره يُترجِمُ التَّغَيُّرات في معدل تعرُّقِكَ إلى حركة للمُرقّم الثاني الَّذِي يرسمه على المخطط.

والتنفس فيه اعتباران، هما الوتيرة والعمق، ونمط هذين العَرَضين يسجِّله المُرَقِّم الثالث حَيْثُ يتلقى المعلومات من شريط مرن يُثَبَّت حول الصدر ويتسبب بضيق خفيف في التنفس، فإذا حبست أنفاسك سيظهر هَذَا على المخطط، وإذا تنفَّست بسطحية أكبر يسجِّل المخطط هَذَا، وإذا أخذت نفساً عميقاً مثل ما نفعل كُلّ ثانية تقريباً (وكما نفعل عندما نشعر بالطمأنينة) يظهر هَذَا على المخطط أيضاً.

يُظهِر المخططُ كيف تتفاعلُ هَذِهِ المؤثِّرات الثلاثة معاً، يمكن أن يزيد ضغط دمك وتعرُّقك في ذات الوقت، وقد لا يحدثُ هَذَا، وفي نفس الوقت قد تنخفضُ وتيرةُ أنفاسك أو ترتفع.

العامل الرابع - الَّذِي يتعلق بهؤلاء الثلاث- هو التحفيز اللفظي الَّذِي يتسبب بِهِ المُحَقِق، والَّذِي يلاحظه ويضع علامات عنده على المخطط بقلم فلوماستر أثناء الحديث.

كيفَ يعملُ البوليغراف؟

إن كُنْت تركبُ سيارةً مسافراً وفجأةً مَرَقَ طفل أمام السيارة مسرعاً عندها سيرتفع ضغط دمك، وتتعرق راحتا يديك، وتحبس أنفاسك في الوقت الَّذِي يدوس فيه السائق على الفرامل أو يحرف مساره. لو استطعت أن توصِل جسدك بجهاز كشف الكذب خلال هَذِهِ التجربة واستعرضت ما جرى على شاشة منقسمة، في القسم الأول منها الرسم البياني المتحرك بأقلامه الثلاث على شاشة، بينما القسم الثاني فهو المنظر عبر الزجاج الأمامي؛ سترسم خطوط ضغط الدم قمماً حادة، وسيقفز خط التنفس فجأة (مع "حبسك لأنفاسك")، ثُمَّ ينخفض. سيكون هُنَالِكَ تأخير بين رؤية الطفل والتغييرات على المخطط ومدة التأخير هَذِهِ يمكن قياسها ودراستها، كمدة رد الفعل لديك، من قِبَل طبيب مهتم بردود أفعالك. إن كُنْت تعاقر الخمر أو يوجد خمر في جسمك، سيكتشف الطبيب (أو مشغِّل البوليغراف الخبير) الكحول أو المخدرات عبر دراسة تأخر زمن التفاعل.

كُلّ هَذَا يؤكِّد ما تعرفه سابقاً -بأن ما تراه وتسمعه يؤثِّر على الطريقة الَّتِي يعمل بِهَا قلبك وجلدك ورئتاك من لحظة لأخرى. ويمكنك مقارنتها بقفزات الغزلان السريعة في باحة

بيتي الخلفية عندما ترى كلب الجيران أو تسمع نباحه. لكن يوجد اختلاف بينك وبين الغزال، لأن كثيراً مِمَّا تراه (قراءة هَذِهِ الصفحة على سبيل المثال) والكثير مِمَّا تسمعه هو الكلمات، والكلمات أو المعاني الكامنة فيها، تؤثِّر هي الأخرى في وظائف جسمك.

دعنا نركِّب جهاز بوليغراف على جسدك ونقرأ قائمة من الكلمات: "خشب... زجاج... ماء... إله... غمام... مصباح... جنس... ورقة... حذاء".

انظر الآن إلى المخطط، وإلى الخط الَّذِي رسمه القلم عند كُلّ كلمة قلتها. هل سيكون هُنَالِكَ صعود وهبوط؟ ما لم تكن شخصاً غير عادي، سيكون هُنَالِكَ ذروتان صغيرتان من الدم وذروتان من العرق عند كَلِمَتَيِ "إله" و"جنس"، ومُنخَفَضان صغيران في خط التنفُّس عند ذات الكلمتين، وبعد اكتمال القائمة سيكون هُنَالِكَ صعود للمرقِّم الثالث يُظهِر تنفسك الصعداء عند انتهائك من قراءة القائمة.

افترض الآن أننا بدلاً من قراءة قائمة الأسماء، طرحنا عليك سلسلة من الأسئلة القصيرة، ويتعيَّنُ عليك الإجابة عليها بـ "نعم" أو "لا" (في هَذِهِ الحالة لم ندرِّبك على هَذِهِ الأسئلة من قبل):

1. هل تمطر الآن؟
2. هل ترتدي حذاءً؟
3. هل كَانَ أبراهام لينكن رئيساً؟
4. هل تحب هَذَا البوليغراف؟
5. هل تتحدّث الإنكليزية؟
6. هل تدخِّن؟
7. هل ترتدي ملابس؟
8. هل أنت جاسوس روسي؟
9. هل البيسبول رياضة؟

فلنقل إنك أجبت على كُلّ هَذِهِ الأسئلة بنعم باستثناء رقم ثمانية. مع كُلّ إجابة رسم المُرقّم خطاً على المخطط المتحرّك، ويظهر الآن كمجموعة من الجبال والوديان. إنه لا يَجِدُ شيئاً خاصاً في الانفعالات 1 و2 و3، وانفعالاً معتدلاً عند 4، ولا استجابة كبيرةً عند 5، واستجابة خفيفة عند6، لا شيء عند 7 ولا عند 9، لكن انفعالٌ كبيرٌ عند 8.

كيفَ تتفاعلُ معَ البوليغراف؟

حسب بعض علماء النفس يرتفع ضغط الدم عند سماع كلمة "الإله" أكثَرَ منه عند سماع كلمة "مصباح" لأن مفهوم "الإله" أياً كَانَ معناه في تفكيرك، لَهُ صلات عاطفية وفكرية أكبرُ من تِلْكَ لكلمة "مصباح"، ولذا سَتَشْغُلُ ردة فعلك على استعمال كلمة "الإله" دارات أكبر في دماغك الشبيه بالحاسوب، وسيحرق المزيد من الطاقة الكيميائية، في بدنك أيضاً، لأن الدماغ والجسد مترابطان عبر النظام العصبي والغدد (مثل الغدة الكظرية).

الطبيب الباحث في بوسطن (الدكتور آندرو سلوين في مستشفى برمنغهام ومشفى أمراض النساء) يقول إن الإثارة من أي نوع -عمليَّة حسابية في دماغك، على سبيل المثال- تسبب عادة "فقر دم" موضعي وانقباضاً غير مؤلم لشرايين القلب مِمَّا يؤدي إلى تضرر عضلة القلب ويساهم في حدوث نوبة قلبية في نهاية المطاف لبعض المرضى. لذا لا تزيد مخاطر الضرر القلبي بسبب الخضوع لتحقيق البوليغراف عن مخاطر الضرر الَّذِي قد تسببه مراجعة جدول الضرب أو التفكير الَّذِي أبذله لكِتَابة هَذِهِ السطور.

وذات علماء النفس يعتقدون أن معظم الناس- وليس كلهم- تستخدم أدمغتهم مزيداً من الطاقة الإلكتروكيميائية للإجابة على سؤال ما بِشَكلٍ خاطئ أكثر من الطاقة اللازمة للإجابة بصدق، إذ يحتاج الدماغ ببساطة إلى مراجعة معلوماته السابقة واستخدام مزيد من الدارات في الدماغ أثناء صياغة الجواب.

وعلماء نفس آخرون يعزون الأمرَ إلى التكيُّف مع الذنب، وهو مصطلح جديد يعني "الضمير"، وهم يقولون إن تفاعلك مع كلمة "جنس" أقوى منها مع كلمة "حذاء" لأنك

اعتدت منذ الولادة على التفكير بالجنس بِشَكلٍ أخلاقي ومعنوي وتشعر بالذنب حول سلوكك الجنسي.

عامل البوليغراف الَّذِي يعملُ خارج البلاد يتعلَّم تعديل هَذِهِ النظرية بعض الشيء، فهو يجد أن الضمير الجنسي هو ذاته شمالَ أوروبا والبر الرئيسي لِبِريطَانِيَا ولدى الأمريكيين، الَّذِينَ يتشابهون في "الثقافة الجنسية" لكن الأمر مختلف لدى شعوب أمريكا اللاتينية وجنوب أوروبا، والمسلمين في الشرق الأوسط، كما ينطبق هَذَا بقوةٍ على شعوب جنوب شرق آسيا غير المسيحيين.

ولحسن الحظ فالجنس ليس كُلُّ شيء، ففي معظم (وليس كُلّ) الثقافاتِ، الصدق فضيلة والكذب نقيصة، وحَتَّى أولئك الَّذِينَ تُلجِئُهم ثقافاتهم -من باب الأدب- على قول ما يُسعِد مُضيفَهُم، سواءً كَانَ ما يقولونه صدقاً أم كذباً، يمكن للمشغِّل الخبير اصطناع موقف شخصي يشعر فيه هَذَا الإنسان بالاضطرار إلى قول الحقيقة للمُحَقِق، سواءً كَانَت هَذِهِ الحقيقة مؤدَّبَة أم لا.

الفارق الرئيسي بيننا نحن الغربيون وبين بعض الأفراد من ذوي الثقافات الدخيلة (يخطر بالبال المتصوِّفون الجاويون)[1]، عند التفكير بالحقيقة والزيف ببساطة أن هَذَا التفكير ليس موجوداً عندهم. فبالنسبة لهم لن يعمل البوليغراف ككاشف كذب، مع أنه يمكن استخدامه عندهم كأداة للتقييم النفسي ويمكنه عندها دعم أدوات التحقيق الأخرى، الَّتِي سنتحدَّث عنها لاحقاً في هَذَا الكتاب.

لاحِظ استخدامنا لمصطلحات من قبيل "الثقافة" و"المختلفون عرقياً"، يُبيِّن هَذَا أن على ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات حين يعمل خارج بلاده أو يحقِّقُ مع شخص لَهُ خلفية ثقافية مختلفة عن خلفيته، أن يعرف الأشياء الحساسة بالنسبة لِهَذَا الشخص، وبالتالي يَجِبُ أن

[1] الجاويون: مجموعة عرقية أصلية في جزيرة جاوة الإندونيسية، معظمهم من المسلمين. تُعتبر الجاوية مهمة لأنها رابع أكبر مجموعة عرقية بين المسلمين، في العالم، بعد العرب والبنغاليين والبنجابيين.

يعرف من أين هو. مع الانتباه إلى أن ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات ليس مُبشّراً، ولا ينبغي لَهُ، بل يَجِبُ أن يكون باحثاً في الأنثروبولوجيا.[1]

ماذا يعني تفاعلك؟

فلنفترض -جدلاً- أن قضيتك بسيطةٌ، وأنك أمريكي أو من شمال أوروبا أو من بريطانيا، وأنك رصين وخالٍ من المخدرات، وأن الطبيب النفسي يعتقدُ أنك صحيح نفسياً. ما النتيجة الَّتِي سيصل إليها مشغِّل الجهاز من المخطط البياني الناتج؟

أجبت جواباً يفيد بأنك لست جاسوساً روسياً، لكن ضغط دمك ارتفع، وراحتا يديك تعرَّقَتَا، وحبست أنفاسك خلال الإجابة.

حسناً، ليست النتيجة الَّتِي يتوصَّل إليها المشغِّل هي أنك كُنْت تكذب وأنك بالفعل جاسوس روسي. إن كَانَ يعرف عمله، سيستنتج مُشغِّل البوليغراف فقط أن فكرة كونك جاسوساً روسياً تزعجك، ربما لأنك بالفعل جاسوس روسي، أو لأنك فقط تكره الجواسيس الروس أو تكره مجرَّد الفكرة المُهينة بأن تكون واحداً منهم. إنه يضع تفاعلك في ذات الخانة مع أضعف تفاعلاتك مع السؤال السادس. ففي السؤال السادس يعرف أن إجابتك إجابة واثقة، وهي أنك تدخِّن لكنه يعرف أيضاً أن جميع المدخّنين هَذِهِ الأيام يتَّخِذون موقفاً دفاعياً حيالَ التدخين، وعندما تقول -بالفعل- "نعم أنا أدخّن" فهَذَا يضرب على وتر الغضب الدفاعي لديك.

في حالة السؤال الرابع، كذبتَ بقولكَ إنّك تحبُّ هَذِهِ الآلة -البوليغراف- الموصولة إلى جسدك. لا أحد يحب الخضوع لاختبار البوليغراف، ومحاولتك مجاملة المشغِّل لن يغيِّر تفاعلك العاطفي معها. لكن حَتَّى لو حاولت ألا تجامل وأجبت بـ: لا فربما يُظهِر مخططك

[1] الأنثروبولوجيا: هي دراسة المجتمعات الإنسانية القديمة والحديثة، وتدرس الأنثروبولوجيا الجوانب الاجتماعية والثقافية والفلسفية لأعراف وقيم المجتمعات الإنسانية والسلوك الإنساني.

جبلاً فيما يتعلق بضغط الدم والتَّعَرُّق ووادياً عند التنفس بعد هَذَا السؤال، ببساطة لأنك تشعر شعوراً قوياً بعدم الراحة وهَذِهِ الآلة المُهينة مُتَّصِلَةٌ بجسدك.

ككاشف كذب، وفي هَذَا الاختبار المكوَّن من تسعة أسئلة مُفاجِئَة سيفشل البوليغراف، أما كوسيلة لمعرفة شيء عن شخصيتك فسيكون مفيداً.

لكن هَب أنك علمت بالأسئلة قبل بدء الاختبار، وأنك حضَّرت الإجابات ذهنياً لِكُلِّ سؤال، حينئذٍ ستختلف حالتك الذهنية، لأنَّك هَذِهِ المرة حضَّرت الإجابات وتعلم أنك الآن تتحمل المسؤولية عن دِقَّتِها، فإن كُنْت تعلم -أو تعتقد- أن إجاباتك دقيقة، سيكون الضغط العاطفي عند الإجابة أقل، وسيستخدم عقلك وجسدك المُتَّصِلُ بِهِ طاقةً أقل.

لاحظ كيف أثَّر "الاختبار القبلي" على راحتك العقلية. ونوقِشَت مشاعر الإحساس بالذنب حيال التدخين (السؤال السادس) ووُضِعَت في سياقها، ووافقت على الإجابة بـ "لا" على السؤال الرابع لأنك بالفعل تكره البوليغراف. معنى أن تكون "جاسوساً روسياً" بات واضحاً مِمَّا يزيلُ كُلَّ المشاعرِ الغامضة حول الصداقة مع الاتحاد السُّوفيَاتِيّ أو الأحكام الفكرية حول الشيوعية ويُبقي فقط على النشاط التآمري المُستَخدَم في مهنة التَّجَسُس؛ الاجتماعات السرية، والاتصالات السرية، وسرقة المعلومات، واكتشاف المُرَشَّحين الآخرين للعمل كعملاء، وهَكَذَا. وفي الحقيقة، فلأن عبارة "جاسوس روسي" تُعتَبَرُ عبارةً مُستَقذَرَةً لدى معظم الناس (باستثناء ضباط المخابرات السُّوفيَات المحترفين) فقد توافقتَ مع مشغِّل البوليغراف على إعادة صياغة السؤال الثامن ليكون أكثر تحديداً، ولتفريغ اللغة من شحناتها العاطفية: "هل أنت عميلٌ تتحكم بك أجهزة الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيَّة؟".

كيف سيبدو مخططك، هل سيكون مختلفاً تماماً عما لو كَانَت الأسئلة مفاجِئة؟ فيما يلي الأسئلة وإجاباتها:

1. هل تمطر؟ نعم
2. هل ترتدي حذاءً؟ نعم
3. هل كَانَ أبراهام لينكن رئيساً؟ نعم

4. هل تحب جهاز البوليغراف هَذَا؟ لا
5. هل تتحدث الإنكليزية؟ نعم
6. هل تدخِّن؟ نعم
7. هل ترتدي ملابس؟ نعم
8. هل أنت عميل لجهاز الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيَّة؟ لا
9. هل البيسبول لعبة؟ نعم

سيبدو مخططك كما في الجدول 6.1

الجدول 6.1 نتائج اختبار كاشف الكذب باستخدام تسع أسئلة

السؤال	ضغط الدم	معدل النبض	التعرّق	التنفّس
1	ارتفاع بسيط	ارتفاع بسيط	ارتفاع بسيط	ارتفاع بسيط
	(التفسير: توتر بسيط عند بداية الاختبار)			
2	العودة إلى المعدل الطبيعي	العودة إلى المعدل الطبيعي	العودة إلى المعدل الطبيعي	العودة إلى المعدل الطبيعي
	(التفسير: لا يوجد توتر، طمأنينة)			
3	لا تغيير	لا تغيير	لا تغيير	لا تغيير
	(التفسير: لا توتر)			
4	ارتفاع طفيف	ارتفاع طفيف	انحدار طفيف	انحدار طفيف
	(التفسير: انزعاج بسيط من الجهاز كتهديد على الاعتداد بالنفس)			
5	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي
	(التفسير: لا توتر، طمأنينة)			
6	ارتفاع طفيف	ارتفاع طفيف	زيادة طفيفة	انخفاض طفيف
	(التفسير: شعور طفيف بالذنب اتجاه التدخين)			
7	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي
	(التفسير: لا توتر، طمأنينة)			
8	ارتفاع معتدل	ارتفاع معتدل	زيادة معتدلة	انخفاض معتدل
	(التفسير: كراهية لفكرة في السؤال؟) الإجابة غير الصادقة تؤدي إلى انفعال أكبر؟			
9	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	عودة إلى المعدل الطبيعي	نَفَس عميق
	(التفسير: لا توتر، شعور بالطمأنينة لانتهاء الاختبار)			

أكاذيبٌ معروفةٌ وأسئلةٌ مفاجئةٌ:

في مثال الأسئلة التسعة الموضَّح آنفاً، ربما يشعر مشغِّل الجهاز بعدم اليقين حول السؤال رقم ثمانية الحاسم. فقد لاحظ انفعالاً "معتدلاً"، ويعتقد أن هَذَا الانفعال ربما يكون نتيجة "كراهية فكرة السؤال" ربما لأنَّ: "الإجابة الكاذبة ستؤدي إلى انفعال أقوى؟" لكن ماذا عن إشارة الاستفهام؟ كيف يستطيع التأكد من أن الانفعال لدى هَذَا الشخص بالذات، ليس انفعالاً قوياً بالفعل؟

ليتأكد من حكمه الخاص، يحتاج مشغِّل البوليغراف أن يعرف كيف يبدو الانفعال الحقيقي لدى الشخص الَّذِي يحقق معه؛ وهو أنت.[1] إحدى الطرق هي أن يرى الانفعالات الناتجة عن كذبة معروفة، كذبة يعرف فيها أنك تكذب ويعرف أنك لا تعرف أنه يعرف. لحسن حظه -وحظك أيضاً- أن لديه مواداً أعطاه إياها المحقق الَّذِي يتولى قضيَّتَك، وهو يعرف من خلال هَذِهِ المواد واحداً من أسرارك الخاصة، وهو غير مهم بالنسبة لَهُ، لكنه مهم بالنسبة لك؛ كي تصبح مؤهَّلاً للحصول على قرض لمنزل زوَّرت كشفك المالي للبنك، مُدَّعِياً امتلاكك أسهماً في البورصة في حين أن هَذِهِ الأسهم تعود في الحقيقة لوالدتك، وبغضِّ النظر عن أنَّك لم تتخلف أبداً عن سداد القرض، وبغضِّ النَّظَر عن أن الموظَّف البنكي شجَّعَك على تقديم الكشف الخاطئ، وعن أنك ورثت تِلْكَ الحصة، إلا أنه يبقى بياناً مُزيَّفاً وأنت تعلمُ أنه بيانٌ مزيّفٌ ولطالما شعرت بالخجل والخوف من البوح بِهَذَا الخطأ، حَتَّى لزوجتك. كما أنك لا تعلم أن التحري الروتيني عن خلفيتك قد كشف هَذَا التلاعب. مشغِّل البوليغراف الَّذِي تدرَّب على يد المُحَقِق الَّذِي يدير التحقيق يستطيع الرهان على أنك ستكذب حولَ هَذِهِ النقطة.

لذا سيقول لك المشغِّل أنه سيطرح عليك مجموعةً جديدةً من الأسئلة، وهي مشابهةٌ للمجموعة السابقة، باستثناء السؤال رقم ثمانية، ها هو يسأل: "هل زوّرت بياناً مالياً وقدَّمته

[1] افتراضياً.

إلى البنك؟" وهو يأمل أن تكون إجابتك هي الإجابة الكاذبة "لا"، وسيسعده أن تشير إلى أن "لا" هي إجابتك.

ودون أن يخبرك يقرر المشغّل أيضاً أن يفاجئك بسؤال في نهاية السلسلة، فهو يعرف من الاختبار الَّذِي أجراه للتو (السؤال الرابع)، أنك تكره -وبالتالي تخاف- من الجهاز نفسه. عندما يُنهي سلسلة الأسئلة المُتَّفَقِ عليها يبُقي الجهاز مُشتَغِلاً ويقول إن لديه سؤالاً آخر. ويتوقف ويراقب ارتفاع ضغط دمك وتزايد تعرقك وتسارع أنفاسك، في توقع لبعض الأسئلة الَّتِي يكون وقعها غامضاً: "هل استمنيتَ من قبل؟ هل كذبت على أمك؟ هل كذبت علي؟ وعندما يصبح المخطط البياني سلسلةً من الجبال والقيعان، يعود فيسأل "هل فرشيت أسنانك؟".

يا لَهَا من حيلةٍ قذرةٍ، لقد قلت لك من قبلُ التحقيقُ عملٌ قذرٌ. لاحظ -كشخص خضع للتحقيق تطوعاً- إلى أي مدى كُنْت سجيناً من خلال هَذِهِ الإجراءات.

ما يُظهِره المخطط الآن هو عدد قليل من الاستجابات القصوى، وأحدها ناتج عن كذبة معروفة، والبقية بسبب الخوف. يمكن مقارنتها بإجاباتك على أرقام الأسئلة السابقة، فإذا كَانَت أقوى من إجابتك على السؤال فيما إن كُنْت عميلاً سوفياتياً، يمكن للمحقق الَّذِي يدير الحالة أن يُضيفَ هَذِهِ المعلومة إلى بقية النقاط الَّتِي تعزز احتمال أنك مواطن موالٍ وعادي. شكراً لك يا مُشغِّل البوليغراف، زملاؤك يقدِّرون دعمك.

ممَّا سبق، نجد أن مُشغِّل البوليغراف ينبغي أن يكون شخصاً ذا خبرة غير اعتيادية وذا معرفة لا تقتصر على معرفة كيفية ضغط الأزرار وليِّ المقابض. لعلَّك توصَّلت إلى أن بعضاً من مُشَغِّلِي البوليغراف أمهرُ من بعض، أنت على حق.

كُلّ مشغِّل بوليغراف ينبغي أن يقتنع في صميم قلبه أنه وجهازه غير معصومين عن الخطأ، بل إنهم يرتكبون الأخطاء، فليس ثمة مُشغِّل بوليغراف يمكن أن يعرف ما يكفي من الطب وعلم النفس والإلكترونيات ومكافحة الاسْتِخْبَارَات والأنثروبولوجيا والجغرافية حَتَّى يصبح معصوماً عن الخطأ. ونصيحتي لمن يديرون التحقيقات بوساطة البوليغراف: إن

كَانَ مشغِّل البوليغراف لديك يعتقدُ أنَّه يديرُ جهاز كشف كذب مثالي فاطرده، فهو لا يعرف عمله.

أما إن كَانَ يعتقد أن جهازه ومهارته وسيلةٌ لمساعدة التحقيق، وتزويده بالأدلة، فاستفد منه واعمل معه وساعده.

متى يعملُ البوليغراف ككاشفٍ للكذبِ:

المثال الأبرز الَّذِي يُستَشهّد بِهِ في مناهج التدريب على تشغيل البوليغراف ككاشف حقيقي للكذب هي حالة مُشتَبهٍ فيه في جريمة، حَيْثُ يعرف المشغِّل أن السلاح المُستَخدَم في الجريمة كَانَ سكيناً، لكن هَذَا بقي سراً لدى الشرطة، وفيما يلي الأسئلة والأجوبة:

1. هل ترتدي الملابس؟ نعم
2. هل ارتكبت الجريمة؟ لا
3. هل استخدمت هراوة؟ لا
4. هل استخدمت سلاحاً؟ لا
5. هل استخدمت سكيناً؟ لا
6. هل استخدمت سُمَّاً؟ لا
7. هل استخدمت يديك؟ لا
8. هل ترتدي حذاءً؟ نعم

لأن المجرم فقط والشرطة يعرفون أن السؤال رقم 5 سؤال حساس، فمخطط المشتبه (إن كَانَ شخصاً عادياً، ليس سكراناً وليس تحت تأثير المخدِّرات) سيُظهِر فيما إن كَانَ مذنباً أم لا، سواءً استسلم عند الرقم 5 أو لا، فإن كَانَ هو من ارتكب الجريمة، فلا يهم فيما إن كَانَ يشعر بالذنب أم لا حيال الجريمة، هو يتذكر ذاك السكين ويعرف أنه قد يودي بِهِ إلى مشكلة عويصة.

هل ستكون كُلّ اختبارات البوليغراف بِهَذِهِ البساطة، وخصوصاً في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، حَيْثُ يكون من تُحَقِقُ معهم أُناساً مُعَقَّدين في مواقف مُعَقَّدَة، وبيئة غريبة؟

من خلال تجربتي الخاصة، الَّتِي امتدت على مدار ستة وعشرين عاماً أدير فيها (وأُجري) اختبارات البوليغراف، لم أعرف سوى حالة واحدة عمل فيها الجهاز ككاشف مثالي للكذب، وكَانَت هَذِهِ حالة امرأة ذات طبيعة جسدية غريبة للغاية، كَانَت في منتصف العمر، امرأة بروتستانتية أوروبية تعيش باسم مستعار وبوثائق مُزَيَّفَة في أوروبا الغربية كشفناها من خلال البحث الروتيني والمراقبة وعرفنا أنها صلة الوصل بين مشغِّل جهاز راديو عميل وجهاز استخبارات تابع لدولة من دول أوروبا الشرقية. ولأننا عرفنا من قبل وضعها لجاسوسة، كَانَت الغاية من اختبار البوليغراف هي إرغامها على الاعتراف بِحَيْثُ نتمكن من استخلاص المعلومات منها، وتجنيدها كعميلةٍ مزدوجةٍ ضد جهاز الاسْتِخْبَارَات الأصلي الَّذِي تعملُ لصالحه. (انظر الفصل العاشر حول تجنيد العُمَلَاء المزدوجين). ووسط ذهولي وذهول مُشغِّل البوليغراف توقَّف قلبها عن النبض لخفقتين كاملتين عندما أجابت إجابة كاذبة عن أول سؤال حاسم: "هل اسمك هو...؟" وفوَّت قلبها دقَّتين كاملتين عند كُلّ سؤال أجابت عنه إجابة كاذبة بعد ذَلِكَ، وعندما انتهت الأسئلة انتزع المشغِّل المخطط من الجهاز ببساطة، وأشار إلى المنطقة الَّتِي تقابل أول سؤال لَهَا، وقال: "والآن قولي لي بحق السماء ما اسمكِ؟" فأخبرته، ومع مرور الوقت باتت عميلةً مزدوجةً قَيِّمَةً (انظر الفصل 11).

كَانَت هَذِهِ حالة من مليون حالة، ربما من عشرة ملايين حالة، ولا تعوِّل أبداً على الحصول على حالة مثلها أبداً.

متى لا يعملُ البوليغراف؟

في الفصل الخامس، في مناقشة التحقيق لاحظنا ثلاثة أنماط من حالات المُحَقَق معهم تكون حيل التحقيق القياسية معهم قليلة الجدوى: المرضى الاجتماعيون، وضباط الاسْتِخْبَارَات المحترفون، ومن تعرّضوا للتعذيب من قبل. ومع هؤلاء يمكن أن يكون البوليغراف مفيداً للغاية، ليس كجهاز لكشف الكذب، وإنما كداعمٍ للتحقيق.

المرضى الاجتماعيون:

يمكن القول بأن كُلّ ما يقوله المريض الاجتماعي كذب. النمط الغريب للإجابات على أسئلة البوليغراف (الَّتِي ستحصل عليها أيضاً من مريض بانفصام الشخصية على وشك الدخول في نوبة أو أنه بالفعل وسط نوبة)، ستكشف على الفور الحالة المَرَضِيَّة. ليست الحيلة هي تحديد ما هو حقيقي بل ما يريده المُحَقَقُ معه أن يكون حقيقياً. وكمعلومات لمكافحة الاسْتِخْبَارَات فهَذَا الكشف مفيد للتحليل تماماً مثل الفائدة من خضوع أي شخص طبيعي لاختبار البوليغراف.

ضباط الاسْتِخْبَارَات المحترفون:

المُحتَرِفون المُدَرَّبُون على استخدام التنويم المغناطيسي الذاتي أو الارتجاع البيولوجي[1] لتحييد البوليغراف يمكن دوماً كشفهم منذ البداية من خلال تحفُّظِهم الشديد في انفعالاتهم. كما أن حيل اليوغا لا تعمل بِشَكلٍ جيدٍ حيال الأسئلة المُفاجِئَة المُجَهَّزَة بعناية. عندما تجد المحَقَق معه يستخدم الإيحاء الذاتي، تكون في هَذِهِ الحالة قد تعلَّمت ما يكفي عنه لإعادة هيكلة التحقيق.

[1] الارتجاع البيولوجي: هو عملية اكتساب وعي أكبر بالعديد من الوظائف الفيزيولوجية للجسم، عن طريق استخدام أدوات إلكترونية أو غيرها، وبهدف التلاعب بأنظمة الجسم وفق الرغبة.

من تعرضوا للتعذيب سابقاً:

إن كَانَ من الممكن إقناع المُحَقق معه الَّذِي تعلَّم مراوغة التحقيق القسري، بالخضوع لاختبار البوليغراف، فسوف يتفاعل بِشَكلٍ طبيعي تماماً، لأن اختبار البوليغراف اختبار طبيعي، فإذا تخلَّى المُحَقق معه عن مراوغته فقد استسلم للجهاز.

حالات الواهنين عاطفياً:

سيطلب مُشغِّل البوليغراف إبقاء التحقيقات قصيرة لأنه يعلم أن المُحَقق معه يمكن أن يتفاعل مع الأسئلة لمدة محدودة فقط. وسيقول المشغِّل: "سينفد الأدرينالين منه"، لذا استخدم البوليغراف باعتدال، وفقط عندما تُحَضِّر أسئلتك بعناية.

هلْ بوسعكَ هزيمةُ البوليغراف؟

المهدِّئات والمُسكِّنات والكحول وغيرها من المخدرات يمكن أن تُستخدَمُ لإفساد تفاعل الجسم مع أسئلة البوليغراف، لكن بوسع المشغِّل الخبير في العادة اكتشاف الانفعالات الناتجة عن تأثير المُخدِّرات من المجموعة الأولى من الأسئلة. كما يمكن اكتشاف تناول المُحَقق معه للأدوية الَّتِي تخفف من ضغط الدم، أو للحدِّ من حركية القولون (لدى مرضى القرحة)، أو لإرخاء توتر العضلات، ومئة غيرها من الأمراض الَّتِي يصاب بِهَا الكثير من الأبرياء هَذِهِ الأيام والَّتِي يمكن اكتشافها من الجولة الأولى من الأسئلة. إن كُنْت تستخدم العقاقير أو كُنْت تحت تأثير الأدوية يمكن أن تعطِّل الاختبار، لكنك لم تهزم الجهاز في هَذِهِ الحالة. فوضعك سيُلاحَظ وستخضع للتدقيق.

صُمِمَت جميع أنواع المنوِّمات وتقنيات التنويم الذاتي للتغلُّب على البوليغراف، وربما يكون الشيء الوحيد الَّذِي يعمل أحياناً هو البوح للمُحَقَق معه -وهو في ذروة التنويم- بالعبارة البسيطة "لن تخون نفسك عند الإجابة على أي سؤال". ولسوء الحظ لمعظم من يجري معهم التحقيق، هَذِهِ الحيلة مثل معظم ما يُستخدم في التنويم، تؤتي أُكُلها في المختبر والظروف الافتراضية، حَيْثُ يعرف المُحَقَقُ معه أنه يلعب لعبةً، لكن ليس في مواقف حقيقية أو خطيرة. كما أن المُحَقق معه الَّذِي يمتلكُ أسراراً حقيقيةً لحمايتها يكون عادةً مُعَقَّدَاً جداً من الناحية العقلية والعاطفية ممَّا يجعل تنويمه مغناطيسياً والبوح لَهُ بالعبارات المناسبة بعد تنويمه أمراً صعباً ومحفوفاً بالمخاطر.

من أجل ماذا يُستخدَمُ البوليغراف؟

الأمن الشخصي:

تَجَسُس الدول على بعضها حقيقة توثِّقُها وسائل الإعلام يومياً، وبعض الجواسيس يكونون من المسؤولين في دولة ما تتمكن دولة أخرى من تجنيدهم، وواحدة من مهام مكافحة الاسْتِخْبَارَات هي كشف هَذِهِ الاختراقات واستغلالها كسلاح ضد أصحابها. ومن هُنَا يأتي "الأمن الشخصي"، وإعادة التحقيق مع الموظفين، والبوليغراف.

بعد أسبوع أو نحوها من تهديد كبير الدبلوماسيين الأمريكيين جورج شولتز الشهير بالاستقالة كي لا يخضع للبوليغراف، كتبت الدبلوماسية الوطنية السابقة جين كيركباتريك في عمودها المُرَخَّص في إحدى الصحف: "استخدام الحكومة الروتيني والواسع للبوليغراف ينتهك بعضاً من الجوانب الأساسية لديمقراطيتنا الوطنية. هَذَا الاستخدام يتطلب أن يُثْبِتَ الموظفون الحكوميون أنهم أبرياء من الآثام، ويتطلب السماح للمسؤولين بالتدخل حَتَّى عن غير وعي في حيِّز المشاعر وهو ما تدَّعي الحكومات الشمولية فقط حقها في دخوله، أي أنها تتطلب من موظفي الحكومة التخلي عن الحقوق الأساسية للمواطنين الأمريكيين كشرطٍ للتوظيف".

ما تقوله "كيركباتريك" صحيح إلى حدٍّ بعيد، فالبوليغراف مثلُ كُلِّ التحقيقات ينتهك خصوصية المُحَقق معه، أما إن كَانَ يصل إلى حد انتهاك "حقوقه الأساسية" فهَذِهِ قضية لَهَا جوانب عديدة. معظم ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات يُبغِضون الخضوع لاختبار البوليغراف كما يُبغِضُه غيرهم، إلا أنهم يعتقدون أن الخضوع للتحقيق الشامل هو أحد الأشياء الَّتِي يوقِّعُ عليها أي ضابط عندما يتولى عمله، وخصوصاً أولئك الَّذِينَ يتولُّون أعمالاً خَطِرة، ويسوَّغ هَذَا خضوع جميع زملائهم للتحريات الشاملة ما أمكن.

فهَذِهِ التحقيقات تحميهم كما تحمي بلادهم. لذا يخضعون للتحقيق ويقبلون بالبوليغراف، فهم لا يؤمنون بوجود طبقة نخبة فوق طبقة مُعَيَّنَة أو أشخاص فوق الجميع، فهَذَا يماثل التقليد المُشَرِّف لقائد السرية الَّذِي يأكل مع جنوده ويتقدّم الصفوف عندما يلتقي الجمعان.

فإذاً إن تطلَّبَ الأمرُ خضوعَ أي شخص في وزارة الخارجية لاختبار البوليغراف، فإن على وزير الخارجية (في هَذِهِ الحالة جندي أمريكي سابق في مشاة البحرية) أن يكون أول من يُقبِلُ على الاختبار.

وبالنسبة لخصوصية كيركباتريك الثمينة، فصدِّقني لدى ضابط الأمن ما يكفي من الأعباء والمشكلات الحقيقية، ولن يضيِّع وقته على حساسياتها الضيقة الكئيبة وورعها البارد. كم مرة تَعَرَضتَ للإذلال علناً، ناهيك عن الابتزاز من طبيبك وجامع قمامتك وطبيبك النفسي، وموظَّف البنك المسؤول عن حسابك؟ ألم يحدث هَذَا مراراً؟ صدقني، أنت آمَن مع ضابط الأمن المُرهَق ومشغِّل البوليغراف.

فرز المتقدِّمين:

عندما أرغب بزرع جاسوسٍ في حكومة بلد آخر، فواحدةٌ من الأعمال الَّتِي أقوم بِهَا هي تدريب عميل وتزويده بالوثائق للتقدم إلى وظيفة في تِلْكَ الحكومة. وعندما أريد أن أمنع دولة أخرى من تطبيق هَذِهِ الحيلة علي، أُلقي نظرة على كافة طلبات العمل المقدمة للعمل في حكومتي، وحينما أجد وظائفَ يمكن من خلالها الوصول إلى الأسرار، أُمَحِّصُ المتقدِّمين جيداً، وواحدة من أدوات التمحيص هي البوليغراف، والمتقدِّمون ليسوا مُجبرين على الخضوع لاختبار البوليغراف، إذ بإمكان الرافضين للخضوع لِهَذَا الاختبار البحث عن وظيفةٍ أخرى في مكان آخر.

في الولايات المتحدة يعمل البوليغراف جيداً كجهاز تمحيص وقائي للشباب الَّذِينَ يدخلون في الحكومة للمرة الأولى، الأمريكيون من النساء والرجال الَّذِينَ يتخرَّجون من المدارس الثانوية أو الكليات لديهم إحساس مرهف بالصدق والكذب، وإحساس قوي بالاعتزاز، والاحترام لأجهزة من قبيل البوليغراف، ونحن نسمِّيهم المتفاعلون الجيدون. عندما يكون لدينا متفاعلون رديؤون، فإننا نحقق، وفي بعض الأحيان نحصل على حالة جديرة باهتمام مكافحة الاسْتِخْبَارَات، فتكون فرصة لنا للاشتباك مع عدو حقيقي وبالتالي فنحن لا نضيِّع وقتنا هباءً.

دعمُ الحالةِ:

تبدو العديد من تحقيقات مكافحة الاسْتِخْبَارَات مزيجاً معقداً من الأدلة الَّتِي تكون في حالة فوضى يصعب معها تمييز الغث من السمين منها. في إحدى المرات على سبيل المثال، وجدنا الكي جي بي تستخدم علماً إسرائيلياً للخداع، فتظاهرت بتمثيل جهاز إسرائيلي لتجنيد مهاجرين يهود يمكنهم الوصول إلى أسرار الحلفاء. في البداية طلبوا من العُمَلَاء المُجَنَّدين تزويدهم بمعلوماتٍ غير مؤذية عن مجرمي الحَرْب النازيين، ثُمَّ ابتزُّوهم لتقديم معلومات عَسكَرِيَّة عن الحلفاء.

عددٌ كبيرٌ من اللاجئين اليهود كانوا قد وصلوا إلى بريطانيا وفَرَنسَا والولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلاندا حَيْثُ شاركوا بالقتال ضد النازية، وبعد الحَرْب عمل العديد منهم محققين في جرائم الحَرْب. إذ كَانَت قائمة الأشخاص الَّذِينَ عملوا لصالح الكي جي بي -تحت رايتها المزيفة في البداية- كبيرةً، وقدّموا معلوماتٍ وافرةً عما كَانَت الكي جي بي تفعله.

في موقف مثل هَذَا يمكن أن يكون البوليغراف مفيداً، فمعظم المشتبهين تكون ضمائرهم نقيةً تماماً ويتطوّعون سريعاً للخضوع لاختبار البوليغراف. والبعض منهم يعرفون ويُفاجَئون بأنهم خضعوا بالفعل للتقييم ("الفحص") من عُمَلَاء العدو دون أن يُدرِكوا هَذَا. والقلَّة القليلة ممن جنَّدهم الأعداء تعلق في فتحات غربالك، حَيْثُ يمكنك تجنيدهم وتحويلهم إلى عُمَلَاء مزدوجين.

وللمصادفة تَحْدُثُ عادةً نتائجُ غيرَ متوقعةٍ من برامج البوليغراف مثل هَذَا، فربما تميط اللثام عن إرهابي أو تاجر مخدّرات لم يُشْتَبَه بِهِ من قبل. وربما تكتشف تشيكياً في حين أنك تبحث عن هنغاري. أو ربما تكتشف أعراض مرض قلبي لم يُشَخَّص من قبل لدى شخص تحقق معه ثُمَّ تسعد بإرساله إلى الطبيب.

التقييم الشخصي:

مهمَّتُك الأهم عند التعامل مع العُملاء أو العُمَلَاء المزدوجين هي القدرة على التنبؤ بسلوكهم، وواحدة من أدواتك في هَذَا هي البوليغراف، إذ يمكنك إجراء اختبارات القياس النفسي عليه من قبيل ويشلر بيلفيو،[1] أو يمكنك إجراء تحليل خط اليد، أو يمكنك التحقيق في خلفيته من الألف إلى الياء؛ لكن من أجل الفهم المباشر للطريقة الَّتِي يعمل فيها عقله، لا شيء يمكن أن يضاهي البوليغراف، ليس ككاشفٍ للكذب بل كمؤشّرٍ إلى الطريقة الَّتِي يتصرَّفُ فيها العميل ضمن بيئته. إذ أن فهم طريقته وأسبابه للكذب أهم من معرفة إن كَانَ يكذب. يجِبُ أن تعرف من الآن أن كُلَّ إنسان يكذب، كيف ولماذا هو ما يهم.

- هل تؤمن بالله؟
- هل فهِمَ ماو[2] لينين؟
- هل يلعب الهنغاريون كرة القدم أفضل من الإيطاليين؟
- هل تثق بزوجتك؟
- هل يمتع بوذا بقوى سحرية في ضريحه؟

---

[1] مقياس (WAIS) Wechsler Adult Intelligence Scale هو اختبار ذكاء مصمم لقياس الذكاء والقدرة المعرفية لدى البالغين والمراهقين الأكبر سنًا. تَمَّ نشر WAIS (النموذج الأول) الأصلي في فبراير 1955 بواسطة David Wechsler، كمراجعة لمقياس Wechsler-Bellevue Intelligence Scale ، الَّذِي صدر في عام 1939. وهو حاليًا في نسخته الرابعة (WAIS-IV) الَّتِي تَمَّ إصدارها في عام 2008 من قبل Pearson، وهو اختبار الذكاء الأكثر استخدامًا لِكُلٍّ من البالغين والمراهقين الأكبر سنًا في العالم.

[2] ماو تسي تونج: يُعرَف أيضاً بالزعيم ماو، كَانَ قائداً وزعيماً شيوعياً ثورياً، أسس حزب الشعب لجمهوري الصيني، الَّذِي حكم الصين اعتبارا من سنة 1949 وحَتَّى وفاته سنة 1976. وكَانَ بين الحزب الشيوعي الصيني ونظيره السُّوفيَاتِيّ الَّذِي أسسه لينين خلافٌ عميقٌ.

هَذِهِ الأسئلة لا تجعل من المُحَقَق معه كاذباً أو صادقاً، بل تعطيك نافذة إلى عقله، فعندما تتعرف إلى الشخص الَّذِي تحقق معه يمكنك أن تُجَهِّزَ مجموعةً كاملةً من الأسئلة، لكن انتبه لا تستهلك كُلّ ما لديه من الأدرينالين.

تجنيدُ واختبارُ العُمَلَاءِ المزدوجين:

عندما تقلِبُ أو تحوِّلُ جاسوساً كشفته إلى عميل مزدوج فمهمتك الأولى هي إحكام السيطرة عليه وإبقاؤه هناك. ومهمتك الثانية هي تقييمه المستمر، بِحَيْثُ تستطيع التنبؤ بتصرفاته في المواقف المحتملة، وتوقُّعِ موقفه في الحالات الَّتِي لم ترجح حصولها من قبل. وبالاستفادة مِمَّا قلناه سابقاً في هَذَا الفصل، يمكنك أن ترى أن البوليغراف واحد من أكثر أدواتك نفعاً لهاتين المهمتين.

عند إدارة عميل من نوع "طعم" فالسيطرة -كما تأمل- ليست مشكلة. رَجُلُكَ أو امرأتك سيكون ملكك منذ البداية، لكن تذكَّر استخدمْ الضغط العاطفي على أي عميل مزدوج، حَتَّى ولو كَانَ موالياً، واستخدم البوليغراف لاختباره ولتشخيص مُشكِلاتِهِ الشخصية، وراقب مشكلاته المالية والجنسية والنفسية.

عند كُلّ عملائك المزدوجين (وكُلّ العُمَلَاء أيضاً) استخدم البوليغراف كَمُساعِدٍ فقط لأدواتك الأخرى، ولا تنخدع باختبار "كشف الكذب" لتقييم عميلك.

كيفَ يُساءُ استخدامُ البوليغراف؟

يُساء استخدام البوليغراف ببساطة عندما يُستخدم ككاشف كذب، ويدل على إساءة استخدامه عبارتان تسمعهما من شفاه من يقومون بالأعمال السرية: "لقد تجاوز اختبار البوليغراف بنجاح" أو "فشل في البوليغراف"، لقد ألغى ضباط الحالة هؤلاء مسؤوليتهم، وأوكلوا مهمة الأمن إلى التقنيين. واستخدموا البوليغراف كعكاز ووسيلة لتجنُّب التعامل مع عميلهم، يَجِبُ أن يستقيلوا، أو ينتحروا، أو يذهبوا إلى دير وينقطعوا للعبادة، أو يتحوَلوا إلى الصحافة.

البطالة في صفوف مشغلي البوليغراف ليست مُتفشّيَة، هُنَالِكَ العديد من الأعمال الَّتِي يمكنهم القيام بِهَا عدا تشغيل البوليغراف، والنتيجة بحر من مشغلي البوليغراف قليلي التدريب والخبرة، والنتائج الأخرى هي الأخطاء وحالات من الفشل غير مُكتَشَفَة. والفَرَضيَّة الَّتِي تتصورها الحكومة وتتمثل في إجراء اختبار البوليغراف على جميع الأفراد الصالحين للتعامل مع المواد السرية هي فرضية للفوضى. لا يمكن إنجاز العمل بالشكل المناسب بالعدد المتاح من مشغّلي البوليغراف. كمية التضليل والمعلومات الخطيرة الَّتِي قد تؤدي إليها هَذِهِ العملية الخطيرة كافية لإبطال مفعول كُلّ الأعمال الأمنيّة الأخرى الَّتِي يمكن أن تقوم بِهَا الحكومة الأمرِيكيَّة.

لن يزيد عدد مُشَغّلِي البوليغراف الأكفَّاء المطلوبين لأعمال مكافحة الاسْتِخْبَارَات -حَيْثُ كَانَ ثمة عمل حقيقي- عن الحاجة، لأن المشغِّل الكفوء سيُكَلَّفُ بالتمحيص وإعادة التحقيق وتدريب المشغِّلين الجدد.

إنه طرح كئيب، لكنني أقول لضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِينَ سيستخدمون أجهزة البوليغراف ومشغّليهم: لإتمام عملك، ابحث عن أفضل مُشغِّلي البوليغراف، وتمسَّك بهم واستَفِد منهم بحكمة.

(7)

كيفَ تُجري المراقبةَ البشريَّةَ؟

المراقبة هي متابعة ورصد شخص محدد دون أن يلاحظ، وهو من صميم عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، فكثيرٌ ما تلجأ إليه، لذا أوصي بألَّا يُرقَّى أي ضابط مكافحة استخبارات مالم يتولَّى مهام مراقبة بنفسه في الشوارع، وما لم يَقُد بنفسه فريق مراقبة. لأن قائد مكافحة الاسْتِخْبَارَات سيعرِّضُ نفسه للشلل وسيُضعِف جهازه عندما يستهين بالمراقبة أو يفشل بالاشتراك فيها.

المراقبةُ: هي التطفُّل على شؤون الآخرين. أما إن كَانَت تنتهك حقوقهم المدنية، فسيكون لديك عندئذٍ مشكلة من نوع آخر؛ وهي أخلاق ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، والَّتي لا تختلف عن مشكلة الجندي في القتال، إذ يحتِّم عليه الواجب انتهاك الوصية السادسة من وصايا موسى (عليه السلام) الَّتي تمنع القتل. ولا يمكنك التهرُّب من المشكلة الأخلاقية حَتَّى بين ضباط التحليل، فحَتَّى عندما تحلل المعلومات وأنت خارج الشوارع، ستعتمد على نتائج المراقبة بقدر ما تعتمد على غيرها من تقنيات مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّتي تتطفل على أنشطة وخصوصيات مواطنين عاديين.

الظروفُ المحلية:

أساسيات المراقبة هي نفسها في كُلّ مكان، لكن الظروف الواقعيَّة تختلف من منطقة لأخرى ومن مكان لمكان. أما كيف تنظِّم وتديرُ فرقَ المراقبة لديك فهَذَا سيعتمد على الظروف التالية:

في الوطن أم خارجه؟

تكون مهمة المراقبة أسهل بالنسبة لأجهزة فرض القانون الَّتِي تعمل على أرضها مقارنةً بوحدةِ مكافحةِ استخبارات تعمل تحت غطاء ما على تراب دولة أجنبية. فإنشاء غطاء في الوطن أسهل منه على التراب الأجنبي، وتسوية وإغلاق المشكلات العرَضيَّة أسهل، ويمكن أن يكون عدد الأعداء الَّذِينَ يعملون ضدك أقل، والمجموعة الَّتِي تجنِّد منها عُمَلَاء المراقبة أسهل من حَيْثُ التعامل (فالتحقيق معها واستيضاحها ممكن) لأن أفرادها من مواطنيك. ومن ناحية ثانية، في مدينة مثل لندن، أو نيويورك أو باريس أو ميونيخ أو ميلانو وبسبب كثافة السكان وحرية حركة المواطنين بسبب الديمقراطية، يشعر الجنود المحليون بالإحباط حيال المساحات الشاسعة الَّتِي ينبغي عليهم أن يغطوها.

على التراب الأجنبي يكون عملك عادةً -رغم أنه مُعَقَّد- أصغر من حَيْثُ الحجم، لأن أهداف مكافحة الاسْتِخْبَارَات أقل. وعلى خلاف الوطن فأنت لا تتحمل مسؤولية التحقيق في كُلّ مؤامرة تدور حولك، بل إن أهدافك محدودة بحجم وشكل برنامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات، ومحدودةً جزئياً بحجم آلية المراقبة الَّتِي يمكنك تشغيلها إضافةً إلى مَهمَّتِك المُكَلَّف بِهَا.

أعضاءُ فريقٍ أم عُمَلَاءُ؟

سواء في الوطن أم الخارج، ربما يتوجَّب عليك استخدام نوعين مختلفين من الأشخاص في المراقبة. تتطلب بعض الأعمال الخاصة استخدام أفراد فريقك شخصياً، بما في ذَلِكَ أنت. وهَذَا مُكلِف، ويتم على حساب عمل آخر من أعمال وحدتك. كما أنه غير كافٍ، لأن رجالك ونساءك الَّذِينَ قضوا معظم وقتهم يعملون في أعمال أخرى لا نتوقع منهم حيازة المعرفة والتدريب والتآلف الَّذِي يمتلكه أفراد فريق ليس لديهم عمل آخر سوى هَذَا العمل.

لكن في بعض الأحيان ثمة أعمال مراقبة لا تستطيع معها الوثوق بأناس لم يؤدُّوا القَسَمَ الرسمِيَّ لحكومتك. فمن الممتع قيادة فريق من الزملاء للقيام بأعمال المراقبة، كأنها لعبة مع

الأصدقاء، وهي أكثرُ متعةً من -فلنقُل- حفلة ألغاز أو منافسة بأوراق اللعب. إذ لن تقلق من الاختراقات، لكن يتوجب عليك القلق من الحوادث، لأنك تستخدم هواة في مجال المراقبة.

يكونُ استخدام فريق من العُمَلَاء أقلَّ تكلفةً وأكثرَ كفاءةً في المراقبة التقليدية. أعضاء الفريق بمن فيهم رئيسهم المباشر، لن يكونوا من الضباط ولن يطَّلعوا على برنامجك ولن يعرفوه. بل سيكونون عُمَلَاء مُجنَّدين ومُدرَّبين على متابعة ورصد أشخاص مُعيَّنين دون ملاحظتهم، أي أنهم سيكونون عمالاً مأجورين، مثل طاقم النجارين أو الكهربائيين أو البنّائين الَّذِينَ يستأجرهم متعهدو البناء ويضعونهم تحت إشراف مراقب العمال، هؤلاء لن يروا مُخَطَط المهندس المعماري للبيت الَّذِي يبنونه باستثناء الأجزاء الَّتِي يحتاجون أن يروها من العمل. لكن رجاءً تذكَّر أنهم جنود الجبهة الأمامية الَّذِينَ تنال الميداليات بسببهم.

وعادةً ما يكون المشرف على الفريق ضابطاً من وحدتك، لا تشوب ملفه الأمني شائبة وعلى اطلاع ببرنامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل عليه. وسيعمل عن كثب مع قائد الفريق وسيكون صلة الوصل بين الفريق ووحدة مكافحة الاسْتِخْبَارَات، وربما يكون معروفاً لأفراد الفريق، فإن كَانَ ولا بد فلتكن هَذِهِ المعرفة باسم مستعار.

موهبة أم تدريب؟

مثلما يكون البعض أسرع من البعض الآخر في تعلُّم لغة ما، يكون لدى البعض موهبة أكبر في مراقبة وتعقُّب الأهداف. وعندما تجنّد -أو يجنِّد رئيس الفريق- فريق المراقبة، يكون عملك مثل مُخرِجٍ يُجرِي اختبارات الأداء للممثلين من أجل مسرحية.

من الجلي أن الموهبة هي أولُ ما تبحث عنه، لكن تذكَّر أن القدرة على التَّدرُّب والتعلُّم هي أهمُّ موهبة. وتخلّص من الفكرة الَّتِي تقدّمها بعض الأفلام والقصص البوليسية عن ذاك الشخص الَّذِي يعتمدُ على نفسه في مراقبة أي شخص وبوسعه تعقُّبِ أي شخص لأيام دون أن يكتشفه أحد. يمكن أن تجد بعضاً من هؤلاء الفنانين –مع أني لم أر مثلهم حسب

خبرتي- لكنهم ليسوا مُستَثمرين بما فيه الكفاية، لأن المراقبة لعبةٌ يلعبها فريق، وفي الفريق يكون للتدريب والخبرة ضمن فريق العمل أهميةٌ بالغةٌ.

المراقبة بمعظمها هي الجمع ما بين المعرفة والإحساس المشترك، مُعَزَّزاً بالتدريب والممارسة، والتدريب والممارسة يؤديان إلى اكتساب تجارب كبيرة لدرجة الملل. وفيما يلي تلميحات عن كيفية إدارة فريق مراقبة أو مجموعة تعقب.

الغطاء:

الغطاءُ الَّذِي يعملُ تحته فريق المراقبة يَجِبُ أن يكون قابلاً للفصل. وهَذَا يعني أنه عندما يتعرّضُ أحدُ أفراد الفريق للخطر، يتعيَّن على الأفراد الآخرين الانسلال سريعاً مثل أفعى تغيِّر جلدها، دون أن يتركوا أي آثار خلفهم يمكن من خلالها اقتفاء أثرهم.

وفي بعض الأحيان يمكن أن يكون ما يُترَك "داعماً" للغطاء، مكتباً مُشتَرِكاً رسمياً في نوع آخر من التحقيق مثلاً، ويمكنه بالتالي ببساطة رفض التعليق حول العنصر المُعرَّض للخطر. وفي بعض الأحيان يمكن أن يكون مكتباً خالياً، أو مطعماً صغيراً أو باراً أو دكاناً باسمٍ وعنوانٍ مطبوع على بطاقات عمل، من قبيل: "لجنة أبحاث التَّلُّوث الجوي". في البيئة المعادية يَجِبُ أن يكون الغطاء أعمق؛ خدمة توصيل رسائل، شركة سيارات أجرة، وكالة سفر تقدِّم بالفعل الخدمات الَّتِي تعلن عنها ويكون جزءٌ فقطُ من موظفيها أفراداً في الفريق، والباقون غير مدركين بأن عملهم مجرد غطاء.

كُلّ غطاء ينبغي أن يكون فريداً من نوعه، ولا يمكن تقديم وصفات جاهزة لإنشاء غطاء لفريق المراقبة، الإبداع والارتجال يبني غطاءً في البداية، والانتباه إلى الأمن والمهنية يعززه، وإن لم تنشئ غطاءً كافياً لفريق مراقبتك، فأي مجهود لتجنيد وتدريب أفراده ناهيك عن الاستفادة منهم سيضيعُ هباءً.

التقسيم:

ما هو حجم المعلومات الَّذِي يحتاج الضباط معرفته لأداء عملهم على أكمل وجه؟

أفضل من يعمل بقاعدة المعرفة بقدر الحاجة -القاعدة الشهيرة في الأمن- هم الروبوتات على خطوط الإنتاج. حَيْثُ لا تمتلك هَذِهِ الروبوتات الفضول الإنساني ولا حاجة لهم بالشعور بأن عملهم جديرٌ بالاهتمام، ولا بواعث بشرية للقلق، ولا طموحات بشرية. لكن ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات ليسوا رجالاً آليين، كي يتدرّبوا ويتعلّموا الانضباط ويُشجَّعوا على ألا يتعلّموا أكثر مِمَّا يحتاجون معرفته للتعامل مع المهام الَّتِي يتولّونها، بل إنهم يتدرّبون ويتعلّمون الانضباط، ويُشجَّعون على حب الفضول والاستطلاع وعلى الارتياب والإبداع، فمن السهل صياغة مبدأ المعرفة على قدر الحاجة لكن من الصعب فرضه؛ وخصوصاً على عُمَلَاء المراقبة.

إن استرقت السمعَ لفريق المراقبة أثناء استراحة لهم يحتسون فيها الجِعَةَ مُستَرخين بين الأشجار في الشارع، فسيكون غالبُ ما تسمعه تكهنات حول الغرض من عملهم الحالي، وحولَ الدافع لَهُ:

- "لِمَ نتعقّب هَذَا الرجل؟ كيف وصلوا إليه؟"
- "التَّنَصُّت على المكالمات، هَذَا واضح"، يقول أحدهم، "ونحن نتوقَّع أن نضبطه يشحن صندوقاً ميتاً".
- "لا أبداً" يقول آخر، "لقد وكّلوا عميلاً مزدوجاً بتولي أمره، ذاك الرجل المُسِن الَّذِي يحمل جريدة تحت ذراعه، لقد قابله بعد ظهيرة اليوم".

عملاً بقاعدة العلم على قدر الحاجة لا ينبغي للفريق أن يتحدَّث بِهَذِهِ الطريقة، بل يَجِبُ استخدام بعض التورية، وفي بعض الأحيان يتعيّن عليك خداعُ فريقِ مراقبتك. غالباً ما يكون السبب في تعيين المراقبة هو سرٌّ حسَّاسٌ، مثل معلومات من اختراقٍ أو عميلٍ مزدوجٍ أو مُنشَقٍّ غير مُعلَن.

أنت لا تريد لِهَذِهِ المعلومات أن تكون بحوزة أحد -مثل عضو في فريق مراقبة- إذ يمكن أن يُعتَقَل أو يُختَطَف ويُستجوب. لذا يتعيَّن عليك في بعض الأحيان تقديم تلميح خاطئ لفريقك حول السبب وراء تكليفهم بِهَذَا العمل. فإن جاء السبب من جهاز تنصت، فابتكر

طريقةً لجعل الفريق يعتقد أن السبب هو ما نقله أحد المُنشقّين. قُلْ: "تذكَّرَ مصدرنا للتو شخصاً يعيش في هَذَا العنوان لكنه لا يعرف ماذا يعمل كمصدر للرزق، انتبهوا فمصدرنا يقول إنه حذر حيال المراقبة".

تضليل جماعتك عملٌ شاقٌ، خصوصاً في الأعمال الخطيرة، لكنه ضروري في بعض الأحيان. واسي نفسك بأنك بِهَذَا تحمي أفراد فريقك بقدر ما تحمي نفسك، فما لا يعرفونه لا يمكن استخدامه ضدهم أو ضدك.

الاتصالات:

الكلمة العملية في "فريق الاستطلاع" هي كلمة فريق. التنسيق ضروري، والتنسيق يعني الاتصالات. كيف يتواصل أفراد المراقبة مع الأفراد الآخرين، وكيف يسيطر قائد الفريق على الفريق؟

مخفر القيادة:

أثناء المراقبة، يكون قائد الفريق مثل قائد فصيلة المشاة في القتال، ينبغي أن يكون لديه كافة المعلومات المتوفرة في الحال، ويَجِبُ أن يتَّخذ قرارات فوريةً، ويَجِبُ أن تصل قراراته ويستوعبها الفريق على الفور. لذا ينبغي أن يتمَّتع مقر القيادة بالقدرة على المراقبة المتواصلة. وهَذَا ليس سهلاً على الدوام، فعلى سبيل المثال: لدينا هدف مكوَّن من شخصين يذهب كُلّ منهم في اتجاه فيركب جزء من فريق المراقبة قارباً لمراقبة الشخص الأول فيخرج عن نطاق التغطية اللاسلكية أو يختفي في مصعد لمبنى شاهق الارتفاع، بينما يجد القسم الثاني من الفريق نفسه وقد ركن سيارته أمام مقهى.

اختيار المكان الَّذِي يتركز فيه مقر القيادة يكون دوماً قائماً في جزء منه على التخمين (في بيت مؤمَّن، في سيارة أجرة، في صالون استقبال فندق، في سيارة توصيل طلبات من نوع فان، في طائرة مروحية؟) يَجِبُ أن توازِنَ بين ما هو متاح لديك (مروحية؟ سيارات

فان؟ ... ليس اليوم، نعتذر عن المراقبة) وأين نتوقع أن يذهب هدفك (إلى احتساء البيرة في زورق؟ إلى فندق الريتز لتناول شاي في فترة العصر؟)

نقاط الحراسة:

إن مارست اصطياد الغربان في الغابات الأمرِيكيَّة فربما تكون قد لاحظت أن كُلّ سرب من الغربان لديه حارس يتخذ من شجرة مخفراً لَهُ حَيْثُ يستطيع مشاهدة الأرض أسفل منه ويرسل منه الإشارات إلى الغربان الأخرى في السرب، فإن استطعت تحديد الحارس وإطلاق النار عليه أولاً لن تطير بقية الغربان بعيداً بل ستبقى عُرضَةً لطلقات بندقيتك، أما إن فقدت الحارس، فسيحذّر البقية ويتمكَّنون من الهرب. وكُلّ فريق مراقبة يَجِبُ أن يكون لديه حراس متمركزين في مخافر خلال كُلّ عملية مراقبة، وبعيداً عن متناول أي بندقية.

واحدة من سكرتيراتي في إحدى المدن اعتادت على التذمُّر عندما أُبعِدُها عن مكتبها وأكلِّفها بالذهاب إلى هاتف عمومي بجيب ممتلئ بالعملات المعدنية أو الجلوس على مقعد في الحديقة مع جهاز لا سلكي مُخبَّئ في حقيبة يدها. وعملها المؤقت هو نقطة حراسة، تراقب من أجل المراقبة المضادة والرد على الرسائل بين الأشخاص الَّذِينَ يقومون بالمراقبة ومقر قيادة رئيس الفريق، لقد كَرِهَت هَذِهِ المهمة. وسكرتيرة أخرى كَانَت تتوسَّل إلي لتكليفها بمثل هَذَا العمل، لأنها أحبَّت العمل بعيداً عن المكتب (الأولى ما زالت سكرتيرة بينما أصبحت الثانية ضابطة رفيعة في مكافحة الاسْتِخْبَارَات).

في بعض الأحيان يمكن أن يكون قائد الفريق هو نقطة الحراسة لفريقه، لكن في حالات المراقبة الواسعة، وخصوصاً عندما يكون هُنَالِكَ أكثر من هدف ويمكن للأهداف أن تذهب في اتجاهات مختلفة، يضطر عندها إلى استخدام نقاط حراسة تابعة.

الهاتف:

استخدامُ الهواتف العمومية للاتصال بمقر القيادة طريقةٌ واضحةٌ للتواصل إن لم يكن لديك ما تقلق بشأنه حول أمن الهاتف، لكن في معظم أجزاء العالم هُنَالِكَ ما تقلق بشأنه حول أمن الهاتف العمومي، مقر القيادة الَّذِي يُتَوَقَّع أن يخضع للمراقبة يُستَحسَن ألا تُستَخدَم هواتفه للاتصالات، وخصوصاً هَذِهِ الأيام حَيْثُ تَمُرُّ الكثير من الاتصالات الهاتفية فعلياً عبر الميكرويف أو الراديو أحادي الإشارة.

الراديو قصير المدى:

قدَّمت لنا الحَرْب العالمية الثانية الهاتف اللاسلكي، الَّذِي يمكنه الإرسالُ والاستقبالُ لمسافات بعيدة تصلُ إلى عدة أميال لكن لا يمكن إخفاؤه في كيس أو حقيبة يد. ولاحقاً صُنِعَت أنصاف النواقل وأجريت التحسينات المختلفة على الهوائيات فكَانَت أجهزة الراديو الحديثة الَّتِي يمكن إخفائها في محفظة أو سماعة أذن، ثُمَّ جاءت البالونات المطلية بالمعدن والَّتِي يمكن إطلاقها فوق مدينة عندما يكون اتجاه الرياح مواتياً لتعكس إرسال الصوت عالي التردد من جهة في البلدة إلى جهة ثانية. وبعدها جاءت الأقمار الصناعية العاكسة مِمَّا زاد مدى أجهزة الراديو الصغيرة إلى أي مسافة يريدها الجاسوس.

لكن لم يُصَمم الراديو بِحَيْثُ ينتقي مُستَقبِلاً بعينه ويتجنَّبُ الاعتراض (الأجهزة الَّتِي اقتربت في تصميمها من هَذَا الهدف فاحشة الغلاء، لدرجة أنها تجاوز متوسط الميزانية الَّتِي تخصَّصُ عادةً لفريق المراقبة بأكمله). وبالتالي فالمشكلة الأمنية في أجهزة الراديو هي نفسها المشكلات الموجودة في الهواتف لكن على نطاقٍ أكبر.

محطات الاسْتِخْبَارَات، وخصوصاً المُعادية منها في مدننا الرئيسية، تستهلكُ الكثيرَ من المال والوقت لمراقبة ترددات الشرطة وكُلّ الترددات الَّتِي تحمل مراسلات المراقبة. كن حذراً من هَذَا عندما تضع لاحقاً سكرتيراً سوفياتياً أو تشيكياً تحت المراقبة.

يستغرب المرء كيف تمكَّنَت فرقُ المراقبة التابعة لمكافحة الاسْتِخْبَارَات في الإمبراطورية الرومانية في ولاية فلسطين في العهد الروماني قبل اختراع الهواتف وأجهزة الراديو بتسعة عشر قرناً من أداء واجبها على أكمل وجه ضد تمرد باراباس[1] وجواسيس الإمبراطورية البارثية[2]. لا بد وأنهم قد اعتمدوا بِشَكلٍ كبيرٍ على شارات اليد.

الشاراتُ اليدويةُ:

واحدة من الأسباب العديدة الَّتِي جعلت المحققين الفيدراليين الَّذِينَ يرتدون ملابس مدنيَّة ينالون شهرةَ ارتداء القبَّعات هي أن إمالة القبعة يمكن أن تشكّل إشارة؛ الإمالة إلى اليسار: "ابقَ بعيداً عني، فأنا أعمل متخفياً بغطاء"، الإمالة يميناً: "ائتِ بالتعزيزات"، القبعة تحت الذراع: "قابلني في الموعد" وهَكَذَا. كُلّ مراقبين أو ثلاثة أو أكثر يعملون معاً يَجِبُ أن يكون لديهم نظام غير واضح لتناقل الإشارات فيما بينهم: تحرك أمام الهدف، ارجع للوراء، تحقق من النقطة الهاتفية، أنه وَعُدْ إلى القاعدة، وعلى هَذَا المنوال.

يمكن استخدام كافة أنواع الإشارات، وأكثرها وضوحاً هو أفضلها، طالما أنها طبيعية؛ المناديل لمسح الأنف أو مسح الحاجب، إشعال الغليون أو توسيعه أو تنظيفه بمنظّف الغليون، مسح النظارات، لف ورق الجرائد أو حملها مطوية، حقائب نسائية للمُراقِبات يحملنها من الحزام أو تحت الذراع. كُلّ فريق يعمل وفقاً لأفكاره للشارات اليدوية بما يناسب المهمة الموكلة إليه، ثُمَّ يتمرن ويجري التجارب، يَجِبُ أن يقوم بالكثير من الممارسة والكثير من التجارب. الإشارات اليدوية المُستخدَمَة تكون أكثر تعقيداً وأكثر عدداً من تِلْكَ الَّتِي يستخدمها مُمسِكُ الكرة لإرسال إشارة إلى رامي الكرة في كرة البيسبول الأمرِيكيَّة.

---

[1] **باراباس**، قاد تمرداً على السلطات الرومانية في نفس الوقت الَّذِي كَانَ فيه عيسى عليه السلام، وبعد أسره أطلق الحاكم الروماني بيلاطس البنطي سراحه ي عيد الفصح في أورشليم.

[2] الإمبراطورية البارائية، تُعرف أيضاً باسم الإمبراطورية الأرسكيدية، كَانَت قوة سياسية وثقافية فارس كبيرة في إيران القديمة من سنة 247 قبل الميلاد وحَتَّى 224 للميلاد.

المراقبة:

منذ عدة أسابيع في مدينة أمريكية، صدف وأن التجأت إلى كشك صحف هرباً من الريح وأشعلت غليوناً، وخلال وقوفي خلف الموجودين، لاحظت أن لديه ما يشبه السجل أمامه، وأنه يراقب مدخلاً لمحل في الشارع، الَّذِي كَانَ مدخلاً لمحل خردوات. وعندما يدخل أي شخص إلى المحل، يكتب صاحب الكشك سِجِلّاً: "#7 دخول 1417" وعندما خرج ذات الشخص، كَانَ السجل كالآتي: "#7 خروج 1428".

لقد دخلت ذات مرة إلى محله بنفسي لأشتري بعض الجوارب ولاحظت أن أسعار ملابس الرجال كَانَت مرتفعة فوق المعتاد وأن مقدار استثمار المحل يبدو صغيراً جداً. ولم أشترِ جورباً بالسعر المطروح، ولم أستغرب عندما قرأت في الصحف بعدها بأيام أن الشرطة داهمت محل الخردوات واعتقلت العاملين فيه بسبب اتجارهم بالمخدرات. كَانَ كشك الصحف "مراقبة" أو مراقبة "ساكنة" أو "ثابتة" بواجهة وهمية بالنسبة لمسوِّقي المخدرات. أما صاحب الكشك فكَانَ إما رجل شرطة بغطاء أو أنه على الأغلب رجل جنّدته الشرطة ودفعت لَهُ كي يراقب هدف التحقيق، ولو اشتُبه بالهدف على أنه صندوق حي أو أنه بيت آمن، فسيكون استخدام كشك الصحف لنفس الغاية.

في بعض الأحيان يَجِبُ أن تكون المراقبةُ شبهَ متنقِّلَة. بعض من زملائي من بلد آخر يتذكرون حالة جرت في مدينة أوروبية عمل فيها جهازا استخبارات متحالفان معاً لمواجهة جاسوس للعدو وإعادته من حَيْثُ أتى. علمْنَا أنه غادرَ البلدة ليقيم اجتماعاً مع جهاز استخبارات للعدو لكنه لم يعرف متى يعود. وكَانَت مهمَّتُنا هي مراقبة الحي الَّذِي يقطنه دون أن يلاحظ جيرانه أو السلطات المحلية، وتمكّنَّا من الاستفادة من منزل كبير يبعد عن البيت نصف ميل، ومن ثُمَّ أجرى عدد كبيرٌ من ضباط الأركان مراقبة متأنِّيَة، رجال ونساء فرادى وأزواجاً يمرون من أمام بيته على مدار الساعة وقد غيَّروا ثيابهم في كُلّ مرة. وفي اليوم الثالث من هَذَا العمل الَّذِي استغرق وقتاً طويلاً، رأته إحدى فتياتنا يدخل بيته حاملاً متاعه، وفي غضون ساعة كُنَّا قد جنَّدناه.

اللواصق:

يصعُب تتبع سيارة يقودها سائق محترفٌ وسط ازدحام المدينة في طريق مفتوح دون التعرض للشبهة. ربما كَانَت جماعة الحفاظ على البيئة هم من أوحوا لضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات بفكرة المراقبة التتبُعيَّة عبر اللواصق. حراس الأحراش الَّذِينَ يدرسون عادات الدببة الرمادية في الهجرة والحياة -وغيرها من الحيوانات المُراوِغَة- يستخدمون أجهزة إرسال مُصغَّرة تعمل بالبطاريات المُدمجة، حَيْثُ توضعُ هَذِهِ الأجهزة تحت جلود الحيوانات بعد حقنها بحقنة مُهدِّئة.

لا يمكن تهدئة سيارة، لكن يمكن وضع جهاز بث من نفس النوع ليلتصق بِهَا عبر مغناطيس دون أن يلحظ أحد، وعندها لن يحتاجَ فريقُ المراقبة المزوَّدَ بجهاز الاستقبال أن يلاحق الهدف، بل يمكن عادةً تتبع الهدف على الخريطة من المكتب أو في بيت آمن. الحيلة هي الاقتراب من السيارة لبضع ثوانٍ حَتَّى تضع اللاصقة أسفل السيارة.

أثناء الحَرْب الباردة، في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة، استخدمت أجهزة الاسْتِخْبَارَات اللواصق على نطاقٍ واسع للمراقبة، وبعض اللواصق أُلصِقت بالأجساد الدافئة، **كيف؟** حسناً فكِّر بحذائك، على سبيل المثال أرسلته للإصلاح في بودابيست، هل الكعب الجديد مجوَّف؟ هل عصا التزلج الَّتِي اشتريتها في براغ للتنزُّه تشعُّ عندما تضعها بجانب مقياس التردد؟ هل هُنَالِكَ زينة ظريفة مُلحَقَةٌ بمعطفك البولندي الجديد؟ ذاك المعطف الَّذِي اشتريته لتتملَّص من الشبهات في شوارع وارسو؟

المركبات:

الدراجات الهوائية والطائرات المروحية وألواح التزلج والدراجات البخارية والزوارق السريعة إضافة إلى السيارات العادية، كلها يمكن استخدامها في المراقبة (أردت دوماً استخدام منطاد لكنني لم أعرف كيف أحصل عليه)، الشيء المُشترك في مركبات المراقبة هو الراديو، والاتصالات اللاسلكية قصيرة المدى.

نادراً ما تكون مركبةٌ واحدةٌ كافيةً، لأنه عند مراقبة هدف يركب سيارة؛ من السهل عليه معرفة من يستخدم سيارةً لتعقُّبه، ومن السهل أيضاً أن يتملص من المراقبة؛ أسهل من المراقبة الراجلة لهدف يسير على قدميه. لذا -كما في المراقبة الراجلة- يَجِبُ أن يكون لديك مركبة مراقبة بديلة، بل تحتاج أسطولاً من المركبات. ومن الواضح أن كُلّ مركبة في أسطولك هَذَا يَجِبُ أن يبدو مظهرها مختلفاً عن الأخريات، فَيَجِبُ استبدال تويوتا على فترات متقطِّعة بسيارة من نوع فورد، مِمَّا سيفسح مجالاً لسيارة فولفو. (لتناسب منطقتك، استبدل النماذج الأكثر شيوعاً والأقل إثارة للشبهة المستخدمة هناك).

ويَجِبُ أن تكون إحدى المركبات هي مركبة القيادة، مخفر القيادة، مع اتصالات لاسلكية ليس مع سيارات الأسطول فقط، وإنما مع جميع المراقبين الراجلين المُشتَرِكين في هَذِهِ العملية، ومع مكتب المراقبة أيضاً. غالباً ستكون مركبة القيادة هي أيضاً شاحنة -هَذَا يعني: سيارة فان للتوصيل، أو شاحنة إصلاح تلفزيون، أو ما شابه- بِحَيْثُ يمكن إخفاء مكتب صغير فيها ويمكن تجهيزه لالتقاط الصور خُفيَةً. وفي هَذِهِ الأيام، تُنظَّمُ فرقُ المراقبة بِحَيْثُ تكون هَذِهِ المركبة في الوسط.

يمكن أن تكون الترتيبات لتغطية واستخراج الوثائق اللازمة لمركبات المراقبة من أصعب الأعمال اللوجستية الروتينية، فالمبادئ والمشكلات هي نفسها المشكلات الَّتِي تواجهها عند تركيب جهاز الدعم، الَّذِي تحدَّثنا عنه في الفصل الرابع.

الكاميرات وأجهزة الصوت:

غالباً ما تكون مهمة الفريق في الشارع هي التقاط الصور للأشخاص الَّذِينَ يتتبعونهم أو الأشياء المشبوهة مثل مواقع الصناديق الميتة ومداخل البيوت الآمنة. جهاز التصوير التقليدي والَّذِي أثبتت التجربة فعاليته هو حقيبة اليد النسائية، الَّتِي تُعدَّل لتسمح لَهَا بتوجيه الكاميرا من تحت ذراعها بِحَيْثُ تسمح الفتحة غير المرئية في الحقيبة بدخول الضوء إلى عدسات الكاميرا في حقيبتها عندما تنشّط الغالق بالضغط على زر مخفي. ويمكن استخدام مئة جهاز آخر مشابه: حقائب الظهر، الحقائب ذات اليد، أكياس البولينج،

وحوامل مضارب التنس، أكياس التبغ، قبعات الفرو، أو أي شيء يناسب الغطاء الَّذِي يستخدمه فريقك.

وبالنسبة لفريق المراقبة في الشارع، فجهاز التسجيلِ مثالي، إذ قلَّمَا يُتاح لعضو فريق المراقبة الاقتراب واستراق السمع لمحادثة مهمة. أتذكرُ مرةً اقترب فيها أحد أفراد فريق المراقبة، من وراء الهدف الَّذِي كَانَ يُجري مكالماتٍ هاتفيةً متكررةً من هاتف عمومي، واستطاع الدخول إلى كشك مجاور واعتراض رسالة عملياتية بسمَّاعة طبيب ثبَّتها على الجدار الزجاجي المقابل، ومَنَحْنا هَذَا الشابَ مكافأةً لتأديته عمله بما يتجاوز الواجب.

الأسلحة:

يميل بعض أفراد فريق المراقبة للتصرف مثل رعاة البقر، ويكتسبون هَذِهِ العادة من كونهم يقومون بعمل الأرنب وكلب الصيد في ذات الوقت، والسبب هو أنهم يتعرَّضون للمخاطرة على مدار الساعة طوال اليوم. ويُحِبُّون أن يكونوا مَهَرَةً في التعامل مع السكين والمسدس، ومعرفة الكثير عن رياضة الجودو والكاراتيه والكونفو أو أي رياضة تُمِدُّهُم بالرشاقة. مثل هَذِهِ البراعةِ مفيدةٌ في بعض الأحيان لفريق المراقبة، لكن لا تدع فريق المراقبة لديك يحمل مسدسات أو سكاكين، لماذا؟ لأن عمل فريق مكافحة الاسْتِخْبَارَات هو تجنُّب المشكلات، والأسلحة ستلقي بهم فيها.

هل من استثناءات؟ بالتأكيد:

1- إن كَانَ من يقوم بالمراقبة من ضباط فرض القانون والَّتِي قد تكون بلغت ذروتها في عمل تنفيذي (الاعتقال والملاحقة القضائية) يتطلب من ضباط الاعتقال أن يكونوا مسلَّحين.

2- مواجهةٌ عارضةٌ مع مجرمين عنيفين في منطقة تكثُر فيها الجرائم، سواءً كَانَت حَضَرِيَّة أم ريفيَّة، مِمَّا يُوجِبُ على فريق المراقبة حماية نفسه.

ومع هَذَا فأفضل الأسلحة وخصوصاً في المدن هي الأسلحة المُرتَجَلَة: جريدة ملفوفة بشدة تشكّل هراوة جيدة (إن وُجّهَت نحو أسفل الأنف)؛ قضيب حديدي طوله إحدى عشرة بوصة بنهايات حادة، تشكّل هَذِهِ أسلحةً مُتَعَدِدَةَ الاستخدامات تُوضَع في السيارة. بعض أفراد المقاومة الفَرَنسِيَّة في الحَرْب العالمية الثانية أصبحوا فتّاكين باستخدام أسياخ عجلات إضافية في درّاجاتهم الهوائية، وتُحَدُّ هَذِهِ الأسياخُ لتكون جاهزةً للاستخدام السريع، حَيْثُ توضَع في مقبض يتكوّن من واحد من الدوّاسات المطاطية للدراجة. للأسف، مضى زمن دبّوس القبعة القاتل، لكنني أعرف مجرماً فقد حياته عندما طُعِن أسفل الذقن لتخترق الطعنة اللسان وسقف الفم والدماغ بالطرف الحاد لمظلة مطوية.

نصفُ عُمرِ فريقِ المراقبةِ[1]

فريق المراقبة مثل محرّك السيارة، معرَّضٌ للتلف. فعندما تكون سيارتك قديمة، يمكنك معرفة أن المحرّك يتآكل عندما يحرق مزيداً من الوقود والزيت، ويَسخَنُ زيادة، ويتعطّل عند صعودِ الأماكن المرتفعة، وهكَذَا. وصول فريق المراقبة إلى الشيخوخة لا يعطيك مثل هَذِهِ التنبيهات، بل إنه في الحقيقة يبدو أكثر كفاءة مع ازدياد مدة عمله، وخصوصاً عند مقارنته بالفترة الَّتِي بدأ فيها العمل، حَيْثُ يكتسب أفراد الفريق مزيداً من الخبرة في التقنيات الَّتِي يعملون عليها، ويتعرَّفون على عادات هؤلاء الَّذِينَ يراقبونهم، ويلقون نظرة عن كثب على ميدانهم، ويتحسّن أداؤهم باستمرار. الجزء الَّذِي لا يمكنك رؤيته يتآكل لكنه يتآكل باستمرار مع مرور الوقت، هو الغطاء.

إن كَانَ عملك على أرض أجنبية، سيكون فريق المراقبة من المواطنين الأجانب. وأي انكشاف بسيط لغطائهم وأي حادث يتركهم عرضةً لفضول الشرطة المحلية أو جهاز استخبارات معادٍ، ممَّا يجعلهم عرضة للتجنيد. وعندما يحدث هَذَا فإنهم يذهبون إلى الحي الَّذِي يراقبونه دون أن تعلم أن هَذَا حدث. في المرة التالية تستخدم فريقك للمراقبة بغرض

[1] نصف عمر الفريق: مصطلح مُستمد من نصف عمر المادة المشعة، وهي المدة اللازمة لانخفاض كمية المادة إلى النصف في عملية التحلل الشعاعي، ويتوقف الإشعاع بانتهاء هَذِهِ المدة.

درء مراقبة العدو لاجتماع مع عميل مزدوج، يملك عدوك الآن (وربما يكون صديقاً لكن من جهاز شرطة غير مؤمَّن) أحد أسرارك العملياتية، وأنت لا تعرف أنك خسرتها، وهَذَا موقف لا يُحسَد عليه ضابطُ مكافحة الاسْتِخْبَارَات ولا يتمنَّى أن يكون فيه.

الحوادث الصغيرة الَّتِي تؤدي إلى تآكل غطاء فريق المراقبة لَهَا تأثير تراكمي، مثل الوهن في جناح طائرة قديمة، فلن تعرف بِهِ حَتَّى تسقط الأجنحة ويتحطَّم برنامجك لمكافحة الاسْتِخْبَارَات.

مثل هَذِهِ الكوارث ليس لَهَا علاج، بل وقاية فقط. ونتطلب الوقاية اتخاذ قرار صارم بإخراج الطائرة من الخدمة قبل تحطم الأجنحة. الوقت اللازم لإنهاء عمل فريق المراقبة هو النقطة الَّتِي يبدو فيها أنه يقوم بعمله على أحسن ما يُرام. صدِّقني إدارتك والمسؤولون عن الميزانية لن يسعدهم هَذَا القرار. فكُلّ ما يقرؤونه من تقاريرك يشجِّعهم على تجديد المشروع، وتجنُّب تكلفة تشكيل فريق مراقبة جديد وإيقاف عمل أولئك الَّذِينَ يبدو أنهم يبلون بلاء حسناً.

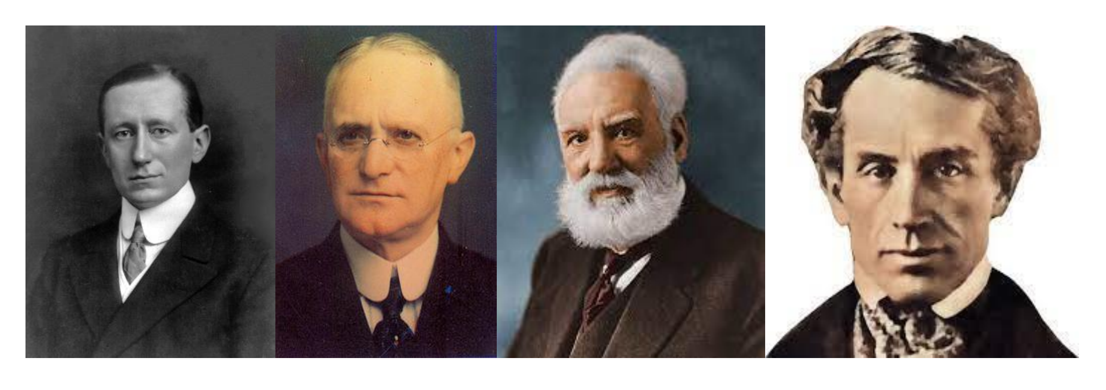
نصيحتي هي الإصرار على وقف عمل الفريق، ومواجهة الإدارة بخبرتك العملية الكبيرة. وعندما يحتدم الجدل واسِ نفسك بفكرةٍ أنه لو كَانَت لدى هَذِهِ الإدارة الكمال في العَمَلِيَّات لكَانَ عملهم في الميدان وليس في الإدارة.

إن حامت الشكوك حول فريق مراقبتك وبات بالتالي عديم الفائدة (وكنت محظوظاً بما فيه الكفاية لتعرف هَذَا)، أو إن أوقفت عمله بحكمة قبل حلول الكارثة، يَجِبُ أن يكون لديك فريق احتياطي. ومجدداً سيشتكي المسؤولون عن الميزانية من النفقات الزائدة، لكن ليس ثمة حل آخر: لِكُلِّ فريقِ مراقبةٍ يعمل، فليكن لديك فريق آخر يتدرَّب ومنفصلٌ تماماً عن الفريق الأول.

(8)

كيفَ تديرُ المراقبةَ التقنيَّةَ؟

هُنَالِكَ اسم آخر مُشَرِّف للمراقبة التقنية هو "التَّنَصُّت الإلكتروني" أو "التقاطُ الصورِ خُلسةً"، لكن هَذِهِ التسميات لا تُرِيحُ الشرفاء. بوليغراف صامويل مورس (1844)، وهاتف ألكسندر غراهام بيل (1876)، وبَكَرَةُ الفيلم لجورج إيستمان (1888)؛ كُلّ هَذِهِ الاختراعات قدَّمت الكثير لعمل التَّجَسُس، وكذلك لعمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات. وأعطى اختراع غلوكيليو ماركوني للهاتف اللاسلكي (1901 في الوقت المناسب للحرب العالمية الأولى) كُلّ ما يلزم لجعل الاتصالات السرية والتنصت عليها عملاً كبيراً.



صامويل مورس | ألكسندر غراهام بيل | جورج إيستمان | غلوكيليو ماركوني

جلس الرجال والنساء واضعين سماعات على رؤوسهم يكتبون ويكتبون ويكتبون، يرتكبون الأخطاء ويفقدون بعض الكلام. ثُمَّ جاء (في الحَرْب العالمية الثانية) مُسجِّل الأفلام الَّذِي بات مَنسِيَّاً اليوم، الَّذِي يلتقط الإشارات المُعتَرَضَة والمحادثات ويحوِّلها إلى أفلام سينمائية. ثُمَّ جاء شريط التسجيل السلكي المغناطيسي، وبات الآن من المنسيات هو الآخر. وجاء في النهاية شريط التسجيل، ونُسي هو الآخر الآن، ومُسجِّل الكاسيت، و(ليس آخِراً بالتأكيد) المُسجِّل الرقمي، مع التخزين على الأقراص.

ميكروفون بيل المصنوع من الكربون المضغوط كَانَ ضخماً ومن الصعب إخفاؤه في أريكة. أما ميكروفونات اليوم ببواعثها المدمجة، فقد باتت من الصِّغَر ما يُمَكِّنُك في الغالب من إخفائها في النِّسالة الَّتِي تتراكم في سِرَّتك[1] أو في دمية على شكل صرصور. هَذِهِ الأيام لا يمكنك أن تعرف أين أو متى: العدو يستمع، كما يقول الألمان. بالتأكيد إن لم يكن لديك أعداء فما من داعٍ للقلق، لأن العدو فقط يمكن أن يجشِّمَ نفسهُ عناءَ استماع -ناهيك عن تسجيل- الأغاني الَّتِي تترنم بِهَا في الحمام. (بالمناسبة، الماء المنهمر من المستحيل تقريباً تمييزه عن التسجيل، لذا فخوض الاستحمام يُعتبَر مكاناً مثالياً لإجراء محادثاتك السرية).

التسجيل، هَذِهِ هي المشكلة. وضع شريط بجانب الهاتف مباشرة، أو ثقب جدار من الجبس لوضع هاتف فيه، يكون أحياناً صعباً لدرجة الإحباط، لكنه عالم من المرح مقارنةً بـ "معالجة المشهد المُصوَّر"؛ أي تقليص ساعات الشريط إلى بضعةِ سطور مفيدة على شكل تقرير.

لذا كمدير للمراقبة التقنية، ستخصص الكثير من وقت التخطيط لاتِّخاذ العديد من القرارات بخصوصِ الطريقة الَّتِي ستنتقي فيها هدفك. ستختار تِلْكَ الأهداف الَّتِي تستحق هَذَا الجهد الكبيرَ للتنصُّت عليها وتسجيل محادثاتها التافهة الَّتِي لا نهاية لَهَا، كي تستخلص في النهاية دقيقتين مفيدتين بعد تحقيقك في أسبوع من التُّرَّهات. أو إن كُنْت تستخدم التصوير الخفي، فستقصره على الأهداف الَّتِي تستحق مشاهدة أنشطتها الَّتِي تمتدُّ لساعات من الأنشطة الإنسانية الروتينية العادية، وتلخيصها في النهاية إلى شريط فيديو لخمس دقائق عندما يقوم هدفك بشيء عملياتي؛ أو مشاهدة مئات الصور المطبوعة من كاميرا ثابتة، وتكون في العادة غير واضحة.

ستشاهد بازدراء مسلٍ تِلْكَ الشريحة من الناس الَّتِي تعبِّر عن قلقها بصوت عالٍ حول (ما يتوقَّعُونَه، أو يخافونه، أو يأملونه) من أن هواتفهم مُراقَبَة، وأن أسرّتهم مزروعة بأجهزة

[1] تشير سرة البطن إلى المكان الَّذِي كَانَ يتصل بِهِ الحبل السري. وعندما يكون الطفل في الرحم، يكون الحبل السري مرتبطا بسرّة البطن من جهة والمشيمة من جهة أخرى، وهي عضو متصل بالرحم يتطور أثناء الحمل.

التنصت، أو أن صورهم تُلتقَط في الشارع. آه إنه التشويق، بأن أفكِّر أو أحلم بأنني مهم لدرجة أن تنتهك السلطات حقوقي المدنية، صدّقني لست والتر ميتي[1] الَّذِي أسعى جاهداً لمعرفة حياته الخاصة، فلديَّ أهداف أفضل لأتجسس عليها، وهَذِهِ الأهداف لديها ما هو أفضل -أو أسوأ- للقلق عليه من حقوقك المدنية.

تذكَّرْ وظيفةَ الدعمِ

من بين كُلّ تقنيات المراقبة، 73.92 بالمئة منها (أو ضع نسبتك الخاصة، طالما أنها كبيرة) تفيد في الوصول إلى أدلة للأنواع الأخرى من المراقبة والأنواع الأخرى من التحقيق. وهي لا تقدِّم سوى نسبة ضئيلة من المعلومات الَّتِي يمكن استخدامها في تقرير بعنوان -فلنقل- بنية الكي جي بي أو البرنامج الإرهابي للدولة "س".

إن توجَّب عليك تبرير زرع مكروفون مخفي أو دارة تنصت هاتفي لقاضٍ تريد استصدار أمر قضائي منه أو لشخص يتولى الإشراف على ميزانية ضيِّقة، فكن مستعداً لشرح كيف يمكن لِهَذِهِ الأشياء تحقيق فائدة من خلال إبلاغه أن معرفة نظام الحياة للهدف ومعرفة عاداته واكتشاف "ما يتناوله على الفطور" سيطوِّر برنامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل عليه.

ربما لن يفهم القاضي هَذَا، كونه معتاداً على تفضيل التحقيق الَّذِي يُفضي إلى المعلومات الَّتِي يمكن الاستفادة منها في المحكمة. وربما يكون المشرف المالي مُتَلَهِّفَاً إلى تقارير يمكنه نشرها لتغطية مصروفاته. ولا يمكن أن يكون كلاهما كريماً اتجاه ما يمكن أن يعتقده تحقيقاً بطيئاً، ما لم يكن هو نفسه مُحَقِّقَاً قد قامَ بنفس النوع من التحرِّيات بنفسه (هل أنا مخطئ بالاعتقاد بأن هَذَا النوع من المحترفين يصبحُ أندر فأندرَ على المستوى التنفيذي من عملنا؟).

---

[1] **والتر جيمس ميتي** هو شخصية خيالية في القصة القصيرة الأولى لجيمس ثوربر "الحياة السرية لوالتر ميتي"، والَّتِي نُشرت لأول مرة في مجلة نيويوركر في 18 مارس 1939.

في المُجمل، فالغايةُ الرئيسيةُ من المراقبة -وخصوصاً التقنية منها- هي دعمُ التحقيقِ.

اعرفْ تقنيّيك

تقنيو الصوت والصور جماعةٌ غريبةٌ ورائعةٌ (يُدعَون معاً التقنيين). إذ يمكنهم تحويل أشياء مثل علب البيرة إلى هوائيات، وتركيب كاميرات مَخفيَّة في فتحات الجدران، وابتكار دارات إرسال شعاع ضوئي، أي: حل جميع أشكال المشكلات التقنية عن طريق ارتجال تقنيات لم تحلم بِهَا من قبل. المشكلة الَّتِي سيتعيَّن عليك مواجهتها كمدير للمراقبة معهم هي أنهم ينضحون بالبراعة لدرجة أنهم قد يَغفَلُون عن الهدف أحياناً ويزيدون من تعقيد عملهم. **"الفنُّ من أجلِ الفنِّ" هي العبارةُ المستخدمةُ لتوصيفِ هَذَا الاتجاه.**

كمدير، لا يمكنك أن تأمل في مضاهاة معرفة تقنييك بعملهم، مع أنَّك سترغب ببذل كُلّ جهدك للحاق بهم. العمل مع التقنيين واحدةٌ من أمتع أجزاء عمل ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات. حاول أن تتعرف عليهم قدر الإمكان.

داراتُ التنصتِ الهاتفيَّةِ TELEPHONE TAPS:

قِلَّةٌ من الجواسيس المحترفين، وحَتَّى قِلَّةٌ من ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات المحترفين، يطبِّقون ما يَعِظُون بِهِ الآخرين حيال الأمن الهاتفي. ثمة شيء حميم وخفي حول المكالمات الهاتفية أوقعتني بأخطاء مربكةٍ حَتَّى عندما علمت بأن جهازي مُخترق. فإذا بي رغم علمي بأن جهازي مُختَرَق أذكر الوجهة الحقيقية لرحلة قادمة أو الاسم الحقيقي لجهة اتصال يُفتَرَضُ أن تبقى سراً. وهُنَالِكَ ما هو أسوأ، فإذا بي أحاول استخدام عبارات كودية خاصة: "مقابلة موظف البنك"، "الذهاب إلى المشفى"؛ وعندما يعرف عميل التنصت الَّذِي اخترق هاتفي لبعض الوقت، أن ما من موظف بنك وليس هُنَالِكَ أي شخص مريض من أسرتي، أكون قد زوّدت رئيسه بدليلين.

لكن بغضّ النظر عن مدى حرصي عند استخدام الهاتف، فلا يمكنني المساهمة في حرمان شخص يتنصَّت عليَّ هاتفياً من معلومات قيِّمة، لسبب واحد وهو: أنني بحرصي الواضح أعطيه المعلومة الَّتِي يراقبني من أجل الحصول عليها. فبمجرد استخدام الهاتف، أفشي حقيقة أنني قد وصلت تواً إلى البيت، وبالاتصال بالمصرف، أعطيه الفرصة للتحقق من حسابي المصرفي.

إن العملَ مع دارات التنصت الهاتفية مملٌّ، لكنها تقدِّم معلومات أَسَاسِيَّة عن الأهداف. كما تدعم التحقيقات الأخرى، وفيما يلي بعض التلميحات عن الكيفية الَّتِي تستفيد فيها من هَذِهِ الدارات.

داراتُ التنصتِ الهاتفيَّةِ المركزيةِ:

أسهل طريقة لتركيب دارة تنصت هاتفي إن كَانَت لديك السلطة هي أن تُرَتِّبَ لاعتراض المكالمات وتُسَجِّلَهَا في المقسم المركزي. وتكونُ الإجراءاتُ آليةً، عندما تكون دارات أرقام مُعيَّنَةٍ نَشِطَةً، يقوم أحد المُسجِّلات في التبادل المركزي بتسجيل المحادثة. وعندما تتنشَّط أكثر من دارة في نفس الوقت، تعمل عدة مُسجِّلات في ذات الوقت.

تحتاج إلى الصلاحية لتركيب دارة تنصُّت هاتفي في مقسمٍ مركزي، حَيْثُ تكون هَذِهِ الصلاحية عادةً بيد الشرطة، أو يمكنهم الحصول عليها من خلال المحاكم. مدير فريق المراقبة -على الدوام- لديه هاجس الأمن؛ فهل يمكنك الوثوق بموظفي شركة الهاتف أو مؤسسة البريد الوطني لتركيب النظام الهاتفي؟

الخطوطُ المحليَّةُ:

إن كُنْت تعمل خارج بلادك، ربما لن يكون لديك الصلاحيات لاختراق هاتف في المقسم المركزي، سيكون لديك عندئذٍ عمل مُعقَّد للوصول خِفيَةً إلى خط محلي، ربما في الشارع، ربما عبر الصرف الصحي، ربما من قطعة مجاورة لعقار سكني. المكان الَّذِي يخرج فيه خط الهاتف من الجدار -من مقبس في العادة- هو مكان جيد لتركيب دارة التنصت

الهاتفي، إن كَانَ بوسعك الوصول إليه. وعلى أي حال سيكون لديك مشكلات لوجستية ومشكلات في الغطاء لا يمكن حلها إلا عن طريق البراعة والارتجال الفوري. وبالتالي سيكون لديك بعض المشكلات التقنية: هل تركب دارة تنصت هاتفي مباشرة وتخاطر بالانكشاف إذا فحص أحدهم الخط بجهاز قياس الكُمُون (آفوميتر)؟ هل تستخدم جهاز حثٍّ (يمكن اكتشافه بعض الأحيان فقط عبر التداخل بينه وبين تيار الدارة)؟ للإجابة على مثل هَذِهِ الأسئلة، اعتمد على حكمة أفضل تقنييك.

الميكروفون المخفي في الهاتف:

الجزء الناطق من هاتفك هو الميكروفون، وهو جزءٌ حسَّاسٌ جداً. كما تلاحظ عندما تتصل بالبيت، فهو يلتقط جلبة الأطفال في المطبخ، وصوت الراديو في غرفة الطعام والمحادثات الجانبية للأشخاص الَّذِينَ تتناول زوجتك القهوة معهم. وعندما تُضخَّم شارته بكفاءة فإنه يصبحُ بجودةِ أي ميكروفون يمكن أن تركِّبه في الغرفة. وعادة ما يلتقط الصوت عندما تكون السماعة مرفوعة، لكن في غضون دقيقة يمكن للتقني باستخدام مفك براغي إجراء التعديلات اللازمة بِحَيْثُ تُرسِل بِشَكلٍ مستمرٍ عبر الدارة إلى لوحة التبديل المركزية أو إلى دارة تنصت هاتفي على الخط ما بين الهاتف ولوحة المفاتيح، وبالتالي يكونُ الهاتفُ دارةَ تنصتٍ وميكروفوناً مخفياً في ذات الوقت.

السمّاعة هي الأخرى مكبِّر صوت، لأن الميكروفون ومكبرات الصوت لهما ذات التصميم الأساسي، كما يمكن تجهيزه أيضاً لجعل الهاتف يعمل كدارة تنصت هاتفي وميكرفون مخفي.

هدفك يمكن أن يُفشِلَ عملية تحويل هَذَا الجهاز إلى ميكروفون مخفي ببساطة عبر فصل الجهاز عندما لا يستخدمه. لكنه لا يستطيع إبطال عمل جهاز يحتوي أو يخفي بطارية تغذّي باعثاً، إلا في حال كَانَ لديه تقنيين يتفحصون الجهاز دورياً. فإن استطاع فعل هَذَا، فإنه يستحق أن يُتَنَصَّت عليه، لأن الأهداف البريئة ليس لديها تقنيين محترفين. ومن ناحية ثانية، سيجعل تقنييك ينالون رواتبهم عن جدارة.

الميكروفوناتُ المخفيَّةُ HIDDEN MICROPHONES:

التسمية المِهَنِيَّة الرسمية الأمرِيكِيَّة والبرِيطَانِيَّة للتنصت بالميكروفونات المخفية هي "المراقبة الصوتية"، وغالباً ما تُختَصَرُ إلى كلمة "الصوت". لذا فعملية التنصت قد تسمى تركيب "الصوت" أو "الحشرة". وغني عن القول، أن هَذَا الجزء من الكلمات العامية يسمح بالتلاعب بالألفاظ، وخصوصاً في بريطانيا.[1]

مراقبةُ العملِ الروتينيِّ:

إن أجريت دراسة صوتية عبر تسجيل المقابلات، فستلاحظ أن أجهزة التَّنَصُّت تنتقي وتضخِّم حفيف أوراق الشجر، وصخب المباريات، وصوت تحليق طائرة في الجو، الَّتِي لا يلحظها المتحاورون. لكن سيفشل الميكروفون في الحصول على عبارات الهمهمة الَّتِي يفهمها المتحاورون بوضوحٍ. وإن كَانَ الميكروفون موضوعاً في مكان مفتوح لا يمكنه التقاط كُلّ ما يدور حوله، فسيكون الميكروفون المخفي أقلَّ قدرةً على الالتقاط. وبخلاف العقل البشري، لا يمكن للميكروفون فلترة الأصوات غير المهمة ولا إعطاء معنى من خلال التفسيرات المنطقية.

مراقبة وتسجيل نتاج تسجيلات دارة تنصت هاتفي يتطلب أعمالاً روتينية، فمفرِّغ التسجيلات يَجِبُ أن يصيخ السمع للكلمات ويعيد التسجيلات مراراً وتكراراً. ويتوجَّب عليه أن يخمِّن باستمرار التواصل غير المسموع والإيماءات، وتعابير الوجه، والملاحظات المكتوبة الَّتِي يتبادلونها. ويَجِبُ على المراقب أن يقاوم الملل والوهن لمرور ساعات دون أن يسمع كلمة واحدة، وفي النهاية يَجِبُ على المراقب أن يحتفظ بنوع من السِّجِل يمكن للمحلل فهمه ويمكن ترتيبه بسهولة ضمن معلومات من مصادر أخرى.

[1] كلمة bugs الَّتِي تُستخدم للإشارة إلى الميكروفونات المخفية لَهَا معانٍ عديدة في اللغة الإنكليزية.

السلك الصلب:

الميكروفون المخفي الموصَّلُ إلى مُستقبِلٍ ومُسجِّلٍ عبر سلك مخفي ربما يتلقى الصوت بِشَكلٍ أفضلٍ من باعث راديو (لا سلكي). إن كُنْت "تحكم بالعقار" -أي إن كَانَت الغرفة الَّتِي ستخفي فيها الميكروفون ملكك أو كَانَت مُستعارة أو مؤجرة لك، بينما الأهداف زائرون إليها- فمهمة زرع الميكروفون وإخفاء السلك سهلة. وكذلك تكوين مركز تنصت مؤَّمن، لأنه بوسعك عندئذٍ حجز غرفة أو سقيفة أو استخدام شقة مجاورة لِهَذَا الغرض.

لكن معظم عَمَلِيَّات مكافحة الاسْتِخْبَارَات تجري في عقار مُعَادٍ، خصوصاً عندما تعمل على التراب الأجنبي. حَيْثُ سيستهلك تركيب دارة تنصت هاتفي معظم موارد وحدتك: تدبير منزل آمن لنقطة المراقبة، جمع الأدوات، ومراقبة الهدف للتحضير للدخول خلسة ولحماية فريقك العملياتي عندما يدخل.

البواعثُ اللاسلكيةُ:

يقي باعثُ إشارة راديو لاسلكية -مخفي مدمج مع ميكروفون- من بعض المشكلات المذكورة آنفاً، فلا يوجد عندئذٍ سلك لإخفائه ولا شقة مجاورة يتوجّب استئجارها، والجزء المُتَعَلّقِ بزرع الباعث في عملية السطو يمكن أن يمضي أسرع؛ الدخول، زراعة الأدوات، ثُمَّ الخروج. أو يمكنك إخفاء الأدوات في مصباح على الطاولة، أو كتاب، أو إطار لوحة وإدخالها بِشَكلٍ "شرعي" من خلال رجل يقوم بالإصلاحات ظاهرياً أو موظف قراءة العدَّادات.

لكن الباعث اللاسلكي ينضوي على عيوب، على سبيل المثال: يَجِبُ أن يتصل بمصدر موثوق للطاقة، والبطاريات محدودة العمر. في بعض الأحيان يمكن توصيله إلى مزوِّد الطاقة الخاص بالمبنى، لكن هَذَا من شأنه زيادة الزمن اللازم للدخول خلسة.

ومن العيوب الأخرى، الخطيرة جداً، هي أن البواعث اللاسلكية تبعث إشعاعات، فهي ترسل إشارتك إلى الأثير حَيْثُ يمكن اعتراضها، ولن يفيد تقليل قوة الإشارة أو ترددها

أو تعديل اتجاهها في منع اعتراضها تماماً. وجد أحد أجهزة الاسْتِخْبَارَات الغربية نفسه بمحض الصدفة يستقبل معلومات استخباراتية حساسة من دارة تنصت هاتفي ركَّبه جهاز استخبارات تابع لإحدى دول الكتلة السُّوفيَاتِيَّة في مكتب مسؤول حكومي حامت الشكوك خطأً حول ولائه للحكومة الشيوعية الَّتِي يعمل لصالحها.

ولعدة شهور كَانَت إملاءاته لسكرتيرته تُذاع على بُعد عدة مئات من الأميال إلى مُستَقبِل أقرب موجود في الدولة الَّتِي تقوم بعملية التَّجَسُس (فيما يسميه التقنيون "وثبة"). والوثبة -بالمناسبة- ليست بالضرورة انعكاساً على الطبقة الأيونية[1] في الغلاف الجوي الأرضي، بل يمكن للمباني أن تتسبب بارتداد للإشارة حَتَّى عندما تكون عالية التردد لدرجة أن تخترق الطبقة الأيونية وتخرج إلى الفضاء، حَيْثُ يُفترض أن يتمكن مسبار الكابتن كيرك إنتربرايز[2] فقط من التقاطها.

التصويرُ خلسةً:

تستخدم المصارف الكاميرات المخفية الثابتة لالتقاط صور دورية لكافة الأشخاص في الصالة، وعندما يحاول شخص ما سرقة الموظَّف، فإنه تُلتقَطُ صورته. عندما تصرف شيكاً من صراف آلي، تذهب صورك إلى ملف مع نسخة من الشيك، كما تخضع ممرات ومكاتب ومخابر المؤسسة الَّتِي تقوم بأعمال حساسة أو خطيرة للمراقبة عبر الشاشات التلفزيونية الموصولة إلى كاميرات مخفية. وتنفّذ الشرطة روتينياً عَمَلِيَّات الإيقاع بالمجرمين في بيوت أو شقق مُجهَّزة بكاميرات تلفزيونية مَخفِيَّة ومُعدَّات صوت لتوفير الأدلة (تسجيل الصوت) على أشخاص مُغرمين بالتفاوض حول الأنشطة الإجرامية في العقارات المُجَهَّزَة.

[1] الغلاف المتأين طبقة متواجدة أسفل الغلاف الجوي، وتكون فيها جزيئات الغازات المكونة للجو متأينة نتيجة التعرض لأشعة الشمس. يعمل هَذَا التأين على انعكاس الموجات الراديوية كالمرآة مِمَّا يجعل الاتصالات اللاسلكية والبث الإذاعي ممكناً على الأرض.

[2] فيلم من الخيال العلمي.

عندما يكون العقار تحت تصرفك، يكون التقاطُ الصور خلسةً سهلاً، أما عندما تعمل على التراب الأجنبي فأنت تعمل ضد أهداف تسيطر على عقاراتها، وسيتوجب عليك اللجوء إلى كافة الحيل الَّتِي ذكرناها آنفاً في هَذَا الكِتَاب لتحضّر تجهيزاتك وتنظّم مراقبتك، وتقوم بترتيباتك. فجهاز دعمك (انظر الفصل الرابع) سيخوضُ تجربةً كاملةً، وكذلك نظام الملفات لديك (انظر الفصول 18،17،16).

اعتراضُ البريدِ:

لدى العديد من البلدان برامجُ سريَّةٌ للرقابة على البريد، سواءً كَانَ محلياً أم عابراً للحدود، وعادةً ما تنفّذ وحدات مكافحة الاسْتِخْبَارَات هَذِهِ البرامج تحت قناع أقسام الأنظمة البريدية للدولة. وعندما تقومُ بِهَذَا على تراب أجنبي، قد تتمكن وقد لا تتمكَّن من الوصول إلى مثل هَذِهِ البرامج الرسمية، فإن لم تتمكَّن من الوصول سيتوجَّب عليك سرقة البريد، وتسليمه لتقني التفتيش السري، الَّذِينَ يتعيَّن عليهم فتحه وتصويره وإعادته كما كَانَ بِحَيْثُ تتمكن من إعادته خلسة إلى صندوق بريد الهدف دون علمه، ويَجِبُ الانتباه إلى أن الأشخاص المسؤولين عن توصيل البريد وتصنيفه يصبحون مُرشَّحين للتجنيد في أي عملية اعتراض بريد. كما يمكن الاستفادة من عُمَلَاء دعم الأهداف العامة مثل موظَّفي الفنادق، ومدِيّري الشقق السكنية، والشرطة العاملة.

ترتيبُ المعلوماتِ:

كما في كافة أعمال مكافحة الاسْتِخْبَارَات، أهمُّ جزء من المراقبة التقنية هي ترتيبُ المعلومات (انظر أيضاً الفصل 17 لمزيد من المعلومات عن الترتيب). عادةً ما تكون هَذِهِ المعلومات مُجَهَّزَةً جيداً على الحاسب. الصنوف الَّتِي ترتِّب فيها نتاجُ دارة تنصت هاتفي يمكن أن تكون مثلاً:

- رقم الهاتف: الهواتف الَّتِي تتنصت عليها.

- الأرقام الَّتِي يتصل بِهَا: الأرقام الَّتِي صدرت عنها مكالمات، وتُسَجَّل بعدد النقرات المُسجَّلَة أو درجات نغمات اللمس.
- الهويّات: يمكن معرفتها من خلال البحث في دليل الهاتف بالاستفادة من الأرقام الصادرة، أو ربما تتحدد من خلال المحادثة، أو من خلال تخمين المراقب بهوية المُتَّصَل بِهِ.
- محتوى الرسالة: عادةً ما تُكتَب بالرموز فيكون ما يعترضه المراقب مجرد المحتوى الظاهري للمكالمة، على سبيل المثال، المحادثات الأُسَرِيَّة، التجارية، الشخصية الاجتماعية، العملياتية، وغير المعروفة.

يغطِّي نظام الترتيب شهوراً وسنوات من نتاج دارات التنصت الهاتفية ويأتي بكمية كبيرة من المعلومات عن جهات الاتصال. برنامج الترتيب الاحترافي الَّذِي يجمع نتاج كُلّ تقنيات المراقبة مع المعلومات من عَمَلِيَّات مكافحة الاسْتِخْبَارَات الأخرى يمكن أن يشكِّل الأساس للعديد من برامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات. أعرِفُ حادثةً استفادَ فيها ضابطُ مكافحةِ تَجَسُسٍ مبدعٌ مِمَّا استنتجه من ترتيب موحَّد للبيانات مِمَّا مكَّنَه من خداع جهاز استخبارات معادٍ، وهو ما أدى الى إيذائه وهَزيمته تقريباً.

(9)

العُمَلَاءُ المزدوجون: ما الفائدةُ منهم؟

ليس هُنَالِكَ مصطلح يسيء الهواة وقليلو الخبرة استخدامه مثل مصطلح **"العميل المزدوج"**. ذات مرة في اجتماع روتيني يسبق اختبار البوليغراف، قلت لمشغِّل بوليغراف مبتدئ أن واحداً من المتخصصين لديَّ كَانَ يشغِّل عُمَلَاء مزدوجين وكَانَ يتولَّى حالات عُمَلَاء مزدوجين، وطرح الشاب المتذاكي في نهاية السلسلة الأولى فجأةً سؤالاً: "هل أنت عميل مزدوج؟" وكاد الخطُ الَّذي يرسمه مرقِّم الجهاز أن يخرج عن المخطط، واضطر أن يكتب "ضحك" عند النقطة الَّتِي أجبت فيها. ثُمَّ شرحت أن السؤال المناسب كَانَ ينبغي أن يكون: **"هل أنت اختراق؟"**.

إذا بحثت في القاموس، ربما تجد أن العميل المزدوج هو عميل يعمل لصالح جهازيْ استخبارات في ذات الوقت. وسَتَمْثُلُ أمامك صورةُ شخص ما مثل بيتر لور[1] من الأفلام القديمة، يتجسس على كُلّ الناس ويبيع معلوماته إلى من يدفع أكثر. يمكننا اليوم أن نَصِفَ عمل العميل المزدوج بأنه "عمل حر"، والحقيقة هي أنَّه منذ سنة 1945 بات عمل الجواسيس مهنة عالمية رئيسية؛ عمل حر لمن يعملونه لمرة واحدة، ومن بعدها إما أن تلتهمهم أجهزة الاسْتِخْبَارَات المحترفة أو يجدون لأنفسهم عملاً آخر (وهو الغالب). بمعنى أن العُمَلَاء المزدوجين مثل كُلّ العُمَلَاء يوجِّههم جهاز واحد في وقت واحد، فإن انتقلت السيطرة من (س) إلى (ع)، تكون عندئذٍ قد نُفِّذَت عملية مكافحة استخبارات ناجحة بواسطة (ع).

---

[1] بيتر لور: ممثل هنغاري أمريكي، بدأ عمله في فيينا قبل الانتقال إلى ألمانيا حَيْثُ عمل أولاً في المسرح قبل أن ينتقل إلى عمل فيلم في برلين أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات.

بالنسبة إلى ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات المحترف في جهاز استخبارات أمريكي أو بريطاني أو فرنسي أو روسي أو صيني أو إيراني أو أرجنتيني أو أي جهاز آخر تعني كلمة "العميل المزدوج" واحدٌ من اثنين: مُعاد التوجيه أو الطعم. وهي تعني عميلاً، وليس ضابطاً عاملاً. فوصفُ بيوتر سيمينوفيتش بوبوف[1] على أنه عميل مزدوج مجرد كلام سخيف،[2] فقد كَانَ العقيد بوبوف اختراقاً لنا في مديرية الاسْتِخْبَارَات الروسية العامة.



لو جعلت الكي جي بي بوبوف عميلاً مزدوجاً عندما اكتشفوا أنه اخترق مديرية الاسْتِخْبَارَات الروسية العامة وأبقوه على قيد الحياة، عبر إرسال معلومات استخباراتية قيّمة مثل المعلومات الَّتِي كَانَ يرسلها على مدى سنوات، عندها كَانَ سيكون عميلاً مزدوجاً من نوع ("مُعاد التوجيه") لكن في حالة بوبوف، كما في معظم الاختراقات سيكون الثمن غالياً جداً. لقد رموه بالرصاص، ولم يُجَنِّدُه ليصبح عميلاً مزدوجاً.

[1] **بيوتر سيمينوفيتش بوبوف:** من الضباط اللامعين في جهاز الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة السُّوفيَاتِيَّة، وكَانَ أول ضابط في المخابرات العَسكَرِيَّة الرُّوسِيَّة يقدم معلومات استخبارية لوكالة المخابرات المركزية بعد الحَرْب العالمية الثانية. وبين عامي 1953 و1958 قدم لحكومة الولايات المتحدة كمياتٍ كبيرةً من المعلومات المتعلقة بالقدرات العَسكَرِيَّة وعَمَلِيَّات التَّجَسُس. وكَانَ اسمه الرمزي "سقيفة".

[2] جاء هَذَا الوصف في كتاب وليام هود: الخلد، وهو كتاب واقعي وجدير بالقراءة.

التماسُّ بالعدو:

سيقول لك قائد وحدة مشاة بأنه أياً كَانَت المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي تَرِدُهُ من النسق الأعلى، فإنه سيشعر بفقدان السيطرة ما لم يكن لديه بعض التماس بالعدو، وعندما تكون جبهته هادئة، يرسل الدوريات لاستطلاع خطوط العدو ولإطلاق النار أو لخطف جندي أو اثنين من خط رباط العدو الأمامي. يجب أن يكون لديه في الجانب الأحمر (العدو) من الخريطة شيء غير ما يتلقاه من القيادة الأعلى منه، فهو يجب أن يبقى على اتصال بالعدو.

التشابه ما بين عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات وقتال المشاة كبير. فكضابط مكافحة استخبارات من الجميل أن يكون لديك اتصال بالعدو، ومخططات تنظيم لجهاز استخبارات العدو، ودراسات لخطة العمل، وقوائم لضباط حالة مُحَدَّدين للعدو، لكن هَذَا كله لا يعطيك شعوراً قوياً بالموقف على الأرض.

الاستخدام الأساسي للعملاء المزدوجين هو المحافظة على الاتصال مع العدو، أما كيف تستفيد من هَذَا الاتصال فيعتمد على حالة برنامج مكافحة الاسْتِخْبَارَات لديك في أي لحظة، لكن دون اتصال فليس بوسعك عمل الكثير.

العميل المزدوج المُعاد التوجيه: حالة جانوس شمولكا

العميل المزدوج مُعاد التوجيه هو عميل لطرف آخر، عادة ما يكون معادياً، اكتشفته وأعدت تجنيده ("حوَّلته") ليتابع عمله السري تحت سيطرتك كقناة لك وكسلاح ضد عدوك. غالباً ما يأتي إليك بعد أن يُعرَض عليه التجنيد، فينبذ الفكرة، ويطلب منك التوجيه ويضع نفسه تحت تصرفك في تضحية شخصية كبيرة، وهَكَذَا كَانَ جانوس شمولكا.



حالة جانوس شمولكا حالة عامَّة لأن نائب رئيس استخبارات الجيش الأمريكي ومن بعده العميد تشارلز سكانلون أدليا بشهادتهما أمام لجنة مجلس الشيوخ حوله. (الشهادة تستحق القراءة: جلسات الاستماع أمام اللجنة الفرعية الدائمة للتحقيقات التابعة للجنة الشؤون الحكومية، ومجلس الشيوخ الأمريكي، والكونجرس التاسع والتسعين، الدورة الأولى سنة 1985، الجلسة الأولى، الصفحات 65-82).

هرب جانوس شمولكا من هنغاريا خلال الثورة سنة 1956، تاركاً أمه وأخته وراءه في بودابست. وبدلاً من أن يفتتح مطعماً هنغارياً (علماً أن هَذِهِ المطاعم نادرة في الولايات المتحدة) بات مواطناً أمريكياً طبيعياً وانضم إلى الجيش، وأصبح صف ضابط في الشرطة العَسكَرِيَّة (علماً أن الضباط من هَذَا النوع نادرون في الولايات المتحدة) وتزوَّج امرأة تعمل هي الأخرى في الجيش الأمريكي، من نساء لا يوجد الكثير منهن أيضاً.

وحين وجد الوقت والمال والإذن الرسمي سافر شمولكا إلى بودابست لزيارة أمه وأخته اللتان عاشتا حياة بؤس بسبب الشبهة الدائمة الَّتِي التصقت بهما وهي شبهة كونهما عدوتين للدولة الشيوعية، لأن ابن الأولى وفي ذات الوقت أخَا الثانية جانوس كَانَ من أفراد جيش عدو رأسمالي. وجذبت زياراته انتباه جهاز أمن الدولة الهنغاري (يسمى أيضاً AVH) وهو بمثابة الكي جي بي الَّذِي يهتم (مع أشياء أخرى) بمراقبة الزوار من الخارج ويتحرّى عنهم.

وحصل شمولكا على إجازة من وحدة التحقيقات الجنائية في مينز لقضاء عطلة عيد الميلاد سنة 1977 مع أمه وأخته في بودابست، وهناك تصادف وجود صديق للعائلة يعمل في الحكومة الهنغارية، وتنحّى بِهِ جانباً وقال إن ثمة موظَّفاً آخر في الحكومة الهنغارية يريد التحدث إليه لكنه لم يرد إثارة قلق أمه، الَّتِي لا ينبغي أن يخبرها بشأن المقابلة. وفي مطعم اسمه على اسم عائلة صديق العائلة، قدّم صديق الصديق نفسه باسم "جانوس بيرلا كي" وقدَّم

عرضه للتجنيد بصراحة: أراد جهازه من شمولكا سرقة معلومات عن الناتو وعن الولايات المتحدة، في مقابل أن يؤمِّن بيرلا كي معاملة "لائقة"، لأم شمولكا.

أوه، ضع نفسك مكان شمولكا، إن رفضت التعاون لن تتلقى أمك معاملة ملائمة بل معاملة سيئة، ولن تخاطر بالسفر ثانية إلى هنغاريا، وبالتالي فلن ترى أمك مجدداً. لكن إن تعاونت ستصبح متورطاً بخيانة الوطن الَّذِي تبنّاك وخيانة وحدتك، وخيانة زوجتك وهي جندي زميل.

ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِينَ يقرأون هَذَا يعلمون أن التَّجَسُس لقوة معادية خيانة، وهو أكثر عمل آثم يُدخل صاحبه الدرك الأسفل من الجحيم مع يهوذا الإسخريوطي.[1] لكن التَّجَسُس بدافع الابتزاز يضع العميل المحتمل في مأزق الاختيار ما بين نوعين من الخيانة في ذهنه: خيانة وطنه أو خيانة عائلته.

لكن لاحظ نقطة الضعف، في الطريقة السُّوفيَاتِيَّة: سيسعى العميل المُكره عبر الابتزاز للتملُّص، واللعب على الحبلين، أي أن الضغط عبر الرهائن ما هو إلا عامل دافع للتحول إلى عميل مزدوج. وخلال الحَرْب الباردة، كنا على الجهة المعادية للسوفييت نفخورين بحقيقة أننا لم نلجأ إلى استخدام الرهائن للتجنيد أو السيطرة، ولم نسمح لأحد بالاستفادة من هَذِهِ الطريقة أيضاً، أنظمتنا الحكومية وطريقة تفكيرنا لا تسمح لنا بِهَا.

واختار صف الضابط شمولكا ألا يتورط بالخيانة، وأبلغ ما جرى معه في بودابست لدائرة الاسْتِخْبَارَات المختصة في ألمانيا الغربية ووضع نفسه تحت تصرف هَذَا الجهاز. واعتباراً من تِلْكَ اللحظة وصاعداً عمل ذاك الجهاز (عنصر في وكالة استخبارات الدفاع) معه، بالتعاون مع أفراد آخرين من مجتمع مكافحة الاسْتِخْبَارَات الأمريكي، للحصول على كُلّ ما يمكن الحصول عليه من معلومات حول العدو وفي ذات الوقت حمايته وحماية عائلته.

[1] **يهوذا الإسخريوطي**: أحد تلامذة السيد المسيح الاثنا عشر، وحسب الأناجيل الكنسية الأربعة فقد خان السيد المسيح ودل أعداءه عليه كي يصلبوه.

وكَانَ التلميح بـ "المعاملة غير اللائقة" لوالدة شمولكا هي العصا كما رآها الهنغاريون لتجنيدها، وكَانَت الجزرة هي "المعاملة اللائقة" وأُضيف إلى هَذَا المال. وفي حزيران من سنة 1978، عندما ذهب بسيارته إلى بودابست برفقة زوجته، اتصل بِهِ بيرا كلي، الَّذِي هنأه على قراراه بالتعاون، ووعده بالمال مقابل الوثائق العَسكَرِيَّة الَّتِي وصل إليها، ورتَّب لعودة أمه معه إلى لينتز لزيارته. وكَانَ الهنغاريون يعملون على تسهيل تحوله إلى خائن. والوثائق المطلوبة لم تكن ضارة؛ كراسات عملية عن كيفية استخدام البوليغراف، توجيهات قانونية غير سرية وهلم جراً. وإيصالهم سيكون انتهاكاً للقوانين، لكنه انتهاك ثانوي، ربما لا يترتب عليها حَتَّى محاكمة عَسكَرِيَّة فيما لو قُبِض عليه.

باتت اللعبة الآن لعبة اختبارات وسبراً للنيات في كلا الجانبين. فشمولكا لم يعد لديه سبب يدفعه لمقابلة الهنغاريين على أرضهم، ونحن أيضاً جعلنا من المستحيل على شمولكا السفر إلى بودابست، وكَانَ الهنغاريون خائفين من مقابلته في ألمانيا، وبالتالي بعد مناقشات عبر البريد وعلى الهاتف لمدة ستة أشهر، رتَّبوا أخيراً للقائه في دولة ثالثة. وفي ذات الوقت، كَانَت رحلته في أوروبا على وشك الانتهاء، وبدا أنه من الأفضل للطرفين أن يعود إلى عمله في الولايات المتحدة في منطقة فورت جوردون في جورجيا. تخيَّل كم يمكن لضابط حالة هنغاري أن يتيه عجباً أمام زملائه بأن لديه عميلاً في جورجيا الأمرِيكِيَّة البعيدة والغريبة، حَيْثُ عُيِّن هَذَا العميل مصادفة في مدرسة الإشارة، حَيْثُ الأكواد والتشفير.

لذا كَانَت الاجتماعات في دولة ثالثة متوترة وحافلة بالعمل العملياتي. وأحضر شمولكا الكرّاسات ووثائق غير ضارة كَانَ الهنغاريون قد طلبوها، وتلقّفوا هَذِهِ كإشارة على أنه بات الآن متورطاً. وأحضر بيرلا كي معه زميلاً -ربما رئيسه- واستخدم الاسم المستعار "فينس كونك". ووافقوا على منح أمه مُرتَّباً شهرياً من راتب شمولكا كعميل، ووعدوه مجدداً بأن يدفعوا لَهُ بسخاء لقاء المعلومات الَّتِي يسلّمهم إياها.

وحينذاك بدأوا بطلب المعلومات الضارة حقاً: خطط الدفاع الإستِرَاتِيجِيَّة، الأسلحة، خطط الاتصالات، القدرات النووية، مواقع صواريخ بيرشينغ، آلات التشفير، خطط الحَرْب لدى الناتو والولايات المتحدة؛ قائمة تسوّق طويلة كَانَ على شمولكا أن يأتي بِهَا

مُستفيداً من وميض أوراق اعتماده في مفرزة الأمن الجنائي لتجاوز الحواجز الأمنية ثُمَّ استخدام معدّات النسخ الَّتِي كَانَت جزءاً من معدات مفرزة البحث الجنائي الخاصة بِهِ، وكَانَ لبقاً جداً لدرجة أنه لم يسأل عن علاقة هَذَا بمتطلبات أمن دولة هنغاريا الصغيرة الفقيرة، فقد بدا طلباً روسياً.

والآن بالنسبة إلى الاتصالات، أوه نعم، قال ضباط جهاز أمن الدولة الهنغاري، يمكن أن نراك في كندا أو المكسيك، وإن ألحَّت الحاجة يمكن أن نراك في الولايات المتحدة، سنقول لك أين بالضبط. وفي نفس الوقت احفظ رجاءً هَذِهِ الإشارة المُتعارف عليها، وهَذِهِ ثلاثة آلاف دولارٍ مُقدَّماً، وسنعطيك عشرين ألف دولار لقاء واحدة من آلات تشفير الجيش الأمريكي، ولا تقلق سنعتني بأمك.

وعندما عاد شمولكا إلى الولايات المتحدة، انتقلت قضيته إلى اختصاص الإف بي آي بموجب القانون الَّذِي نصَّ عليه قانون الأمن القومي الصادر عام 1947. وبناءً على هَذِهِ السِّيَاسَة كَانَ يتوجَّب عليه أن يقابل اثنين من المُشغِّلين الأمريكيين؛ واحد من الجيش وواحد من الإف بي آي، ومن بين هذين الضابطين؛ اختير بالقرعة من تعيَّن عليه كتابة تقرير الاتصال المشترك للسي آي إيه، وكَانَت الغاية من العملية الآن كشف عُمَلَاء العدو في الولايات المتحدة.

كَانَ الهنغاريون حذرين، وشرح شمولكا لهم من خلال القناة البريدية أنه يجد صعوبة في تلبية متطلباتهم في الموقع غير الحساس الَّذِي عُيِّن فيه، وأن شارته كمفوَّض في البحث الجنائي ليست عصاً سحرية عندما يتعلق الأمر بالوصول إلى مواد في غاية السرية، وأن هَذِهِ الترتيبات البريدية كَانَت خرقاء، لما لا يقابلونه في المكسيك أو كندا كما وعدوا؟

لكن الهنغاريين كانوا عنيدين، فقد كَانَ معهم مستشارون روس غاضبون يشيرون إلى النتائج الهزيلة لِهَذِهِ العملية حَتَّى هَذِهِ اللحظة. وأرادوا رؤية شمولكا ثانية في بودابست، وأجاب بأنه لا يستطيع المخاطرة بإثارة شبهة السلطات الأمرِيكِيَّة حوله بذهابه ثانية إلى هنغاريا الشيوعية (في الواقع لم يُرِد مشغِّلوه الأمريكيون المخاطرة بحياته عبر إرساله إلى

أيدي المحققين الهنغاريين، الَّذِينَ قد يكونوا قد قرروا التعامل معه بخشونة في هَذِهِ المرحلة)، وفي النهاية وصل وسيط، وفي آذار من سنة 1981 طار شمولكا إلى أوروبا الغربية للقاء "بيرلا كي" و"كونك" في بلد ثالث، وأخذ معه عدة بكرات من الأفلام المُصَغَّرَة صنعها في فورت جوردان بإشراف عن كثب من مُشغِّليه الأمريكيين، وأدت هَذِهِ الأفلام المصغَّرة الحيلة المطلوبة.

لدى الهنغاريين الآن إنتاج متين يمكنهم أن يعرضوه على رؤسائهم الروس؛ ليس نظام تشفير وإنما بعض النسخ الحقيقية عن بعض الوثائق الأمرِيكِيَّة السرية. وأخذ الضباط الهنغاريون يتحدثون: "انظر كيف يحرِّكون فريقهم النووي وحراسهم عبر مدينة للتعامل مع تسرب مفاجئ، يا رجل سيحب جماعة التخريب السوفييت هَذَا" (أو أي شيء نحن أعطيناهم إياه.) أنا أُخمِّن فقط، لكن من المؤكَّد أن الأمر بدا أكثر إثارةً مِمَّا كَانَ، وشرب كُلّ من شمولكا وبيرلا كي وكونك معاً نخب هَذَا الإنجاز، وبعدها أعطى الهنغاريون لشمولكا نظاماً بريدياً جديداً أفضل من النظام السابق، وحدد نقاط الاجتماع في أطلنطا وأوغستا[1] الَّتِي من المُفتَرَض أن يجلب إليها وثائق عن الأسلحة النووية وأنظمة التشفير.

سحقاً، لن نتمكن من توفير المعلومات الَّتِي يطلبها الهنغاريون الآن، وما كَانَ الهنغاريون ليخاطروا بانكشاف أصولهم في الولايات المتحدة إلا من أجل مواد حساسة طلبوا من عميلهم تحصيلها. ومن جانبنا، لم يكن لدينا من خيار، اضطررنا "للمضي في عمل تنفيذي" (مصطلح يُساء استخدامه في الصحافة؛ فهو يعني ببساطة الاعتقال والملاحقة القضائية)، حَيْثُ نلتقط شارة شمولكا بأنه تلقى عنصراً مهماً، ربما شارةً مُشَفَّرَةً، ثُمَّ سنتلقَّف أياً كَانَ من يأتي إلى الاجتماع ومن ثُمَّ نعتصره حَتَّى نعرف كُلّ ما يعرفه من معلومات.

وهَذِهِ هي الطريقة الَّتِي سارت بِهَا الأمور في 17 نيسان سنة 1982، وكَانَ الرجل الَّذِي دخل سيارة شمولكا في مكان الاجتماع في أوغوستا هو أوتو جيلبرت، الهنغاري المولد، والَّذِي نال الجنسية الأمرِيكِيَّة، لكنه على خلاف شمولكا اختار المضي في طريق الخيانة.

[1] مدينتان في ولاية جورجيا الأمرِيكِيَّة.

وتبادل الاثنان كلمات السر واستوثق الاثنان من هوية بعضهما، وسلَّم شمولكا جيلبرت بعضاً من المواد السرية، ثُمَّ خرج جيلبرت من السيارة ليُعتَقَل على الفور.

عرف جلبرت الكثير عن جهاز الاسْتِخْبَارَات الهنغاري، وعندما واجه احتمال الحكم عليه بالسجن لمدة طويلة قرر الاعتراف بِكُلِّ شيء. وقضت صفقة الإقرار بالذنب أن يُحكم عليه بالسجن لخمس عشرة سنة. ويمكن أن يتساءل المرء كم من الوقت لبث في السجن قبل أن يُطلَق سراحه، لكن يمكن للمرء أن يخمِّن إنه كَانَ ثمة ما يكفي من الوقت لنا للقيام بتحقيقات شاملةٍ معه.

هل كَانَ الثمن المدفوع لجلبرت مقابل خيانته أكبر من الثمن المدفوع لشمولكا مقابل ولائه؟ ماذا جرى لوالدة شمولكا وأخته؟ عندما تنتقل إلى عالم عَمَلِيَّات العُمَلَاء المزدوجين، يَجِبُ أن نتوقع بعضاً من تأنيب الضمير عندما تتخذ بعض القرارات القاسية الَّتِي تتعلق بحياة أُناس آخرين.

الطعومُ الخاضعةُ للسيطرة والأعمال الحرة:

الطعم هو عميل تشغّله أنت ليجنّده العدو وليؤدي عمله السري تحت سيطرتك كقناة وسلاح ضد عدوِّك. لو كَانَ جانوس شمولكا قد أُرسِل عمداً إلى بودابست ليعرض نفسه على جهاز أمن الدولة الهنغاري (لا شك وأن جهاز أمن الدولة الهنغاري والكي جي بي يعتقدان ذَلِكَ الآن) لكَانَ عندها طُعماً.

لكن كن حذراً من مُغامِر يحاولُ أن يجعل نفسه طعماً، ثُمَّ يأتيك بحالة عميل مزدوج مُعَدّ مسبقاً. غالباً ما يبني هؤلاء المغامرون معلوماتهم عن عمل الجواسيس على قراءة الروايات الجاسوسية ومشاهدة التلفاز.

أتذكَّر امرأة كَانَت هوايتها النوم مع ضباط يعملون مع أجهزة استخبارات معادية، كَانَت ممرضة، وأمينة مكتبة، ومعلمة أو أي شيء من هَذَا القبيل مِمَّا مكَّنها من الحصول على أعمال لدى الجيش الأمريكي خارج الوطن أو البعثات الدبلوماسية أو منشآت المساعدات الأجنبية. تعرض نفسها على الدوام على أنها أمريكية حقيقية عرفت الكثير من الأمريكيين الحقيقيين -منهم الضباط العسكريون، الدبلوماسيون في السفارات، موظفو إشارة، وسكرتيرات- وكَانَت تقول باستمرار أن لديها حياة جنسية منعزلة، لأنها في الواقع ليست جذّابة جنسياً كثيراً.

وبمجرد أن تبدأ بالنوم مع روسي أو بولندي كَانَت تبلغ أقرب ضابط مكافحة استخبارات، وبالتالي تبرِّئ نفسها من شبهة الخيانة، وتواصل مغامرتها الجنسية بتوجيه من ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات. المشكلة هي أنها كَانَت غبية، فلم تكن متعلّمةً حول عمل التَّجَسُس الحقيقي، ولم تتمكن من تنفيذ التوجيهات، فقد كَانَت غبية للغاية، ومقتنعة تماماً بنظرتها عن نفسها وهي أنها ماتا هاري.[1] كَانَت مزعجة وكادت أن تصبح نكتة لدى كُلّ أجهزة المخابرات

[1] مارغريتا غيرترويدا ماكلويد، المعروفة باسم المرحلة ماتا هاري، كَانَت راقصةً ومومسةً هولنديةً غربية أدينت بالتَّجَسُس لألمانيا خلال الحَرْب العالمية.

الَّتِي عرفتها سواءً كَانَت شيوعية أم معادية للشيوعية أم محايدة. لقد ضيَّعت الكثير من وقت الجميع. ولم أعد أذكر ما جرى لَهَا لاحقاً، لكن من يبالي؟

مستوياتُ الاتصالِ بالعدو:

كلمة مستوى مصطلح ينم عن الغرور، ويمكن أن يضللك، كما يمكن أن يضلل الإدارة العليا المسؤولة عنك. السكرتير الأول للسفارة، لو كَانَ عميلاً لجهاز تَجَسُس، فإنه يبدو بمستوى أعلى بكثيرٍ، وإن جنَّدته كعميل مزدوج ليعملَ ضد جهاز التَّجَسُس هَذَا، فسيلقى عملك هَذَا الترحابَ والتقديرَ في أروقة المستوى الأعلى من عملك. وفي الحقيقة فإن موظَّف الإشارة الَّذِي ينال أجراً مُتَدَنِّياً والَّذِي لا يُدعى أبداً إلى الاستقبالات في السفارات يمكن أن يكون أكثرُ نفعاً كجاسوس من دبلوماسي. وينطبق هَذَا أيضاً على مساعد السكرتير الأول، الَّذِي يكون لديه فكرة أفضل بكثير عن المكان الَّذِي توضع فيه ملفات المواد السرية من رئيسه. فلديه حياة خاصة بعيدة عن الشبهات مِمَّا يسهِّلُ الاتصال بِهِ سراً. ولديه تواصل مع المساعدين الآخرين، ومع موظفي الشيفرة، وربما مع أشخاص قيِّمين "مستواهم ليس عالياً" لم يكن رئيسه يحلمُ بهم.

تكتب الإدارة العليا لديك تقارير دورية لتبرر تخصيص الموارد، ويقرأ السياسيون والبيروقراطيون الَّذِينَ ينظرون إلى عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات بنفس الطريقة الَّتِي ينظرون فيها إلى فرع من وزارة الفحم والنفط أو مكتب التماثيل والآثار، فينبهرون بتجنيد السكرتيرة الأولى ولا يلقون بالاً لتجنيد سائق سيارة الأجرة. وفي الواقع فإن سائق سيارة الأجرة الأُمِّي الَّذِي جنَّدته في الخرطوم أو تيجوسيجالبا[1] كَانَ العميل الرئيسي للكي جي بي وكَانَ مسؤولاً عن فريق مراقبة، لكن رغم ذَلِكَ لا يضعه هَذَا على رأس القائمة أمام السكرتير الأول، هَذِهِ القائمة الَّتِي تعرضها على السياسيين والبيروقراطيين الَّذِينَ يصرفون لك المال، بينما يحتل هو مرتبة متقدمة عن السكرتير الأول في القائمة الَّتِي تحتفظ بِهَا لديك على المستوى المنخفض.

---

[1] عاصمة الهندوراس.

كن على ثقة بأن عدوك في الخرطوم أو تيجوسيجالبا ليس انتقائياً حول مستوى عملائه (على الرغم من أن إدارته العليا قد تكون انتقائية)، ضع في الحسبان، على سبيل المثال، عملية لضابط الكي جي بي أوليج ليالين، الَّذِي عمل في إنكلترا، جنَّد موظَّفاً في ذاك القسم البيروقراطي من لندن الَّذِي يتعامل مع رُخَص المركبات والدراجات. وتمكَّن هَذَا العميل الملاوي واسمه "سيريوج حسين عبد القادر" من تقديم قائمة من وثائق تسجيل السيارات وترخيصها مِمَّا كَانَت قد وُضِعَت عليها شارات في الملفات تميِّزاً لَهَا وكي لا يستأجرها شخصٌ آخرٌ، لأنها تخص جهاز الأمن البِرِيطَانِيّ (MI16) ويستخدمها لأغراض المراقبة. وقَدَّمَت القائمة للكي جي بي ميزة كبيرة في لعبة الأرنب وكلاب الصيد الَّتِي يلعبها ضباط حالة الكي جي بي وال MI5.

ومثل ليالين، من الأفضل أن تكون انتقائياً حول المستوى الاجتماعي لِعُمَلَاء الدعم لديك، امتدح السكرتير الأول الَّذِي جندته كعميل مزدوج، واستخلص منه من المعلومات بأقصى قدر تستطيعه، واكتب تقارير عن اتصالاته بأعدائك بأفضل طريقة نثرية ممكنة، لكن لا تنسَ أن تترك عملية سائق سيارة الأجرة تمضي في طريقها، فربما ستجد فريق مراقبته يتعقب سكرتير السكرتير الأول الَّذِي جنّدته كعميلٍ مزدوجٍ.

تخصيصُ الموارِدِ:

يُقال أنه عندما التهم طائر أبو الحنَّاء الرفيع المستوى الدودة وضيعة المستوى انتابها تدريجياً شعور بأنها طائر أبو الحناء، وكجزء من طائر أبو الحناء بدأت الدودة ترى أكل الدود أمراً طبيعياً وأخلاقياً وفعّالاً. إذاً ربما تُصاب بمتلازمة الدودة عندما تجد نفسك جزءًا من تِلْكَ الإدارة العليا الَّتِي استأت منها البارحة بشدة. أنت مسؤول اليوم عن تخصيص الموارد لتنظيم مُعيَّن وضمن مناطق مُعيَّنَة. يَجِبُ عليك الآن أن تبرر قراراتك للبيروقراطيين والسياسيين، لن ينتابك الغرور كثيراً حول المستوى الَّذِي وصلت إليه ولكنك ستجدُ أيضاً كافةَ برامجِ العُمَلَاءِ المزدوجين في تحدٍّ لإثبات أن الفاعلية ترقى إلى مستوى التكلفة.

يكون تحدّي الحصول على الميزانية لبرامج العُمَلَاء المزدوجين قوياً للغايةِ عندما يصدف أن يكون جهازك غنياً بالمنشقين والاختراقات. تسأل الإدارة: لماذا؟ نواصل مع هَذَا المستوى الخفيض من حالات العميل المزدوج في حين تَرِدُنا كُلّ هَذِهِ المعلومات الرائعة من قلب قلعة العدو؟ ستقول لك الإدارة أغلق ملفات العُمَلَاء المزدوجين، وأوكل إلى مشغِّليهم أعمالاً أخرى.

حدث مثل هَذَا الاستغناء عن أعضاء شديدي الأهمية فيما مضى، لن أروي شواهد محددة، لكن كَانَت النتيجةُ سيئةً وأدت إلى الندامة. لقد غاب عن أذهان المدراء "شديدي الكفاءة" أن المعلومات الَّتِي تأتي من منشقين تُسرِعُ إليها الشيخوخة وأن مجنَّدي الاختراق يسارعون إلى الانتحار. وبالتالي لقد وجدوا أنفسهم وحيدين، عميان وبلا اتصالٍ مع العدو.

(10)

العُمَلَاءُ المزدوجون كيفَ تحصلُ عليهم؟ وكيفَ تحافظُ عليهِم؟

الهدف الأول من أي برنامج عميل مزدوج هو الاقتراب من العدو، ولا يقتصر هَذَا عادةً على الأعداء بل على المُنافِسين المُحتَمَلين والَّذِي يظهرون عَرَضاً.

ليس كُلّ من يحاول اختراقك عدو. عندما حاول الأمريكيون اختراق جهاز الاسْتِخْبَارَات السنغافوري المُسمَّى: الفرع السنغافوري الخاص، وتحوّل اختراقهم إلى عميلٍ مزدوجٍ ضدهم على يد رئيس الوزراء "لي كوان نيو" بنفسه. لم يكونوا أعداءً لسنغافورا، ولم يعتقد أي من أعضاء الحكومة السنغافورية هَذَا، لكن رغم هَذَا أدار السنغافوريون حالة عميل مزدوج ضدنا، وهَكَذَا ينبغي أن تكون إزاء أي جهة تحاول أن تَدُسَّ السُّمَّ في العسل.

لا يلعب أحدٌ الألعاب لمجرد اللعب، وعندما يتَّضِح أن العدوّ الَّذِي يحاول اختراقك صديق فأفضل ما تفعله هو ما فعله السنغافوريون؛ خذ غفوةً سريعةً، لكن لا تفوّت نصيبك من المرح قدر المُستطاع على حساب خصمك. في بعض الأحيان تجد لخصمك الصديق سبباً وجيهاً، ربما اشتبهَ باختراق معادٍ حقيقي لاستخباراتك وأراد أن يُلقي نظرةً عن كثب على جهازك الاسْتِخْبَارَاتِيّ من الداخل. فإن كَانَ على خطأ فلقّنه درساً خفيفاً، ثُمَّ تابع عملك ضدّ العدو المشترك.

المهمة الأولى والمستمرة في أي برنامج عميل مزدوج هي تطوير الأدلة، وما يترتب على هَذَا من تحقيقات وتخطيط مِمَّا قد يُفضي إلى التجنيد وهو الجزء الهيّن من العمل.

تقييمُ أعدائِكَ:

تقييم الأعداء يبدأ بتقييم بيئتك، وفيما يلي بعض المسائل الَّتِي ينبغي أن تأخذها في الحسبان:

ما الَّذِي يستحقُ السرقةَ لديك؟

إن كَانَت بيئتك تشملُ وحدةً عَسكَرِيَّةً، أو منشأة أبحاث نووية، أو سفارةً، أو ضابطَ استخبارات، أو معملاً، أو مكتب التخطيط لمؤسسة على صلة بحكومتك، فمن الأفضل عندئذٍ أن تنشغلَ بإعداد القوائم عما يوجد هناك ومكان تخزينه.

من يريدُ سرقتَكَ؟

خلال الحَرْب الباردة، كَانَت الإجابة الأولى على سؤال: **من يريد أن يسرق منك؟** هي على الدوام: "جهاز استخبارات من الكتلة السُّوفيَاتِيَّة". **مَن بَعْدَهُم يريدُ أيضاً أن يستهدفَ منطقةَ نفوذك؟** هَذَا يعتمد على ماذا هُنَالِكَ لِيُسرَقَ. ربما لا يكون الهولنديون مُهتَمِّين بالقاعدة الجوية في المحيط الكاريبي، ولا يكون الأرجنتينيون مُهتَمِّين بالقاعدة البحرية في المحيط الهندي، ولا يكون الهنود مهتمِّين بالقنصلية في أوكلاند. لكن إن وجدت رجلاً لطيفاً يعمل في جامايكا جنوب كوبا، يدعي أنه هولندي، فابحث عن الراية المُستعارة؛ راية هولندية ترفرف على سارية تشيكية على سبيل المثال. في مثل هَذِهِ الحالة، ستكفي محادثة لخمس دقائق بين الهولنديين وممثلين من طرفك في لاهاي أو في عاصمة بلادك للوصول إلى بداية لطيفة لعملية مكافحة تَجَسُس مشتركة.

من ناحية ثانية، ربما نتوقع من الهولنديين أن يهتموا بأي شيء يتعلق بجزر الهند الشرقية الهولندية السابقة، والَّتِي باتت خامس أكبر دولة في العالم واسمها إندونيسيا، والمناطق المجاورة لَهَا: الفيليبين، وماليزيا، وسنغافورا، وأستراليا. قد لا يقومون بأي أعمال عدائية ضدك في هَذِهِ المناطق، لكن لا تظنَّنَ أنهم يفعلون هَذَا لطيبة قلوبهم. ولا تغضب إن فعلوا، فأسبابهم واضحةٌ تماماً ولا تقلُّ أخلاقيَّةً عن أسبابك. كما أن ضباط المخابرات لديهم لا يقلُّون مهارةً عن مهارة ضباطك.

من يملكُ أدواتِ العملِ؟

لعبة الأرقام المفضَّلة الَّتِي كَانَ بوسعك أن تلعبها مع المُشرِّعين أو أعضاء البرلمان خلال الحَرْب الباردة كَانَت مقارنة عدد التشيك والبولنديين والهنغار والصينيين والكوريين الشماليين والفيتناميين الشماليين والكوبيين والرومان والبلغار والدبلوماسيين السوفييت (وعدد غير محدد من ضباط الاسْتِخْبَارَات) الموجودين على أرضك مع عدد مواطنيك في أي بلد، إذ تجد عند المقارنة أنهم كانوا يفوقونك عدداً حَتَّى مع عدد مواطني الدول الحليفة لك والمتواجدين في أي بلد من هَذِهِ البلدان. وحَتَّى في الولايات المتحدة، عند مقارنة عدد أفراد الإف بي آي، ستجد أن عدد أفراد أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأخرى تفوق عددهم إذا أخذت في الحسبان الجواسيس المقيمين الَّذِينَ يستهدفون الولايات المتحدة من أوتاوا[1] ومكسيكو سيتي[2] جنباً إلى جنب مع أولئك في واشنطن والأمم المتحدة في نيويورك.

لذا إن أردنا الإجابة على سؤال: "من لديه الأدوات؟" علينا أن نعرف أولاً: حجم وقُرب منشآت العدو الرسمية. فالمنشآت الضخمة تعني جهازاً ضخماً -الكثير من الأدوات- والبيوت الآمنة، فرق مراقبة، صناديق ميتة، مراقبون، مشغِّلو راديو، مشغِّلون للعملاء، ومُتَعامِلُون وربما بعض عُمَلَاء التبليغ في المكان.

لكن إن صَدَفَ وكنت مُنْعَزِلَاً عن منشآت العدو الرسمية، فما العمل عندئذ؟ حسناً لديك لعبة أمتع: الجواسيس القانونيون أو أنصاف القانونيين. هَذَا المصطلح مُحرِج لدرجة أنه لن يكون ضرورياً إن تمكَّن السُّوفيَات من اتباع مفهومهم الأصلي الخاص عما هو غير قانوني؛ مواطن سوفيَاتِيّ أعطوه هويةَ وجنسيةَ بلد آخر كغطاءٍ لَهُ. لكن نادراً ما كَانَ غير القانونيين المشهورين من المواطنين السوفييت الأقحاح، لأنهم اضطروا للعيش كمواطنين غير روس ("الغطاء المُستدام").

[1] عاصمة كندا.

[2] عاصمة المكسيك.

عاش الروسي "كولان مولودي" أربع سنوات من طفولته في كاليفورنيا قبل أن يصبح الكندي جوردان لونسدال. وعاش ويليام فيشر من ميلاده حَتَّى سن الثامنة عشرة في إنكلترا قبل أن يصبح العقيد السُّوفيَاتِيّ رودلف آبل ثُمَّ أُدخِل إلى صفوف اللاجئين المهاجرين إلى أمريكا باسم إيميل جولدفس. وعاش الأوكراني البولندي المولد "ليوبولد تريبر" في فلسطين وجنوب فرنسا قبل الانضمام إلى مديرية الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة الروسية (من الكومنترن)،[1] ثُمَّ أُرسِل إلى بلجيكا كمواطن كندي باسم آدم ميكلر، وغيَّر هويته لاحقاً إلى اسم الكندي جين جلبرت موسِّعاً عملياته في باريس.

هَذِهِ الأيام، يمكن توكيل مهمة تشغيل عميل مقيم "غير قانوني" لشخص من أي جنسية، حَتَّى من أولئك الَّذِينَ لديهم غطاء طبيعي بأسمائهم الحقيقية. وتتوافر البيئة الملائمة لأجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية لدسِّ قادة محطات التَّجَسُس في جماعات المهاجرين. وبما أن مهمة رئيس المحطة غير القانوني تقتصر بنسبة تسعين في المئة على الاتصالات عبر الكتابة السرية، وعبر الراديو والبريد السريع، فعليك بالاستفادة من معدات التحقيق الخاصة بك لتطوير الأدلة عبر مراقبة أي نوع من الاتصالات غير المشروعة. ثُمَّ جنِّد بعضاً من العُمَلَاء المزدوجين بِشَكلٍ مدروسٍ للحصول على مزيدٍ من المعلومات.

لكن اكتشاف كتابة سرِّية أو كتابة مُصغَّرة يتطلب برنامج اعتراض بريد، وهَذَا غير قانوني. آه، إن كُنْت تعمل خارج بلدك، ربما تجد أن هَذَا غير قانوني، بينما يمكن للبلد المُضيف أن يعترض البريد كما يشاء. كما أنه إن كُنْت تعملُ في الخارج فأنت نفسك لست قانونياً. فالتجسس ومكافحة التَّجَسُس هما عملية سرقة بالتعريف، ويجرِّمُهما القانون عادةً. ويَجِبُ أن تتعايش مع كونك مجرماً خارج بلدك وأنك تكسب راتبك في مقابل ذَلِكَ.

في الوطن، يتجلى عملك في إنفاذ القانون، فإن كَانَ هَذَا القانون يمنع قراءة بريد الآخرين، فببساطة شديدة لا تفعل ذَلِكَ. لكن في معظم البلدان، يوجد أحكام ضمن القانون لتشريع

---

[1] كَانَت الأممية الشيوعية (الكومنترن)، المعروفة أيضاً باسم الأممية الثالثة (1919-1943)، منظمة دولية دافعت عن الشيوعية العالمية... عقد الكومنترن سبع مؤتمرات عالمية في موسكو بين عامي 1919 و1935.

الاستجواب الَّذِي تُجريه الأجهزة المختصة، وبالتالي ستتلقى من الجهة الَّتِي تعمل لصالحها توجيهات واضحةً فِي هَذَا الخصوص.

من لديك يستحقُ التجنيدَ؟

لسرقة ما لديك، يضطر خصمك لاستخدام الناس. ويتعيَّن عليه تجنيد عُمَلَاء لهم حق الوصول. لذا فأولُ سؤال هو: من يصل إلى قائمة المعلومات الحساسة الَّتِي كُنْتَ قد حضَّرتها؟ يَجِبُ أن تخوضَ عملاً شاقاً لنسخ الجداول وإعداد القوائم (لتحديد قائمة الأشخاص الَّذِينَ نثق بهم لمنحهم تصريحاً للوصول إلى المعلومات)، ولا تعتمد على قوائم أشخاص لديهم تصاريح أمنية قام شخص آخر بتجميعها. هَذِهِ الأيام، نصف العالم لديه تصريح أمني، والنصف الآخر لديه إمكانية الوصول لما هو ليس مُصَرَّحٌ لَهُ.

عزاؤك هو معرفة أن قوائمك ستكون أفضل وستتطلب عملاً أقل من ذات القوائم الَّتِي يضعها عدوك، إذ يتعين عليه أن يعمل بجدٍ أكبر للحصول على نفس المعلومات. وستجد عزاءً أكبر لأن قوائمك يمكنها صياغة المعلومات الأساسية لبرنامج "انزلاق" (طعم).

الوصول إلى مواد حساسة هو السبب الأول الَّذِي يدفع العدو للاهتمام بك شخصياً. تذكَّر حالة أوليج تومانوف، البحار الروسي ذو الواحد والعشرين عاماً والَّذِي قفز من سفينة فِي شهر تشرين الثاني سنة 1965 لينضم للجانب الأمريكي، فلم يخضع سوى لتحقيق روتيني بسبب قلة المعلومات الَّتِي بحوزته، ثُمَّ عمِل فِي راديو ليبرتي[1] فِي ميونخ على ما أذكر، وبعدها بعشرين سنة اختفى ليظهر بعدها بفترةٍ قصيرةٍ فِي إذاعة موسكو يقدِّم بروبوغاندا مضادة للسي آي إيه.

يحق لنا الآن أن نعتقد أن الكي جي بي جنَّدته فِي مرحلة ما، فلدى الكي جي بي أجهزة مُلحقة بأجهزة المخابرات مُكلَّفَةٌ بتعطيل وتدمير تنظيمات اللاجئين المعادية للسوفيات من قبيل راديو ليبرتي وراديو أوروبا الحرة اللتان تعتمدان على مواهب من هَذَا القبيل. لطالما

[1] راديو أوروبا الحرة/راديو ليبرتي مُنظَّمَة تموِّلها حكومة الولايات المتحدة وتبثُّ وتُقدِّم تقارير الأخبار والمعلومات والتحليلات إلى بلدان فِي أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى والقوقاز.

كَانَ تدمير الإذاعات نفسها هدفاً للكتلة السُّوفيَاتِيَّة، وجنّدوا عدداً كبيراً من الموظَّفين لزراعة القنابل في دورات المياه والوشاية باللاجئين وإعدادِ برامجَ يُعرِضُ فيها "الشر المتأصِّل" في راديو ليبرتي وأوروبا عُمَلَاء السي آي إيه المجرمين.

ويأمل المرء -بدافع إنساني- أن يكون تومانوف قد وجد الحياة في الاتحاد السُّوفيَاتِيّ حافلةً بالحرية والراحة كما الحياة الَّتِي قضاها في ميونيخ. مع العلم أن كمية المعلومات الحساسة عن الأغراض العَسكَرِيَّة أو السِّيَاسِيَّة الَّتِي وصل إليها في ميونيخ والَّتِي يمكن للاتحاد السُّوفيَاتِيّ استخدامها ضد الولايات المتحدة أو ألمانيا الغربية مُسجَّلةٌ في مقر قيادة الكي جي بي على ورقة واحدة لا غير (لأنها ضئيلة جداً). كالآتي: "راديو ليبرتي وراديو أوروبا الحرة منشأتان أمريكيتان للبروبوغاندا وتعملان انطلاقاً من ألمانيا الغربية، وكانتا تحت إدارة السي آي إيه في وقت من الأوقات. وتضم إدارتهما جنرالاً سابقاً في الجيش الأمريكي وعضواً سابقاً في مجلس الشيوخ. ويضم فريق العمل العديد من الأشخاص ممن هربوا من نظامنا القضائي والمُعادِين لحكومتنا، فطواقم عمل الإذاعات لا يمكنها الوصول إلى المعلومات العَسكَرِيَّة أو الاقتصادية أو التقنية أو السِّيَاسِيَّة عن الولايات المتحدة أو ألمانيا الغربية. وقدَّم العميل تومانوف جداول وقوائم بموظفي الإذاعة".

وكَانَ الضرر الَّذِي تسبب بِهِ تومانوف في الحد الأدنى، لكن كَانَت الفائدة منه فيما لو انكشف وحُوِّل إلى عميل مزدوج ستكونُ كبيرةً جداً لبرنامج الغرب للعملاء المزدوجين. لماذا؟ لأنه كَانَ سيبعث بتقارير عن التقنيات المُستخدمة في التجنيد والتعامل مع الكي جي بي وعن نيَّاتِهم: من هم الموظَّفون الآخرون الَّذِينَ تبحث عنهم الكي جي بي لتجنيدهم؟ وما هو نوع التخريب الَّذِي كانوا يخططون لَهُ؟

ومن كَانَ مُشغِّل الكي جي بي الَّذِي يعمل معهم تحديداً؟ هَذَا بالذات مُهم لأن الكي جي بي استفادت من عَمَلِيَّات تجنيد اللاجئين بِشَكلٍ روتيني كتدريب عملي لضباط الحالة الأغرار، وغالباً ما يتولى هؤلاء مهام أكبر فيما بعد، لقد احتجنا أن ننجز عملاً مهماً في وقت مبكِّر (ربما في الحقيقة، اكتشف الألمان أو الأمريكيون تومانوف وجنَّدوه كعميلٍ

لهم، لكنهم خافوا من فكرة أن يتحوَّل إلى عميل مزدوج بأيدي أعدائهم فقرروا سحبه عبر تهديده بأقربائه. هَذَا ما لا أعرفه، ولا تهمني معرفته، لأني لست بحاجة إلى ذَلِكَ).

يكفي حديثاً عن تومانوف، ضع في ذهنك أن الناس في منطقة نفوذك قد لا يتمكنون من الوصول إلى مواد حساسة، لكنهم يصلون إلى أشخاص آخرين ممن يمكنهم الوصول إلى مثل هَذِهِ المواد. إنهم "فريسة" مُحتَمَلَة لِعُمَلَاء مُحتَمَلين. ولا تنسَ أن الضابط الَّذِي يعمل على برنامجِ تَجَسُس لأي جهاز استخبارات يحتاجُ دوماً عُمَلَاء دعم، عناوين إقامة ("الصناديق الحية")، سعاة، عُمَلَاء لتفريغ "الصناديق الميِّتَة" (لتفريغ المخابئ السرية) مُراقبين، مُدبِّرين للبيوت الآمنة (للحفاظ على ما يسمِّيه السُّوفيَات "مساكن المؤامرات" كأماكن لإجراء الاجتماعات وكمخابئ)، رجال أقوياء، وهلم جرٍ. من مِن أفراد قوائمك سيكون مؤهَّلاً؟ ومن سيكون ضعيفاً؟

ما تفعله حول نقاط الضعف سنتطرق إليه فيما بعد في فصول "العُمَلَاء مُعادو التوجيه" والعُمَلَاء من نوع "الطعوم". ويكفي هُنَا أن نقول إنه لا يمكنك ولا ينبغي لك أن تحشر أنفك في الحياة الخاصة لِكُلِّ شخصٍ على قوائمك للناس الَّذِينَ يستطيعون الوصول إلى المواد الاسْتِخْبَارَاتيَّة، إذ ستكسر عندئذ باب الأخلاق، وستجلب لنفسك الكثير من العداوات، وتبدد الكثير من الوقت.

ترتيبُ الأدلةِ:

في الوطن أو في الخارج، ستكون قِواكَ البشرية ووقتك محدودين على الدوام. والطريقة المؤكدة لهدر كُلّ منهما هي إهمال دراسة الأدلَّة، الَّتِي تستغرق هي الأخرى القوة البشرية والوقت. **القاعدة الَّتِي تفرضها الخبرة في معظم الحالات هي تخصيص ثلث قوَّتك البشرية وثلث وقتك لإعادة ترتيب الملفات للأدلة.**

ستسأل إدارتك لماذا، ثلث وقت كُلّ شخص؟ لماذا ليس ثلث الوقت فقط أو نصف وقت القائد وفريقه؟ ألا يستطيعون إنجاز كُلّ الأعمال الورقية ومن ثُمَّ يصدرون الأوامر للناس في الشارع، الَّذِينَ يستطيعون تخصيص كامل وقتهم لعملهم في الشارع؟ الإجابة: ربما تعمل

هَذِهِ الطريقة في منطقة مخفر الشرطة (رغم أنني لم أجدها تجدي نفعاً عند التطبيق)، لكن في ورشة عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات يَجِبُ على الجميع أن يكونوا باحثين، ويساعدهم باحثون في المكتب الأول، وإلا فلن تُلاحَظ التفاصيل، وستضيع الفروقات البسيطة، وتبدأ الحالات بالتميُّع بسبب حادث غير متوقع أو حادث لا يمكن تجنُّبه. كم ننسى أنه حَتَّى في بيروقراطياتنا الَّتِي تسبق أعدائنا بأشواط، تحصل حوادث نتيجة استغراق الناس في النوم وتقطع الكابلات وضرب البرق لخطوط الكهرباء. حَتَّى أن السياسيين لدينا يثقون بآرائهم الخاصة أكثر مِمَّا يثقون بالحقائق.

بما أن، حالات العُمَلَاء المزدوجين الجيدة يَجِبُ أن تكون مُجزَّأة، لا يحتاج الجميع في ورشة مكافحة الاسْتِخْبَارَات أن يعرفوا كُلّ الحالات ولا يَجِبُ أن يعرفوا. هَذَا عمل القائد ومرؤوسيه، لكن رغم تقسيم العمل، ولأن رأيين أفضل من رأي واحد؛ ينبغي على ضابط الحالة أن يشارك في البحث الَّذِي يقوم بِهِ الضابط المكتبي عن الحالات الَّتِي يعمل عليها، والضابط المكتبي ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار حدسَ وتخمينات ضابط الحالة الَّذِي يخاطر بحياته عادةً، والَّذِي يستوعب الحالة الَّتِي لا يمكن للشخص المكتبي فهمها.

سيتناول الفصلان 16 و17 آليات الترتيب الَّتِي يَجِبُ على كُلٍّ من ضابط الحالة والضابط المكتبي استخدامها.

العُمَلَاءُ المُعادُ توجيههم:

تلاحظ مساعدة المدير الَّتِي تعمل في شركة لصنع شرائح مخصصة لأجهزة الحاسوب بموجب عقد مع سلاح الجو أن صديقها الحميم لا يهتم بِهَا شخصياً بقدر ما يهتم بقدرتها على العمل حَتَّى ساعة متأخرةٍ من الليل بجوار القبو الَّذِي يُحتَفَظ فيه بالمواصفات الفنِّيَّة لسلاح الجو لبلدك. وعندما يطلب منها هَذَا الصديق الحميم اكتشاف ما يحويه القبو، ربما تصطدم عندئذٍ بحقيقة أنها تعثَّرت بجاسوس.

ما تفعله هَذِهِ المُساعِدَة في المرحلة التالية يعتمد جزئياً على كيف أدى أقرب ضباط الأمن إليها عمله، وجزئياً أيضاً على درجة كفاءتك كضابط مكافحة استخبارات، في أداء مهمتك.

هل تعرف هَذِهِ المُساعِدَة إلى أين تذهب لتتلقّى المساعدة؟ هل تثق بأن ضباط الأمن الَّذِينَ ستقابلهم يحترمون خصوصيتها؟ يتفهَّمون خصوصياتها؟ لحماية عملها وسلامتها الشخصية؟ هل تعتقد هي أن رجال الأمن أجلاف أغبياء أم أنهم لطفاء؟

ولا يَجِبُ أن يُفهَمَ من هَذَا المثال ضمناً أن النساء أكثر ضعفاً من الرجال، فالنساء بِكُلِّ تأكيد لسْنَ كذلك، ويمكنني أن استشهد ببعض الأمثلة عن رجال من مختلف الأعمال خضعوا للابتزاز مِمَّا يعكس هَذَا الاعتقاد، واستشهدت هُنَا بحالة افتراضية لمُساعِدَةٍ أنثى لأنهن في العديد من الحالات يتمَّتعن بالقدرة للوصول إلى معلومات حساسة على الرغم من أنهن يتعرضن للتجاهل وتضعهن الإدارة اجتماعياً على الهامش.

وبالنسبة لك هل لديك إجراءات أمنية محددة مفهومة من الطرفين عمن ستلجأ إليه المرأة (أو الرجل) أولاً؟ أنت وضباط الأمن هل تعرفون بعضكم بِشَكلٍ شخصي وتحبون بعضكم؟ هل هُنَالِكَ انزعاج من أي من الإجراءات القضائية؟ الشجار حول الجهة المُختَصَّة شائع في كُلّ المواقف البيروقراطية. الترتيب الَّذِي لا يختلف اثنان على أنه الأمثل هو أن يكون ضابطُ الأمن ضابطَ مكافحة استخبارات أوكِلَت إليه وظيفة الأمن، بينما يكون ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات ضابط أمن أُوكِلَت إليه وظيفة مكافحة الاسْتِخْبَارَات. هَذَا الافتراض قريب جداً من حقيقة أي حالة أمنية أو حالة مكافحة استخبارات، وفي الواقع يرتدي ذات الشخص القبعتين في بعض الأحيان.

اعمل على حل المشكلة بينكما وتابع العملية: جنِّد المُساعِدَة كي تصبح عميلةً مزدوجةً لك، استجوب صديقها بِحَيْثُ تعتصره اعتصاراً، وتعامل مع القضية بمهارة.

هَذَا مثال افتراضي (على الرغم من أنه ليس تخيلياً بالكامل)، لكن المبادئ تنطبق على كُلّ عَمَلِيَّات العميل المُعاد التوجيه الَّتِي تبدأ بمتطوع. للحصول على متطوع أو متطوعة يَجِبُ أن تكون مستعدّاً لَهُ، أو لَهَا.

الأمن والأخلاق:

في بعض الأحيان يتصارع الأمن مع الوازع الأخلاقي، لا أحد يحبُّ أن يراقبه مكتب سري يحتوي الكثير من الملفات السرية والكثير من العُمَلَاء السريين. لتكون فعَّالاً، لا ينبغي أن يكون لدى التنظيم السري "علاقات عامة جيدة" فحسب، بل يَجِبُ أن تعتمد على هَذِهِ العلاقات للمشورة والتشجيع والمساعدة في كافة المشكلات الَّتِي يتعرّض لَهَا أفراد الجهاز. دعوني أروي لكم قصةً حقيقيةً:

كَانَ ثمة وكالة حسَّاسة تابعة للحكومة الأمرِيكِيَّة تعمل فيها سكرتيرة كفؤة ومؤهلة اسمها "سو"، وكَانَت متزوجة بشاب اسمه فريد من خارج الوكالة، وكَانَت هوايته سباقات الدراجات النارية. وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع، ذهبت سو لمشاهدة زوجها يشارك في سباق كبير لمضمار طويل في ولاية أخرى، وانفجر الإطار الخلفي لدراجة فريد وهو يسير بسرعة 110 كم/ساعة فتحطّم جسده وتعرَّض للعديد من الكسور من بينها كسور في الفقرات.

اتصلت سو الَّتِي اضطربت بشدة برئيسها في العمل وأخبرته بما جرى، وطلبت منه إجازة طارئة كي تحجز غرفةً في فندق لَهَا ولطفليها الصغيرين حَتَّى يتسنَّى لَهَا ترتيب العملية الجراحية لفريد وإجراءات المشفى ورعايته لعدة أسابيع. واتصل المدير الَّذِي كَانَ منزعجاً بمكتب أمن الجهاز، وقال لهم أن لدى السكرتيرة تصاريح عالية للغاية وطلب منهم العناية بِهَا. وبالتأكيد كَانَت هَذِهِ ذريعةً، لأن سو ورغم كُلّ تصاريحها لم تكن في خطر من تسريب المعلومات من غرفة الفندق أو من المشفى أو أن يجبرها أي شخص على تسريب المعلومات، وعَرَفَ المكتب الأمني هَذَا. ومع هَذَا أرسل المكتب الأمني فريقاً إلى المدينة الَّتِي تقطّعت فيها السبل بسو وفريد والطفلين، ورتَّب لقرض من الاتحاد الائتماني لتغطية نفقات الطوارئ، واتصل بالشرطة المحلية، ورتَّب لِعَمَلِيَّاتِ التفتيش الدورية لفريد والمشفى وسو والفندق، وأعدّوا اتصالاً بين سو والقس المحلي في كنيستها، وأخطروا رئيس سو في اليوم التالي أن كُلّ شيء على خير ما يرام.

هل كَانَ هَذَا تبديداً لأموال المكتب الأمني وأموال دافعي الضرائب؟ بل كَانَ هَذَا استثماراً في محله في المعنويات والثقة. لم تكن من قبيل مراقبة الأخ الكبير، بل رعاية الأخ الكبير.

يقظةُ المديرِ:

لعب المكتب الأمني دور الأخ الكبير في الرعاية، لكن اهتمام الرئيس كَانَ عنصراً أساسياً آخر في هَذِهِ القصة، أو فلنسمِّه "يقظة المدير". هَذَا هو قانون مكافحة الاسْتِخْبَارَات: أول وآخر وأهم ضابط أمن في أي موقف هو الضابط المشرف، سواءً كُنْت ضابط أمن محترف أو ضابط مكافحة استخبارات، فَيَجِبُ أن تفرض هَذَا القانون.

الفتاة السكرتيرة في المُنشأَة الحاسوبية الَّتِي ذكرناها آنفاً، والَّتِي طلب حبيبها منها أن تصبح جاسوسةً، لولا أنها لم تقصد مديرها أولاً وتبلغه بمشكلتها، ما كَانَ ليُعتَبَر هَذَا المدير كفؤاً في عمله. فالمدير هو من يَجِبُ أن يحوز ثقتها ويَجِبُ أن يعمل معها ومع مكتب الأمن. هَذَا ليس مقام إلقاء محاضرة عن الإدارة الشخصية، لكن هُنَالِكَ حقيقة أن العديد من المشرفين يخافون من موظَّفيهم، وخصوصاً النساء، فهم يكرهون التدخل في المشكلات الشخصية (لماذا لدينا ضابط شؤون الموظفين إذاً؟) ويجعلهم الخجل يُحجمون عن التدخل فيما يعتبرونه تدخلاً في الشؤون الشخصية لحياة الآخرين. هَذَا الاختلاف أو الكسل قد يكون مقبولاً في مؤسسة سمسرة أو وزارة المناجم والمطاحن، لكن في المكاتب أو الوكالات أو المؤسسات الَّتِي يسعى فيها جواسيس العدو وراء جماعتك، فلن يكون مقبولاً.

شبكاتُ مُخبري مكافحة الاسْتِخْبَارَات:

الطريقة القديمة لنشر شبكة من العُمَلَاء المزدوجين من النوع المُعاد التوجيه، كَانَت تقوم على تجهيز مجموعة من المُخبِرين المُجنَّدين سرّاً. في ألمانيا النازية لمَس الغوستابو الفائدة من هَذَا النظام بأساليبه الَّتِي نراها بغيضةً بحقّ، والَّتِي تعمل على التحكم في عقل وفكر الجماهير، فترى طلاب المدارس يشون بمعلميهم الَّذِينَ يروون النكات عن هتلر، أو يختلقون الادعاءات

للتخلص من المُعَلّمين الصارمين جداً فيما يتعلق بالواجبات المنزلية. وخلال الحَرْب الباردة، استخدمت أجهزة أمن الدولة في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة (الكي جي بي وآخرون) ذات النظام، مع نسبة من العمال في أحد المصانع، فلنقل واحد من أصل عشرة، وأجبرتهم على التبليغ عن الشؤون الخاصة لرفاقهم. هَذَا عملٌ قذر ويضيّع النقطة الجوهرية في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات.

عملُ ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات ليس كشفُ المُعتَقَدات السِّيَاسِيَّة بل الاشتباك مع أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية في قتال سري. هدفك ليس المُحرِّضين أو المُجادِلين وإنما الجواسيس. خلال الحَرْب الباردة، كُنْت تجد -حين نتعرف عليهم- أن ضباط المخابرات لدى الكتلة السُّوفيَاتِيَّة المحترفون كانوا مالّين من الأيديولوجيا ووجدوا التعامل مع الشيوعيين المُتَحَمِّسين مُضجِراً. فوظيفتهم كما رأوها، كَانَت اختراق حكومتك،[1] واهتموا بالمسيرات السلمية المناهضة للسلاح النووي والمناهضة للتدخل الخارجي والمناهضة لأي شيء آخر أو حَتَّى المُناهِضَة للحزب الشيوعي في بلدك، فالأفراد الَّذِينَ يَتُمّ تجنيدهم من هَذِهِ الحشود يمكن الاستفادة منهم -أكثر من غيرهم- لسرقة أسرار حكومتك. إذاً فهَذِهِ الحشود يمكن أن تُشكِّلَ حوضَ تجنيد للعدو، وهو ما يجلها تستحق وقتك لاختراقها بالمُخبِرين. لكن كن حذراً من أن ما يقدِّمه لك مخبروك سيكون في غالبه سخريةً سياسيةً.

الطعوم:

إن انتظرت العدو حَتَّى يأتي إليك، فربما لا تعرف متى يأتي. لكن أياً كَانَ مدى الثقة بنظامك الأمني وإعجابك بِهِ، فقد لا يكون نظام الاستقبال فيه كافياً لإعطائك القدر الَّذِي تحتاجه من الاتصال بالعدو. إن لم يسبح السمك باتجاه شبكتك، يَجِبُ أن تعطيه طعماً، إغراءً، شيئاً يشبه الدودة الَّتِي تُتَخَذ طعماً لكن مُعَلَّقة بخطاف.

أما كيف تضع الطُّعم في الخُطَّاف فهَذَا يتوقَّف على أين أنت وفي أي وقت؟ يَجِبُ أن تُقَيِّم عدوَّك، كما تحدَّثنا سابقاً في هَذَا الفصل، وأن تصمم عمليتك بِحَيْثُ تتناسب مع ما

---

[1] الحكومات الغربية.

تعرفه أو تخمّنه حول عَمَلِيَّات عدوِّك. يَجِبُ أن تختار عُمَلَاء الإغراء (العُمَلَاء المزدوجين من نوع الطعم) بِحَيْثُ يكون لديهم وصولٌ صريحٌ أو محتمل إلى ما يريده العدو كما ينبغي أن تكون حذراً من تقييد هَذَا الوصول كي يبدو منطقياً إن جُنِّدَ عميلك الَّذِي تستخدمه كطُعم.

يَجِبُ أن تجعل العميل المزدوج من نوع الطعم يظهر ضعيفاً اتجاه التجنيد (مشكلة شرب، مشكلة مالية، مشكلة عائلية، أيديولوجية مهتزة) لكن في الحقيقة لا يَجِبُ أن يكون ضعيفاً. يَجِبُ أن تكون لدى طُعمِك المهارةُ العمليةُ، والأعصاب، والقدرة على التَّحَمُّل، ويَجِبُ أن يكون لديه قبل كُلّ شيء النزاهة.

لا تكمن صعوبة إعداد برنامج طعم في العدو بل في غرابة الطبيعة البشرية، وفي الناس الَّذِينَ يَجِبُ أن تختارهم وتدرِّبهم وتوجههم. إنه نشاطٌ مُرهِقٌ، للعميل المزدوج ومُشغِّلِه ولك، لأن الناس الَّذِينَ انتقيتهم بعناية ودرَّبتهم وحَمَيْتَهُم ودللتهم سوف يتَّصلون فعلياً بالعدو.

وعندما تنغلق العملية في النهاية، تأكد من أن عميلك المزدوج قد نال أجراً مناسباً. قد تمنع اعتبارات الأمن التكريم العلني، لكن قليلاً من الثناء يفيدُ كثيراً؛ ملاحظة تقدير من المشرف أو القائد و/أو الضابط القائد، ربما تساعد في التعويض عن المشكلات الَّتِي تعرض لَهَا هَذَا العميل المزدوج.

(11)

العُمَلَاءُ المزدوجون: التغذيةُ والعنايةُ

الرجل الَّذِي يعيل عشيقة وزوجة يتعرض دوماً للضغط. وقد يُصاب بقرحة مَعِديَّة، أو يعاني من فقر الدم أو يعاني من الإدمان على شرب الخمور. لابد وأن توتره شبيه بتوتر العميل المزدوج، لكن توتر العميل المزدوج تُذكِيهِ حقيقةُ أن حياة زوجته تكون عادةً على المحك. إذا ارتكب زيرُ نساءٍ خطأً فإنه يفسد ترتيبات حياته لمدة من الزمن، وإن ارتكب عميل مزدوج خطأً فإنه يتلقى رصاصةً في مؤخرة رقبته.

وإن ارتكب مشغّل العميل المزدوج خطأً، فإن العميل المزدوج هو من يتلقى الطلقة في مؤخرة عنقه، ويميل العُمَلَاء المزدوجون إلى إبقاء هَذَا ماثلاً في أذهانهم.

الارتباطُ العاطفيُّ:

لا تكون المشاعر بين العميل المزدوج ومشغّله جياشةً في العادة، في حالة أولئك الَّذِينَ بدأت علاقتهم بالانكشاف والتحول القسري لعميل معادٍ، تبدأ العلاقة بالتحوُّل إلى العِداء. أما في حالة أولئك الَّذِينَ تكون العلاقة نتيجة برنامج عميل مزدوج من نوع الطعم، تكون العلاقة بيروقراطية وروتينية. في حالة العميل المزدوج المتطوِّع المُعاد الاستخدام، تكون العلاقة مشوبة بالقلق من جانب المتطوِّع.

لكن العلاقة بين عميل مزدوج من أي نوع وضابط الحالة المسؤول عنه، هي مثل أي ارتباط عاطفي: تفاعلٌ بين طرفين. ربما لا تكون ودية تماماً، لكنها لا يمكن أن تكون عدائية تماماً، لأن العميل ومُشغّله يتشاركان هدفاً ويعملان معاً على حل المشكلات، حَتَّى لو كَانَ هَذَا على مضضٍ من كِلا الجانبين.

يشابه هَذَا بعض الشيء -وإن كَانَ مختلفاً- العلاقة بين صاحب العمل والموظّف، هَذِهِ العلاقة مختلفة على سبيل المثال، لأن ضابط الحالة يمكن أن يكون شاباً لا يتمتعُ بحالة اجتماعيةٍ مرموقةٍ أو ثراءٍ واضحٍ يصدر التعليمات إلى مسؤول رفيع المستوى وبارز اجتماعياً ليؤدّي عملاً مدفوع الأجر. أو قد يكون شخصيةً غامضةً ظهر فجأةً ولَهُ سلطة الحياة والموت على جاسوس مسكين صغير في مكان هامشي بوزارة ما. لديه نوع من السلطة، لكنه من نوع سلطة شريك متخصص في التخطيط. وهو ليس رئيساً بل إنه يضع الخطط، المرهونة بموافقة شريكه، لكن الشريك هو الَّذِي يتعرَّض رأس ماله -وهو الحياة- للخطر. وحَتَّى في أجهزة الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة، حَيْثُ يكون ضابط الحالة نقيباً ويكون العميل المزدوج رقيباً، فثمة شراكة تتعدى الرتب النسبية.

الارتباط العاطفي لعميل مزدوج مع مُشغِّله ليس حتمياً فحسب بل إنه أسَاسِيّ أيضاً لسيطرة المُشغِّل على العملية، فأولئك المُشغِّلون الَّذِينَ يأنفون من التعامل بمودة مع عميلة مزدوجة لأنهم لا يحبُّون شخصيتها كثيراً، لا يتمكنون من تأدية عملهم. في هَذِهِ الأوقات في عملك بإدارة العُمَلَاء المزدوجين عندما ينتابك شعور بأن كُلّ شيء استحال مسلسلاً دراميا، خذ نفساً عميقاً وقم بدورك، فأنت لست ممثلاً في مسلسل عن العميل المزدوج.

في العديد من الحالات، تكون العلاقة بين العميل المزدوج وضابط الحالة، شبيهة بالعلاقة بين المحقق والمستجوَب، كما تناولناه في الفصل الخامس (التحقيق). وهَذَا صحيح جزئياً لأن العديد من حالات العُمَلَاء المزدوجين تبدأ بعملية تحقيق، وفي جزء منه لأن التحقيق عنصر من عناصر الاختبار المتواصل للعميل المزدوج، وفي جزء آخر لأن العميل المزدوج لديه الحاجة الإنسانية الطبيعية للتحدث عن أنشطته السرية، وليس أمامه سوى ضابط حالته للتحدث إليه.

مع ذَلِكَ لا تنسَ أنه حَتَّى وإن كَانَ العميل الَّذِي قبضت عليه وحوَّلته كَانَ مرتاحاً للقبض عليه ومُمتَنّاً لك لمساعدته للاعتراف بذنبه، سيبقى لديه الشعور بالمهانة بسبب القبض عليه. وقد يستاء من متابعة التَّجَسُس وقد يصبح مُهمِلاً. وإن لم يكن يشعر بالذنب، سيكون استياؤه أكبر ما سيحطُ من أدائه.

الارتباطُ الجسديُّ:

عندما تتولى عميلاً مزدوجاً، تصبح مسؤولاً عن العناية الجسدية بِهِ، وعن صحته وحالته المادية وعن أمانه. لا يمكنك السيطرة التامة على هَذِهِ الأمور، لكن يَجِبُ عليك مساعدةُ العميل على السيطرة عليها بالاستفادة من كُلِّ مواردك التشغيلية والإدارية.

الصحة:

صحة أي إنسان هي مزيج من العقل والبدن والعاطفة. ويتوجب على العُمَلَاء المزدوجين أن يعملوا ساعاتٍ أطول ليقوموا بالعمل الإضافي الَّذي يطلبه مشغّلوهم منهم إضافةً للعمل الَّذِي تطلبه أنت منهم أيضاً، وهَذَا يؤذيهم جسدياً وعقلياً. فهم يتحمَّلون عبئاً غير طبيعي من القلق وعبئاً غير طبيعي من الغضب المكتوم. لذا يمرضون -يُصابون بأمراض التهاب القولون (القرحة، تقلصات الأمعاء) وارتفاع ضغط الدم، والرُهاب (إنهم هناك ليقبضوا علي)، واليأس (نوبات بكاء) -بالأمراض الَّتِي يسمّيها الأطباء النفسيون أمراضاً نفسيةً أو نفسيةً عصبيةً. والأعراض الَّتِي يتعيّنُ عليك تشخيصها أولاً هي الإفراط في الشرب أولاً، والإفراط في تناول المُهدّئات، واستخدام العقاقير الصعبة، والسلوك العدواني في المواقف الاجتماعية (المشاجرات)، أو الانسحاب الصريح من المواقف الاجتماعية (تقطيب الجبين).

الحالة المالية:

تُقلق مسألة الحصول على المال ستةً وتسعين بالمئة من البالغين في العالم، ما لم تكن النسبة ثمانيةً وتسعين بالمئة. فإن كَانَ عميلك المزدوج ضمن هَذِهِ النسبة فأنت مضطر لترتيب الأمور بِحَيْثُ لا يجعله العمل لصالحك أفقر، وعند الإمكان اجعله أغنى قليلاً. وهَذِهِ النقطة لا تحتاج مزيداً من التفصيل.

الأمان:

ليس هُنَالِكَ عمل يمكن أن يؤدي إلى كسب عداوات خطيرة أكثر من عمل العميل المزدوج، لا ينافسه فِي هَذَا إلا جندي المشاة. أعطِ لعميلك المزدوج ما يكافئ عدة الجاسوس من أدوات التحصُّن وخوذاً جيدة ودرعاً للجسد، ورداءً واقياً من النار، وقيادةً توجهه. أما كيف تزوِّد العميل المزدوج بِهَذِهِ العناصر فيعتمد على وضعه، وخصوصاً المخاوف الَّتِي تتعلق بغطائه أو غطائها.

العميلُ المزدوجُ معادُ التوجيه:

العميل المزدوج الَّذِي تطوَّع أو تحوّل ولجأ إليك طلباً للمساعدة، مقتنعاً بالعمل كمتطوع، يكون تقديم الدعم لَهُ أسهل فِي العادة لأن لديه فِي العادة غطاءً جيداً للاجتماع بك. ويمكنك عادةً أن تتدبَّر ذرائع جيدة للحفاظ عليه بعيداً عن الأذى وطريقةً غير واضحةٍ لتعويضه عن مشكلته. وحالة جانوس سمولكا الَّتِي تحدَّثنا عنها فِي الفصل التاسع، مثال عن نوع من العميل المُعاد توجيهه والَّذِي سيطرتَ عليه بِشَكلٍ جيدٍ حَتَّى نهاية العملية. فعندما بدا أن "سمولكا" يمكن أن يتعرض للخطر إذا سافر إلى ميدان العدو فِي هنغاريا، وجَد مُشغّلِه أسباباً وجيهةً لمنعه من السفر إلى هناك.

وعندما انتابت سمولكا مشاعرُ الكآبة، وهَذَا مؤكَّد من فترة لفترة، تمكّن مشغّله من الالتقاء بِهِ بِشَكلٍ مخفي ومريح وتقديم دعمٍ معنوي لَهُ. وعندما انتابه القلق حول تأثير العملية على عمله، عَرَضَ عليه مُشغِّلُه الفقرة المضيئة الَّتِي أدخلوها فِي تقرير كفاءته. وعندما طلب مزيداً من المال ليدفع الدفعة الأولى من ثمن سيارة أو مجموعة صوتية أو حاسوب محمول (أنا أخمّن بالطبع، فما كُنْت لأكتب هَذَا لو أني قرأت الملف)، تمكّن مشغّله من مساعدته عبر الاقتراض من الاتحاد الائتماني[1] أو حَتَّى بالدفع النقدي لَهُ بما يتجاوز راتبه (لكن انتبه

---

[1] الاتحاد الائتماني نوع من المؤسسات المالية غير الربحية، ويديرها أفرادها، وهم الأشخاص الَّذِينَ يودعون أموالهم فيها. بينما يدير المصارف التقليدية أصحاب الأسهم الَّذِينَ يهدفون لزيادة الأرباح، الاتحادات الائتمانية تعيد كافة الأرباح إلى أفرادها بِشَكلٍ فوائد منخفضة.

من جماعة ضريبة الدخل، فلابد وأنهم قديمو الطراز؛ لا تستطيع التآمر مع عميل مزدوج لكسر قوانين بلدك).

العميلُ المتحولُ من ميدانك:

العميل المزدوج الَّذِي جنَّدته عبر كشف وجوده، ثُمَّ اقتربت منه خلسة وأقنعته بالانضمام إلى فريقك سراً -بمعنى: التحوُّل- والَّذِي يعمل في المنطقة الَّتِي تسيطر عليها، سيكون بطريقة ما مثل عميل مزدوج مُعاد التوجيه يُستفاد منه لأغراض الدعم. لوجستيات الاجتماع، والحماية والدفع ستجري جميعها بسلاسةٍ، لكن موقف العميل المزدوج سيكون مختلفاً. لأن العملية تبدأ بك وبالعميل المزدوج بشروط غير ودية، فَيَجِبُ أن نتوقع منه/منها الانزعاج من دعمك. ربما يحاول خداعك من أجل المال، وقد لا يُبدي اهتماماً بعملك؛ يتجنَّب المراقبة، يحتفظ بأسراره، يخفي المواد السرية، وغيرها.

العميلُ المُعادُ التوجيهِ خارجَ أرضك:

من الصعب تقديم الدعم للعميل المزدوج مُعاد التوجيه الَّذِي يعمل على أرض أجنبية، وهي نفس الصعوبة الَّتِي يواجهها العميل المزدوج في ميدان صديق، لأن عمليته بدأت هي الأخرى في وسطٍ معادٍ، بالإضافة إلى أنه يعيش ويعمل حَيْثُ ليس لديه سوى القليل من الموارد.

مثلاً: في حالة ذكرناها سابقاً في الفصل السادس، اكتُشِفَت عميلة وجُنِّدَت لتصبح عميلة مزدوجة ضد جهاز استخبارات تابع لدولة من دول أوروبا الغربية.[1] وفضَّل مشغّلوها إبقاءها في الغرب، في ميدانهم. حَيْثُ تمكَّنوا من التلاعب بِهَا بأمان من خلال جهاز الراديو الخاص بِهَا وقناة البريد. لكن جهاز الاسْتِخْبَارَات الأساسي أصرَّ على عودتها الدورية إلى العاصمة الشيوعية لتقديم المعلومات وإجراء الاختبارات والتدريب. كما أنها

[1] العميلة الَّتِي سجَّلت حالة طبية نادرة، حَيْثُ توقف قلبها عن النبض مرتين وفوَّت نبضتين عند استجوابها باستخدام البوليغراف.

هي نفسها أصرَّت على القيام برحلاتها الخطرة لأنَّ جهاز الاسْتِخْبَارَات الأساسي يدين لَهَا براتب متأخر صممت على تحصيله.

ولم تلقِ بالاً لإمكان أن يدفع لَهَا مُشغّلوها الغربيون راتباً أكبر من الراتب الَّذِي يدين بِهِ مُشغِّلوها السُّوفيَات. ليس لدينا وسائل لحمايتها أثناء هَذِهِ الرحلات سوى تدريبها بقدر ما نستطيع على الصمود أمام تحقيق العدو وتجاوز اختبارات العدو، ولحسن الحظ تطوّرت مشاعر المودَّة لديها اتجاهنا، ربما لأننا اهتممنا بمُشكِلاتِها الشخصية والجسدية أكثر من مُشغّليها الشيوعيين.

وأبلت بلاءً حسناً، فأربكت تحقيقات العدو في حين لم تتمكن من خداعنا، باستخدامنا للبوليغراف، واجتازت اختبارات العدو بِشَكلٍ جيدٍ بما يكفي لتنال زيادة في الراتب. ولم أصل إلى نتيجة في ذهني حول ما إذا كَانَ نجاحها يعود إلى شجاعتها أم إلى إحساسها الغريب بالأخلاقيات المالية. وأياً كَانَ السبب (ربما يكون السببان معاً) حصَّلت مستحقَّاتها من العدو كما حصَّلت معلوماتٍ قيّمةً لنا. لكن لو كَانَت هَذِهِ العميلة المزدوجة مقتنعة بالشيوعية أو لو أنها كَرِهَتنا لأسباب غير سياسية، لأصبح نجاح هَذِهِ العملية في مهب الريح وأقرب للفشل منه للنجاح.

الاختبار:

اختبار العُمَلَاءِ المزدوجين عملٌ روتينيٌّ، عملٌ روتينيٌّ مملٌ، وعملُ روتينيٌّ أسَاسِيٌّ. وبالطبع يبدأ بتقييم مرهق، ما الَّذِي يجعله مطلوباً؟ حسناً ما الَّذِي يجعل تكراره مطلوباً؟ مع التقدم في القضية، تكون الغاية الرئيسية للاختبار هي كشف التغييرات في النمط الَّذِي سُجِّل المرة الماضية.

لابد وأن تستخدم العديد من الأدوات لاختبار عملائك المزدوجين، ويَجِبُ استخدامهم جميعاً بِشَكلٍ متناغم، فلنلقِ نظرة على الأدوات الرئيسية.

الاستجوابُ الشاملُ:

لا ينبغي أن يكون لدى العميل المزدوج حياة خاصة بقدرٍ يجعلك تقلق. لا يَجِبُ أن يكون لديه أسرار عليك، ويَجِبُ أن يخبرك بِكُلّ ما يفعل ويسمع ويرى ويشم ويحلم طالما أنه تحت إشرافك. لماذا؟ لأنك أنت، وليس هو، من يحكم على الحوادث فيما إن كَانَت مهمَّة للعملية أم لا، لذا يتعيَّن عليك ملء الكثير من وقته وحَتَّى الكثير من وقتك في تسجيل التفاصيل.

مراجعةُ الإنتاجِ:

لا شك أن التفاصيل مهمة للغاية في تواصل العميل المزدوج مع مشغليه من العدو. ويَجِبُ تسجيل هَذِهِ التفاصيل في:

1- الأقسام الأخرى من ملف القضية (العنوان التفسيري، ما يحتاجه العدو، تنقيح معلومات بناء الثقة، اجتياز القبول، تراكم بانتظار التنقيح...إلخ)

و2- أضابير الوحدة (الملفات الشخصية) وملفات عن المجموعات والتنظيمات (انظر الفصل 16 عن إدارة الملفات).

تتكوَّن هَذِهِ المادة من نتاج العميل المزدوج؛ أي مساهمته بما يعرف عن جهاز استخبارات العدو. وكجزء من الاختبار، ستراجع وتقيِّم نِتَاج هَذَا العميل المزدوج وتقارنه مع المعلومات من المصادر الأخرى كي تعرف مدى تضاربها ومدى اتساقها. وحين تحدث الثغرات الواضحة أو تصلك معلوماتٌ غيرُ دقيقةٍ بِشَكلٍ واضحٍ، ستخمِّن فيما إن كَانَ هَذَا خطأً من العميل المزدوج أم أنه خديعة من العدو الَّذِي قد يشتبه بأن امرأته قد باتت عميلةً مزدوجةً للعدو أو لمن يتحكم بِهَا فعلياً.

التقييم الشخصي:

المعلومات حول عميلك المزدوج نفسه ليست مُهِمَّةً فحسب بل إنها أَسَاسِيَّة لتعامُلِكَ مع القضية. وستضيفُ هَذِهِ المعلومات إلى ملفه الخاص وستراجع هَذَا الملف باستمرار. ما ستحاول البحثَ عنه هو أي معلومات شخصية تشير إلى الضعف أو عدم الأمانة وأي أنباء مفيدة يمكنك إضافتها إلى تكوين العنوان التفسيري لقضيته (قصة الغلاف) لتتناسب مع إدارتك للعملية، فتعرف: كيف يواجه الضغوط؟ هل زوجته المُبَعَدَة على وشك الظهور والتسبب بالمشكلات؟ هل ثمة شيء في ماضيه يمكن أن يعرفه العدو فيغيِّر من طريقة تعامله معه؟

أسئلة الاختبار:

يَجِبُ أن يتضمَّن كُلّ اجتماع مع عميل مزدوج سؤال اختبار واحد على الأقل، وذَلِكَ لمقارنة إجابته مع معلومات من مصادر أخرى بناءً على دراستك لسجلات الحالة. إذا أهمل العميل تسجيل حقيقةٍ يعرفها وأنت تعرفها من مصدر آخر، جِد طريقة للتحدث عن هَذِهِ الحقيقة في سياق محادثة. أما إن ذكر حقيقة لا يمكنك التحقق منها لكنها تبدو غير صحيحةٍ، تظاهر بأنك أسأت فهم ما قال، واسأله سؤالاً بناءً على ما تعتقد أنه يَجِبُ أن يقول.

التحقيق الرسمي:

التحقيق الرسمي من حين لآخر من قِبَل شخص آخر -"مفتِّش أو "رئيس زائر"- يمكن أن يكون اختباراً مفيداً. فهو يغيِّر الأجواء، ويكسر روتين اجتماعات العُمَلَاء المزدوجين معك. في كُلّ عمليةِ عميلٍ مزدوجٍ تستمرُ طويلاً، يقع ضابط الحالة في نوع من الرتابة، وتصبح أسئلته آلية ويصبح تفكيره نمطيًّاً، ويميلُ لأخذ الأمور وكأنه مُسلَّم بِهَا. يسمَحُ تدخلُ شخص خارجي بتغيير هَذِهِ الأجواء.

إن كَانَ جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل لديه يستخدم البوليغراف، فستجده مفيداً للغاية في اختبار عميلك المزدوج (انظر الفصل السادس). ربما لا يكشف الكذب، لكنه سيعطيك صورةً عن شخصيةِ عميلك المزدوج وستُضاف إلى بقية معلوماتك وتعدّل عليها. أمَّا إن رأيتَ أنت ورؤسائك أن البوليغراف مجرَّد كاشف للكذب لبناء علاقة الثقة مع العميل المزدوج على أساس أبيض أسود، فلا تضيّع الوقت في استخدامه.

الإنهاء:

"التخلص من":

مصطلح قبيح وغير دقيق يُستَخدَم لإنهاء حالة عميل مزدوج بكلمة "التخلص منه". مُشغّل العميل المزدوج وإدارة المُشَغّل ترى العميل كـ "أصول مُستهلَكَة". ومن وجهة نظر الإدارة يَجِبُ التخلص منه بأسرع ما يمكن، ويَجِبُ أن يُبعَد، ويَجِبُ أن يتوقف عن التشويش على العمل الجاري، يَجِبُ التخلص منه كما نتخلَّص من المهملات في ضاغطة القمامة. كم هو مُزعِج بالنسبة للمُدَرَاء أن يبقى العُمَلَاء المزدوجون الَّذِينَ باتوا غير مُنتِجِين على معرفة ببعض الأسرار العملياتية الحساسة، الَّتِي قد تعصف بضابط حالة، أو تكشف بيتاً آمناً، أو تلقي الضوء غير المرغوب على برنامج مكافحة التَّجَسُس، هل هو مستاء؟ هل سيشكوه لعضو في الكونجرس، هل سينشق وينضم للعدو؟

هَذَا هو نوعُ المواقف الَّتِي تعطي لعمل الجاسوس سمعةً سيئةً، كما تُقَلِل من فعالية عمل الجاسوس. دعني أروي لك قصةً قبيحةً حقيقيةً ذات نهاية سعيدةٍ فقط بسبب ضابطين رفيعي المستوى تدخَّلا في عملية "تخلص" وتصدَّيا للمنطق الإداري للمدراء.

قصَّة مريعة:

تواصلت الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيَّة مع مُحَلِل استخبارات شاب في واحدة من وكالات الاسْتِخْبَارَات الأمرِيكِيَّة العَسكَرِيَّة تحت غطاء جنسية مُزيَّفَة. وعلى الفور أبلغ وحدة مكافحة الاسْتِخْبَارَات وبات عميلاً مزدوجاً وعلى مدى عدة سنوات ومن مواقع مختلفة

في الوطن وخارجه، أدَّت العملية للحصول على كمية من المعلومات عن جهاز الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيّ والعديد من الأدلة الَّتِي استُخدِمَت في تحقيقات مفيدة أخرى.

وفي بعض الأحيان تعرض الرجل إلى خطر جسدي، فاختلَّت حياة أسرته، وتعرَّض لضغوط نفسية شديدة، لكنه كرَّس ماله وممتلكاته للمحافظة على استمرار العملية. والمال الَّذِي دفعه لَهُ العدو أدى تلقائياً إلى توفير الدليل المطلوب، ونُقِل من مكان إلى آخر ومن جزء في هَذَا العالم إلى جزء آخر بسبب الإزعاج الشخصي.

ووصلت العملية إلى ذروتها باعتقال وإدانة اثنين من العُمَلَاء السُّوفيَات وطرد ضابط استخبارات سوفيَاتِيّ رفيع كَانَ يعمل تحت غطاء دبلوماسي. وعندما انتهت المحاكمات الَّتِي أدلى فيها العميل المزدوج بشهادته، وزُجَّ بعملاء العدو في سجن آمِن، تَخَلَّصَت الوحدة العَسكَرِيَّة من الرجل عبر طرده على اعتباره خطراً أمنياً، مُشيرةً إلى أنه اتصل بكيان مُعادٍ لبلده واستشهدت باللوائح القانونية الَّتِي تقول إن كُلّ الأشخاص من هَذَا النوع قد سُرِّحوا.

عند هَذِهِ النقطة تدخّل ضباط من وكالة أخرى، وجنّدوا الرجل كضابط برتبة أعلى، وسُعِدوا برؤيته يؤدي عمله الَّذِي رفعه إلى رتبة رفيعة ومنصب عالٍ وسط مشاعر التعاطف بين زملائه في وكالة التدخُّل. ويمكن الإفصاح عن أن القيادة العليا لذاك الجهاز العَسكَرِيّ -الَّتِي كَانَ يُفتَرَض أن تخدمها وحدة مكافحة الاسْتِخْبَارَات والَّتِي طردت الرجل- أدركت تدريجياً كم تعاملت باستعلاء وطبَّقَت نصَّ القانون بطريقة حرفية غبية، مِمَّا دعا إلى إعادة تنظيمها لتصبح أفضل تنظيماً.

إن كُنْت ستنظّم العُمَلَاء المزدوجين أو يَجِبُ أن تتولى تسريحهم، فأحثُّك على قراءة القسم القادم من هَذَا الفصل بعناية واستيعابه تمام الاستيعاب. وتذكَّر على الدوام أن التفكير العملياتي يَجِبُ أن يتقدم في الأولوية على التفكير الإداري.

الزواج والطلاق:

تُشابِه عملية تجنيد العميل المزدوج في بدايتها الزواج، ونهايتها شبيهة بالطلاق. فالبداية التقليدية للزواج تُقال فيها عبارات من قبيل: "في السراء والضراء، في الغنى والفقر، في السقم والعافية، لن يُفرِّقَنا سوى الموت". رغم أنها خسرت بعضاً من معانيها في القرن العشرين حَيْثُ بات الاختلاف سبباً أساسياً للطلاق. لكن معظم حالات الطلاق، وكُلّ حالات تسريح العُمَلَاء المزدوجين تتضمن "تسوية"، ولا تُنهي معظم حالات الطلاق التواصل بين الشريكين. حَيْثُ يجري تبادل الرسائل حول رعاية الأطفال، وحول المال وغيرها من الشؤون العائلية. ونتواصل الأسرة بصورة متقطِّعة، وأحياناً بِشَكلٍ سلس للغاية.

إنهاء عملية العميل المزدوج يَجِبُ أن تكون مثل الطلاق بالتراضي. ويمكن أن تشمل التسوية اتفاقاً سرِّيّاً رسمياً، واتفاقية مالية رسمية، ورسالة رسمية لتقدير أو ثناء (والَّتِي يتعيَّن عليك أن تضعها في خزنة بعد أن يقرأها الطرف الآخر)، وتبادل العناوين وأرقام الهواتف والمصافحة الودِّيَّة. ويَجِبُ أن يُترَك العميل المزدوج دوماً مرفوع الرأس بما فعله، حَتَّى في تِلْكَ الحالات الَّتِي عمل فيها على مضض. إن قمت بعملك كضابط حالة، ستشعر أنت وعميلك بالفخر.

نقل أم تقاعد؟

معظم عَمَلِيَّات العميل المزدوج تكون قصيرةَ المدى ولمدةٍ محدودة، وإنهاؤها يعني مجرد ترتيب تسوية العميل المزدوج، العميل المُعاد توجيهه يمكن نقله عادةً إلى مَهَمَّة أخرى (إن كَانَ موظَّفاً حكومياً أو عسكرياً) أو يمكن مساعدته للانتقال إلى منصب جديد في عمل مدني، فبعض العُمَلَاء المزدوجين -في الحالات الكبيرة- أمضوا سنواتٍ من العمل من أجلك وهم في طريقهم للتقاعد.

(12)

العُمَلَاءُ المزدوجون: تمريرُ المعلوماتِ إلى العدو

عملية تجنيد العميل المزدوج هي قناة تنتقل فيها المعلومات في اتجاهين، وفي نهاية القناة من كُلّ جانب جهاز استخبارات أو جهاز مكافحة استخبارات. ويسعى جهاز الاسْتِخْبَارَات للتأكد من أن تدفق المواد في القناة مفيدٌ لَهُ، بينما يسعى جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات للتأكد من أن تدفق المواد ضار بعدوه.

وبسبب حاجة كلا الطرفين لاختبار وتقييم العميل، تكون معظم الأسئلة الَّتِي يطرحها المُشغِّلون على كلا الجانبين عملياتية: "كيف يحصل العميل على ما يرسله من تقارير؟ لكن الهدف لدى كلا الجانبين يتعلق بِالاسْتِخْبَارَاتِ الموضوعية: "ماذا أرسل العميل؟" يمكن أن يجتاز العميل أو العميل المزدوج أي اختبار عملياتي للمُشغِّل للتأكد من الموثوقية أو المهارة، لكن معلوماته يَجِبُ أن تجتاز اختبارات المستهلك للدقة والأهمية وإلا فلن يكون للعملية قيمة. ويَجِبُ أن يخدم المُشغِّلُ المستهلكَ، وإلا فلن يكون عمله سوى إهدار لأموال الحكومة.

في العَمَلِيَّات الَّتِي يقوم بِهَا جهاز ضد جهاز آخر، تِلْكَ الَّتِي تكون فيها الأهداف أفراداً في أجهزة الاسْتِخْبَارَات، يكون المشغّلون هم أنفسهم الزبائن الَّذِينَ يتلقون معلومات (مكافحة) الاسْتِخْبَارَات. لكن حَتَّى في هَذَا فهم يتبعون لنسق أعلى، يتكوَّن غالباً من محللين محترفين لن يخضعوا للإعجاب بالعميل ولن تبهرهم متعة اللعبة. ("اللعبة"=Spiel تعبِّر هَذِهِ الكلمة عن حالة العميل المزدوج حسب اللغة المهنية. ونحن عادة ما نتحدث عن اللعب بدلاً من "التشغيل" للعميل المزدوج. ونقول إن العميل المزدوج "في اللعبة" بنفس الطريقة الَّتِي يتحدَّث فيها لاعبو الشطرنج عن القطع على الرقعة الَّتِي يلعبون عليها).

المعلومات الَّتِي ينقلها جهاز استخبارات يُشَغِّل عميلاً مزدوجاً إلى عدوّه تُسمَّى بِشَكلٍ غير رسمي "الثلج" و"الدخان" و"طعام الطاقم" و"طعام الصيصان" وغيرها من التسميات. ومنذ أن بدأ استخدام الحواسيب في أعمال التَّجَسُس إلى جانب استخدامها في كُلّ النواحي الأخرى، بدأت تسمية "النفايات" كما في "النفايات الداخلة، النفايات الصادرة". وعندما يتقبّل العدو العميل المزدوج بِشَكلٍ كاملٍ فإن هَذِهِ المعلومات تُدعى رسمياً "الخداع".

عقيدةُ الطبقاتِ:

عندما كُنْت ضابطَ حالة شاباً حظيت بأفضل المدرِّبين في مجال مكافحة التَّجَسُس، ومن بينهم الأمريكيين: جيم آنجيليتون، وبيل هارفي، وبيل هوود وبعض الشباب البريطانيين ممن لا أستطيع ذكر أسمائهم. ووجدنا أنه من المفيد الانتباه إلى طبقات الغطاء، أي: النظر إلى لعبة العميل المزدوج بعمقٍ أكبر، وتصور وجود طبقات متعددة تحجب الحقيقة الظاهرة وتمنع ما يَجِبُ أن نعرفه عن القضية.

حَيْثُ يبدو الغطاء كما لو كَانَت كُلّ قضية عميل مزدوج قطعةً من القماش مرسومٌ على وجهها لوحات فوق لوحات، والطرف المُنتَصِر هو الطرف الَّذِي يملك جهاز أشعة إكس أكثر قدرة على رؤية شكل وتفاصيل كُلّ طبقة ابتداءً من السطح وصولاً إلى قطعة القماش الأصلية. والجزء المهم من كُلّ طبقة هي المعلومات الَّتِي يَتُمّ تغذيتها عبر قناة المُشغِّلين من الطرف الأول للعميل المزدوج، وهَذَا هو ما يَجِبُ أن يُنظَر إليه بعين الريبة من المُشغِّلين في الطرف الآخر.

اجتيازُ اختباراتِ العدو:

السبب الَّذِي يجبرك على عدم تقديم معلومات خاطئة للعدو حَتَّى تكون مستعدًّاً لتطبيق الخداع بِشَكلٍ كبيرٍ هو أنَّك لا تعلم مقدار ما يعرفه العدو في الأصل. فربما يكشف جهازه لأشعة إكس لوحة على طبقة تحت الطبقة الَّتِي يكشفها جهازك لك. وقد ينقل عميل

موازٍ إليه التقارير عن ذات الهدف فيما يقدِّم عميلك المزدوج لَهُ تأكيداً أو نفياً لنفس المعلومات؛ حقيبة مفقودة اعتقدت أنَّها استُرِدَّت قبل أن يتمكَّن أي شخص من تصوير محتوياتها، محادثة هاتفية سرية مُراقَبَة، ميكروفون مخفي غير مُكتَشَف في مكتب الهدف، وأي ظروف أخرى غير معروفة يمكن أن تكشف زيف المعلومات الَّتِي تمررها. مع تمرير معلومات بناء الثقة يَجِبُ أن تفترض أن القانون الَّذِي نظَّمه البروفيسور جون مورفي سيكون نافذ المفعول تماماً: "إن كَانَ من الممكن حدوث خطأ فسيحدث، حَتَّى وإن لم يكن خطأ في الأصل".

الموازنةُ بينَ المكاسبِ والتكاليفِ:

ربما تكون قصة شمولكا الَّتِي تطرقنا لَهَا في الفصل التاسع مُخَادِعةً من حَيْثُ هدفها النهائي. ومعظم حالات العميل المزدوج كذلك، حَيْثُ يكون لَهَا في البداية هدف طموح، ثُمَّ قد لا تصل إلى هَذَا الهدف لسببين:

1- لم تتناسب مع برنامج خداع كلي متكامل قد يكون فعّالاً في ذَلِكَ الوقت.
2- التكلفة في المعلومات الحساسة الَّتِي كَانَ يَجِبُ كشفها كَانَت أكبر بكثير مِمَّا سُمِحَ بِهِ لمشغلي شمولكا بأن يدفعوه.

شمولكا ومشغّلوه الأمريكيون أعطوه المعلومات الكفيلة بكسب ثقة مشغليه المجريين حَتَّى النقطة الَّتِي بات فيها الاستمرار في العملية يتطلب تلبية ما أراده المجريُّون وسادتهم السوفييت؛ الأكواد ومواد التشفير. وهَذَا نوع من الأشياء لا يمكن تزييفها، لأنها يمكن أن تُختَبَر سريعاً. وحسب المعقول في ظروف معركة تقليدية جارية، يمكن تمرير مواد التشفير التكتيكية بغرض الخداع قصير المدى؛ "دعهم يخترقون شارات الوحدات الَّتِي لا نستخدمها في الهجوم، وسنستخدم نظام تشفير مختلف مع الوحدات الهجومية". لكن في الواقع فهَذِهِ المواقف نادرة الحدوث ولم تكن حالة شمولكا الَّتِي جرت "أوقات السلم" واحدة منها. كما توجَّب على مُشغِّلي شمولكا أن يأخذوا في الحسبان حقيقة أن أي معلومة تُمرر

للعدو تزيد من المعرفة العامة للعدو وتساعده، حَتَّى ولو بِشَكلٍ غير مباشر، في برنامجه التَّجَسُسِيّ لمعرفة أنظمتك.

المثال الشهير على دعم معلومات بناء الثقة بكلفة عالية هي الحالة الَّتِي جرت في الحَرْب العالمية الثانية، لعميل سمّاه الألمان الاسم الكودي كلات (ربما يكون اسمه الحقيقي فريتز كودرز، رغم أن البعض عرفوه باسم ريتشارد كودر). حَيْثُ ترأَّس كلات هَذَا محطة استخبارات ألمانية خاصة في صوفيا،[1] منفصلة عن المحطة الرئيسة، ومنها أرسل بِشَكلٍ منتظم معلومات استخباراتية عَسكَرِيَّة دقيقة وقيِّمَة عن القوات البرية الروسية إلى برلين (اعترضها البريطانيون مصادفةً وفكّوا شيفرتها). وكَانَ مصدر هَذِهِ المعلومات مواطناً من روسيا البيضاء كَانَ في السابق عميلاً بريطانياً اسمه تورخول، أرسل المعلومات إلى صوفيا من قرية على نهر الفولجا، حَيْثُ قيل إنه أدار اختراقات لقيادة الجيش الأحمر.

وفي الواقع كَانَ توخول عميلاً مزدوجاً لأجهزة الاسْتِخْبَارَات السُّوفيَاتِيَّة، وكَانَت كافة معلوماته موجَّهَة للمستهلكين الألمان. وفي شهر أيار سنة 1942 شنَّت القوات السُّوفيَاتِيَّة بقيادة الجنرال تيموشينكو هجوماً لاستعادة مدينة خاركوف وتعرَّضت للهزيمة، وتكبَّدت خسائر فادحة، وكَانَ السبب الرئيسي هو أن أمر تيموشينكو بشن الهجوم وخطط المعركة كَانَت قد نُقِلَت إلى الألمان عبر جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات الروسي من خلال توخول وكلات. هَذِهِ التضحية كما تُسَمَّى في الشطرنج، رسَّخت ثقة الألمان بكلات لدرجةٍ أنه عندما زوَّدهم لاحقاً بمعلومات خاطئة -تضليل- حول النيات السُّوفيَاتِيَّة والإمكانات والدفاعات عن ستالينغراد تصرَّف الألمان بناءً على معلوماته وتعرَّضوا لهزيمة كَانَت نقطة التحول في مسار الحَرْب (نجا ريتشارد كودر من الحَرْب، وأقام في سالزبورغ،[2] وحاول كسب لقمة العيش من خلال عرض خدماته على استخبارات الحلفاء).

---

[1] عاصمة بلغاريا.

[2] مدينة نمساوية.

مشكلةُ البيروقراطية:

يشك المرء بأن يسمح أي جهاز مكافحة استخبارات غربي اليوم -فضلاً بأن يُقدِم هو- على التضحية بما يعادل -في أوقات السلم- مئة ألف رجل ومئات من الدبابات الَّتِي خسرها الجنرال تيموشينكو في خاركوف. ما يعادلُ هَذِهِ الخسارةَ في أوقات السلم هَذِهِ الأيام ستكونُ نظام أسلحة، منصة إطلاق صواريخ، محرِّك مركبة، نظام توجيه، رأس حربي، وغيرها مِمَّا لا تكون تكلفته زهيدة.

الصعوبات الَّتِي تواجهها في عملية بناء الثقة ستبدأ بتقديم الصلاحيات للفريق. لن يكون لك الصلاحية ولا ينبغي لك بأن تتبرع بما تملكه حكومتك، بما في ذَلِكَ معلوماتها، سواء كَانَت سرية أم لا، ففوقك مراتب أعلى منك في جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل فيه وفي حكومتك مسؤولون تقع على عاتقهم مسؤولية ممتلكات الحكومة وأسرارها، وبالتالي فلهم وحدهم الحق بإفشائها. فإن لم يُتَّبَع هَذَا المبدأ في القانون في الحكومة بأجمعها، سيتسلل التآكل إلى الجسد الحكومي، وتميد الأرض تحت الأقدام وتتداعى الأسقف، حَتَّى تنهار الجداران في النهاية.

لذا تتطلب عملية تقديم التصريحات اللازمة لإعطاء المعلومات اللازمة لبناء الثقة: البيروقراطية. ويَجِبُ أن يكون هُنَالِكَ مجالس ذات صلاحيات مكوَّنة من أولئك الَّذِينَ تقع على عاتقهم المسؤولية. ويمكن أن يكون لدى دولتك أسرار عَسكَرِيَّة أو سياسية أو علمية أو تقنية أو تجارية أو تشفيرية. ولكل نوع من هَذِهِ الأسرار ينبغي أن يكون ثمة مجلس، يعمل في سريةٍ تامةٍ ويتمتع بالصلاحية بتقديم المعلومات أو المعدّات الَّتِي تخطط لتقديمها للعدو. فهَذِهِ إذاً هي البيروقراطية السرية، ولا يَجِبُ أن نتوقع منها السرعة والفاعلية.

مكتبة معلومات بناء الثقة

لا يمكن لأي برنامج عميل مزدوج أن يكون فعَّالاً دون العودة المستمرة إلى مكتبة تحوي أربعة أنواع من المواد ("مواد" يمكن أن تتألف من معلومات مكتوبة أو مخططة، وأشياء

مثل الأسلحة والأدوات ومعدات الاتصالات والرقائق الإلكترونية). والأنواع الأربعة هي لمعلومات بناء الثقة هي:

1. مُصرَّح لَهَا ومجهَّزة للاستخدام.
2. مُرِرَت من قبل.
3. متطلبات العدو.
4. المواد المعروف أنها فُقِدَت.

الحفاظُ على البنك:

اعمل من خلال "مجلس التصريح" لبناء خزّان ("بنك") للمواد المُصرَّح باستخدامها كمعلومات بناء الثقة، حَيْثُ بوسعك الاستفادة من المبالغة في تصنيف المعلومات على أنها سرية لدى الحكومة الأمرِيكيَّة. فواحدة من أسوأ طرق حفظ الأسرار لدى الحكومة الأمرِيكيَّة هي حقيقة أن كثيراً من المعلومات الموسومة بأنها **سرية** هي في الحقيقة ليست كذلك وإنما فقط مقيدة الوصول، والكثير من المعلومات الموسومة بأنها **مقيدة الوصول** يَجِبُ أن تُعامل على أنها: متاحة **للاستخدام ضمن المكاتب فقط.**[1] بعض الحكومات

[1] يمكن تصنيف المعلومات حسب سريتها إلى أنواع:

1. معلومات سرية للغاية: (top secret) المعلومات الَّتِي يُتوقَّع أن يؤدي الكشف عنها إلى إلحاق ضرر بالغ (exceptional) بالأمن القومي لا يمكن إصلاحه.
2. معلومات سرية: (secret) يؤدي الكشف عنها إلى إلحاق ضرر جسيم بالأمن القومي.
3. معلومات مقيدة الوصول: (Confidential) الَّتِي يؤدي إفشاؤها إلى إلحاق ضرر بالأمن القومي، لكن يمكن إصلاحه.
4. معلومات متاحة للاستخدام ضمن المكاتب فقط: (OFFICIAL USE ONLY) يَتُمّ استخدام هَذَا التصنيف من قبل وزارة الدفاع وعدد من الوكالات الفيدرالية الأخرى لتحديد المعلومات أو المواد الَّتِي على الرغم من كونها غير سرية قد لا تكون مناسبة للنشر العام.
5. معلومات عامة: (public) تُصنف البيانات على أنها «بيانات عامة» عندما لا يترتب على الوصول غير المصرح بِهِ إلى هَذِهِ البيانات أو الإفصاح عنها أو عن محتواها أي من الأضرار.

الأخرى-أعتقد أنني أستطيع أن أقول - تبالغ هي الأخرى في تصنيف الأوراق. لذا ستجد العديد من مواد عالية التصنيف يمكن بالفعل إعلانها دون إلحاق أذى كبير بالأمن القومي.

لكن لا تثق بحكمك الخاص عندما تراجع المواد السرية، ولا تثق أيضاً بأول حكم مُرتَجل لمجلس التصريح، ففي بعض الأحيان يكون هُنَالِكَ أفخاخ في وثائق تبدو غير ضارة، وفي العادة يكون لِهَذِهِ الأفخاخ علاقة بالمصادر والطرق؛ القرائن الموجودة في المُستَنَد لوسائل الحصول عليها والَّتِي قد لا تكون واضحة لك أو لمجلس التصريح من الوهلة الأولى.

وأستطيع التفكير بالعديد من الاختراقات القيِّمة لحكومات من الكتلة السُّوفيَاتيَّة حَيْثُ اكتشفها العدو وأنهاها، كجزء من التقييم الروتيني للأضرار، عبر تحليل التقارير الاسْتِخْبَارَاتيَّة الَّتِي مُرِّرَت عبر قنوات العميل المزدوج أو تَمَّ الحصول عليها عبر التَّجَسُس. والسؤال الَّذِي يُطرَح في مثل هَذَا التحقيق بسيط: من الَّذِي وصل إلى المواد المسروقة؟ إذا كَانَت المواد قيِّمَة -أي حساسة- ستكون قائمة المُشتبه بهم محدودة، وبالتالي فأنت تحتاج إلى مُحلِل يشابه عَمَلُهُ عَمَلَ كاشف الألغام عند عرض المواد لقابلية التصريح بتسريبها كمعلومات بناء الثقة مع عميل مزدوج، كما يَجِبُ أن يكون مجلس التصريح واعياً على الدوام بأنه يعمل في حقل للألغام.

الأرشيف:

سَجِّل كُلّ عنصر ووصفَه ومفتاحه في الفهرس ومفتاح الوصول إليه داخل المكتبة، مع الانتباه لوقت تمرير المعلومات. فلنلقِ نظرة على التفاصيل فيما يلي:

مُتَطَلَّبات العدو:

"المُتَطَلَّبات" هي تسمية تُطلَق على المهام الَّتِي يُكلِّفُ بِهَا جهاز استخبارات مصدره للقيام بِهَا. بعض الأمريكيين المخضرمين مازالوا يستخدمون مصطلح "العناصر الأساسية للمعلومات" المُقتَبَس من إجراءات الاسْتِخْبَارَات القتالية العَسكَرِيَّة.

عندما يطوِّر جهاز استخبارات معادٍ عميلاً جديداً، ستكون مهمته سرقة أي شيء يمكنه الوصول إليه. وعندما يدفعه العدو ويصبح في موقع جيد من ناحية الوصول إلى المعلومات، سيتلقى العميل طلبات محددة، أو في بعض الأحيان "قائمة تسوُّق" من كافة المواضيع الَّتِي يأمل مُشغِّله أن يكون بوسعه الوصول إليها. فإن سيطرت عليه كعميل مزدوج، ستجد أن متطلباته تشير إلى ما يريده العدو -وبالاستنتاج- ما لا يريده وبالتالي ما يعلمه مسبقاً وما لا يعلمه.

وعليك ألا تأخذ مثل هَذِهِ القائمة من عميل مزدوج مُعيَّن على حَرفيَّتِها، لأن بعضاً من هَذِهِ الطلبات قد يصممها العدو لاختبار مصادره الأخرى، وبالتالي قد لا تشير إلى ما يعرفه العدو أو ما لا يعرفه. لكن بدراسة متطلبات عدد من العُمَلَاء المزدوجين في مكتبتك، يمكنك عادةً أن تصل إلى تخمينات دقيقة. لذا يَجِبُ أن يكون التسجيل الاحترافي لكافة متطلبات العدو لكافة العُمَلَاء المزدوجين جزءًا من مكتبتك حَيْثُ تُقارنُ مع المقتنيات الأخرى.

تقارير الإتلاف:

تقرير الإتلاف مَهَمَّة كريهة ومُمِلَّة يَجِبُ أن تليَ كُلّ خسارة في المعلومات من خلال: عملية ناجحة للعدو، خرق للأمن، أو تسريب أحد السياسيين أو موظف علاقات عامة أخرق للصحافة (أو هذين كلاهما في شخص تنفيذي غير كفء).

ما الَّذِي عرفهُ العدو؟ بعض تقارير الأضرار تُجيب عن السؤال بِشَكلٍ كاملٍ أكثر من تقارير أخرى. وبِشَكلٍ واضحٍ في حالات مثل كيم فيلبي أو هانز فيلف، ممن عملوا كاختراقات لصالح الكي جي بي ضد أجهزتهم الاسْتِخْبَارَاتِيَّة (بريطانيا وألمانيا الغربية) لعدة سنوات، لم يكن بالإمكان إعداد تقرير كامل عن المعلومات الَّتِي عرفها العدو. لكن من المفيد تسجيل ما تأكَّد أن العدو عرفه ووضعه في مكانه في المكتبة للاستفادة منه كاحتياطي لاحقاً (انظر الفقرة التالية).

استخدام الاحتياطي:

"الاحتياطي" مصطلح تقني يُطلَق على المعلومات المُكتَسَبَة من مصدر أقل حساسية نسبياً ينقلُ فيما ينقل معلومات من مصدر أكثر حساسية أو يكررها. وكمثال عن استخدامه أيام الحَرْب الباردة: لديك معلومة من اختراقٍ لحكومة فيتنام الشمالية وترغب بنشرها على نطاق واسع، لكنك لا تستطيع بسبب السرية العالية المفروضة على كافة تقارير مصدرك هَذَا، ومع ذَلِكَ فأنت تعرف أن جهاز أمن الدولة الفيتنامي الشمالي (بو كونج آن) مثل كُلّ أجهزة الاسْتِخْبَارَات البعيدة، تهيمن عليها الكي جي بي من خلال ما تسمّيه نظام تقديم الاستشارة. لذا فقد يصدف وأن يعرف منشق من الكي جي بي الموضوع الَّذِي تتمنى نشره. فإن كَانَ لديك مثل هَذَا المنشق، اسأله عن الموضوع (دون الكشف عن مصدرك) فإن كَانَ بوسعه نقلها يكون قد قدَّم احتياطيَّاً. يمكنك الآن نشر الموضوع على نطاقٍ واسعٍ، وعزوه إلى المنشق الروسي، ومتابعة إخفاء اختراقك في فيتنام الشمالية.

بترتيب معلومات بناء الثقة في مكتبتك، تستطيع -أو يستطيع محلّلوك- تشكيل صورة (واحدة من الطبقات تحت جهاز الكشف بالأشعة السينية) عما يعرفه العدو من قبل. ومن ثُمَّ يمكنك تمرير معلومة من معلومات بناء الثقة في قناة جديدة بأمان، بعد أن كَانَت قد مُرِرَت في قناة أخرى من قبل، وبالتالي تتجه القناتان إلى عقل العدو.

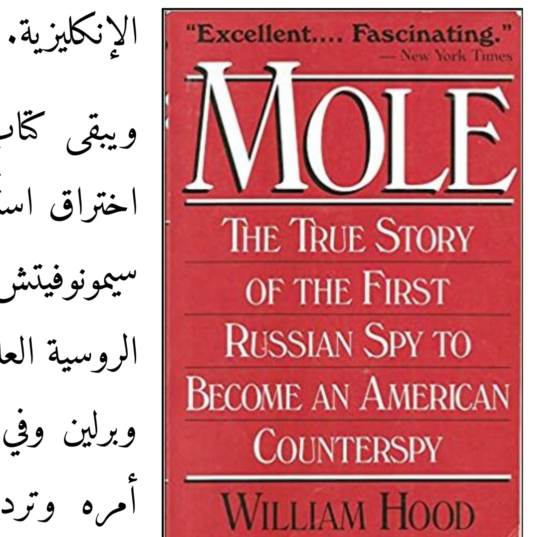
(13)

الخلدُ في حديقةِ العدو: أفضلُ أسلحتِكَ



أبدع الكاتب الإنكليزي ديفيد كورنويل في صياغة الأسماء. واختار لنفسه الاسم المُستعار "جون لي كاريه" في ترجمة من الفَرَنسِيَّة لـ "Square John" الَّذِي يعني حسب اللغة العامية في زمانه: (القوَّاد الشريف)، وجون تعني (راعي العاهرات). فضَّل هَذَا اللقب على اسمه (كورنويل) الَّذِي يعني الشخص الَّذِي يكتب بمهارة وعاطفية.

صاغَ كورنويل الملقب "لي كاريه" مصطلحَ "الخلد" ليعني بِهِ الاختراق طويل الأمد وعلى مستوىً عالٍ لجهاز استخبارات معاد. ولاقى المصطلح قبولاً في أوساط الصحافيين والناشرين، بما فيهم شركة (نورتون) الَّتِي نشرت كتاب الخلد للكاتب "وليام هود" وهو رجل مخابرات محترف ولَهُ باع طويل في العمل الاسْتِخْبَارَاتِيّ لكنه لم يستخدم المصطلح نفسه. "الخلد" تشبيه جيد -الخلد حيوان صغير يحفر دونما هدف بين جذور النباتات- وهكَذَا بات رسمياً أحد المصطلحات المِهَنِيَّة غير الرسمية في عمل الجواسيس حَيْثُ يتكلم الجواسيس اللغة الإنكليزية.



ويبقى كتاب "الخلد" لهود أفضل كتاب تحدَّث علناً عن اختراق استُثمِر بِشَكلٍ جيد في جهاز استخبارات؛ "بويتر سيمونوفيتش بوبوف" المقدَّم في مديرية الاسْتِخْبَارَات الروسية العامة؛ عمل لصالح السي آي إيه في فيينا وموسكو وبرلين وفي موسكو ثانية قبل أن تكتشف الكي جي بي أمره وترديه قتيلاً. كما كُتِبَت حالات أخرى حول

الصحافيين ومثيري الحملات الدعائية (البروبوغاندا)، لكن لم يتمتع أي منهم بما تمتع بِهِ هود من اهتمام بما يسمّيه الخبراء بالحرفة".

إن كَانَت الغاية من مكافحة التَّجَسُس هي التلاعب باستخبارات العدو، فأن يكون لديك عُمَلَاء تحت السيطرة في جهاز استخبارات العدو إذاً هو الهدف الأفضل لمكافحة الاسْتِخْبَارَات.

وأودُّ التنويه إلى إحدى النقاط البيروقراطية حول جامِعِي المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّذِينَ يعتبرون عملَ مكافحة الاسْتِخْبَارَات أنه عمل الشرطة السرية، فيتطفلون ويتسللون ويتواصلون ضمن أضيق الظروف، أقول لهم: اسألوا أنفسكم من يستطيع الوصول بِشَكلٍ أفضل ومن لديه غطاء أفضل للاطلاع على المعلومات الحساسة، العَسكَرِيَّة والتقنية والسِّيَاسِيَّة من ضابط استخبارات أو ضابط مكافحة استخبارات؟ من يحمل التصاريح؟ من لديه القدرة على التنقُّل؟ من يعرف بِشَكلٍ أفضل كيف يرسل رسالة سرية؟ من يعرف بِشَكلٍ أفضل كيف يحمي نفسه؟

كضابط مكافحة استخبارات، لا تنسى أن أفضل عمل على الإطلاق يمكن أن تقوم بِهِ لبلدك هو تطوير وإدارة الاختراقات لأجهزة الاسْتِخْبَارَات المعادية. أثناء الحَرْب الباردة، يمكن أن ترى بثقة أن أعداءك في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة اتخذوا من هَذَا مهمة أَسَاسِيَّة لهم. وليس فقط الأعداء السُّوفيَات، تذكَّر العميل الغاني "شارون سكراناج"، الَّذِي اخترق جهاز السي آي إيه، والعميل الصيني "لاري وتاي شين"، الَّذِي اخترق محطة البث الأجنبية التابعة ومكتب الترجمة، والعميل الإسرائيلي "جوناثان جاي بولارد" الَّذِي اخترق مخابرات البحرية الأمرِيكِيَّة، والعميل الهولندي "جوزيف سيدني بيترسون" الَّذِي اخترق وكالة الأمن الوطني الأمرِيكِيَّة. كُلّ هؤلاء العُمَلَاء كانوا مواطنين أمريكيين، وكَانَ ضباط حالاتهم مسؤولين في حكومات لا يهيمن عليها الاتحاد السُّوفيَاتِيّ.

التخطيطُ الإستِرَاتيجِيُّ:

كما في كُلّ شيء في التَّجَسُس، ومكافحة التَّجَسُس، أفضل عَمَلِيَّات الاختراق هي تِلْكَ الَّتِي يُخطَط لَهَا وتبدأ مُبكّراً، إنها العَمَلِيَّات الإستِرَاتِيجيَّة. التمييز ما بين السياسة والإستراتيجية والتكتيكات مفيدة هُنَا:

السياسةُ هي المسارُ الَّذِي تنوي الدولةُ اتِّباعَهُ في علاقاتها مع الدولِ الأخرى، والإستراتيجيةُ هي استخدامُ كافةِ القوى والمصادر لتنفيذ السياسة. والتكتيكات هي الوسائل الَّتِي تُنفَّذ بِهَا الإستِرَاتِيجِيَّة.

في عمل التَّجَسُس، السياسة هي انتقاء الأهداف بعيدة المدى الَّتِي سيُنفَّذ التَّجَسُس ضدها. والإستراتيجية هي تجنيد وتطوير العُمَلَاء لسرقة المعلومات الَّتِي ستكون مطلوبة في المستقبل. والتكتيكات هي تقنيات وطرق التَّجَسُس ومكافحة التَّجَسُس المستخدمة في كُلّ مرحلة من مراحل العملية.

والسادة في التَّجَسُس الإستِرَاتِيجِيّ على المستوى العالمي -كما في الشطرنج- هم الروس. خلال الحقبة السُّوفيَاتِيَّة كَانَ معظمُ "جواسيسهم" سواءً المعروفين منهم للعموم أم غير المعروفين، مُجَنَّدين مُبكّراً وكانوا يتطوَّرون ببطء حَتَّى يصلوا إلى مواقع السلطة والاحترام ضمن الجهاز المستهدف. وأفضل اختراق معروف هو اختراقات أجهزة الاسْتِخْبَارَات البريطانية: هارولد آدريان روسيل الملقب ("كيم")، وفيليبي، وأنطوني بلنت، جُنِّدوا في جامعة كامبريدج أثناء الحَرْب الإسبانية الأهلية، وجورج بلاك، ربما يكون قد جُنِّد خلال دراسته اللغة الروسية في كامبريدج. وفي اختراق جهاز استخبارات ألمانيا الغربية، جُنِّد "هينز فيلف" حين كَانَ عاطلاً عن العمل وجائعاً وسط أنقاض درسدن بعد الحَرْب.

فلنأخذ هينز فيلف على سبيل المثال. وهو شاب من النوع الَّذِي يطلقُ عليه الناس عادةً وصف "يوبي"؛ شاب ذو مستقبل واعد مهنياً، ويعمل في جهاز الاسْتِخْبَارَات النازي (المكتب الرئيسي لأمن الرايخ، الشعبة السادسة، وهي إحدى مكوِّنات فرق الحماية النازية

إس إس) خلال الحَرْب العالمية الثانية، الَّتِي كَانَت تعمل في هولندا المحتلة، وأحبَّ ارتداء اللباس العَسكَرِيّ الرسمي وأداء التحية النازية وهو يسير في الشارع صارخاً "هيل هتلر".

كما كَانَ تقنياً بارعاً، وكَانَ على اطلاع بِكُلِّ حيل الاتصالات السريَّة، والاستجواب، وتحليل الحالة. وكَانَ لَهُ مستقبل باهر في الإس إس، حَتَّى انتهت الحَرْب الَّتِي أنهت معها الإس إس. وبمحض المصادفة انتقل من دريسدن، المدينة الألمانية الَّتِي تعود إلى العصر الباروقي[1] والَّتِي دمَّرتها الغارات الأمرِيكِيَّة قُبيل نهاية الحَرْب، لتجد هَذِهِ المدينة نفسها جزءًا من المنطقة الَّتِي احتلتها روسيا في ألمانيا الغربية عند انتهاء الحَرْب. (لتأخذ فكرة عن كثب عن ذاك القصف، يمكن أن تقرأ رواية المسلخ الخامس للكاتب فونغورت).[2]

وعندما عاد فيلف إلى بيته وسط ركام مدينة دريسدن، التقى بِهِ ضابط استخبارات سوفيَاتِيّ، فأطعمه واصطحبه في جولة بين هَذَا الركام. "انظر ما فعلوه، لم يكن هُنَا أي أهداف عَسكَرِيَّة، دمَّر الأمريكيون هَذَا الرمز الحضاري هُنَا لأنهم لا يملكون حساً بالفن، ولا إحساساً بالتاريخ، ليس لديهم سوى الحقد اتجاه أفضل رموز الثقافة الألمانية. ساعدنا على قتال هؤلاء البرابرة".

ربما كَانَ حزن فيلف من الفناء الَّذِي تعرَّضت لَهُ مدينته سبباً حقيقياً لرجل لم تتحرك عواطفه الحقيقية مذ أنجبته أمه. لكن الانتقام لم يكن دافعه، ولا تحوّلت حماسته النازية إلى حماسة شيوعية. ربما كَانَ متحمِّسَاً لشيء واحد فقط: وضعه كمشغِّل استخبارات ذكي، لقد لائمَهُ النظام الشيوعي كما لائمه النظام النازي؛ فكلاهما كانا حَسَنَي التنظيم. أما الأيديولوجيا فلم تكن دافعه للعودة إلى ألمانيا الشرقية في السابق أو لاحقاً أو في النهاية؛ عندما بودِلَ بأحد عشر سجيناً كانوا محتجزين في سجون ألمانيا الشرقية. وبَهَرَتهُ حِرَفيَّة ومِهَنِية

[1] العصر الباروقي: هو عصر نمط من الفنون، ابتدأ حوالي 1600 في روما وإيطاليا، ثُمَّ انتشر إلى معظم أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

[2] تعرَّضت مدينة دريسدن الألمانية لقصف رهيب من القاذفات البرِيطَانِيَّة والأمرِيكِيَّة في شهر شباط من سنة 1945 خلال الحَرْب العالمية الثانية حوَّل معظم مبانيها إلى ركام وقتل معظم سكانها حرقاً وردماً، حَيْثُ استخدم الحلفاء القصف السجادي المكثف بالنابالم.

الكي جي بي، وأحبَّ على وجه الخصوص فكرة أن العمل الاسْتِخْبَارَاتِيّ الاحترافي يَجِبُ أن يُخطَطَ لسنوات، وحَتَّى عقود، قبل اختراقه عدوّه. وتوافق فِي هَذِهِ النقطة مع ضابط حالته من الكي جي بي، فشرعا بمشروع يمكنه من خلاله تنفيذ عمله.

ووضع نفسه تحت تصرف جهاز الاسْتِخْبَارَات الجديد لجمهورية ألمانيا (الغربية) الفيدرالية حديثة التأسيس. وبات اسم الجهاز: جهاز المخابرات الفيدرالية، ورَأَسَهُ الجنرال السابق رينهارد غيهلين مدعوماً من الولايات المتحدة. وحددت الكي جي بي الولايات المتحدة كـ"عدو أول" قبل أن يسمع المواطنون الأمريكيون بأنه كَانَ ثمة حرب باردة. وفي جهاز المخابرات الفيدرالية، وبمساعدة ملحوظة من الكي جي بي، ترقَّى فيلف ليصبح مدير مكافحة الاسْتِخْبَارَات الموجَّهة ضد الكي جي بي.

وكَانَت الاختراقات الناجحة -فيلبي، وبلنت، وبلاك، وفيلف- عملية استراتيجية بدأت بتجنيد عميل لمجرد أنه يبدو عليه أنه سيصل إلى منصب على قدر من الأهمية فِي الاسْتِخْبَارَات. بالفعل جُنِّد فيلف قبل تنظيم جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي سيخترقه فِي النهاية.

كيفَ تصلُ إلى الاختراقاتِ؟

تُسمَّى حيلُ وتقنيات الاختراقات -في بعض الأحيان- "الانشقاقات فِي المكان"، وهي عملياً نفس تِلْكَ التقنيات المُستخدمَة لكسب المُنشَقّين. لذا قد يتكرر الكثير مِمَّا سيرد فِي هَذَا الفصل فِي الفصل التالي، الَّذِي سيتناول المنشقّين بالتفصيل. لكن لاحظ رجاءً وجود فروقات، فلا يرغب كُلّ المتطوعين العاملين فِي الاختراقات أن يغادروا مناصبهم فِي المستقبل، ولا يرغب كُلّ المنشقين المتطوعين -أو لا يمكن إقناعهم- بالعمل كجواسيس قبل أن يجتازوا الخط الفاصل من جانب الدول الَّتِي ينتسبون إليها إلى جانبك.

الابتزازُ الروسي:

المناجذ[1] الروس الَّذِينَ تحدثنا عنهم آنفاً لم يخضعوا للابتزاز حَتَّى يصبحوا جواسيساً. ومع ذَلِكَ فالسجلات العامة تسجّل مئات الحالات الأخرى، وتصنّف آلافاً من الملفات السرية، حول استخدام أجهزة الاسْتِخْبَارَات الروسية أو محاولتها استخدام الابتزاز وسيلةً لتجنيد الاختراقات.

التقليدُ الروسي باستخدام الابتزاز وسيلةً للتجسس يعودُ إلى تاريخ الثورة سنة 1917. وقبل اندلاع الحَرْب بين الروس والإمبراطورية النمساوية بِعِدَّةِ سنوات (الحَرْب العالمية الأولى)، حَيْثُ استخدم جهاز الاسْتِخْبَارَات التابع لروسيا القيصرية عميلاً شاذاً جنسياً للإيقاع برئيس جهاز الاسْتِخْبَارَات النمساوية، "أفيدنسبورغ"، ومن ثُمَّ ابتزُّوه لتقديم معلومات عَسكَرِيَّة، بما في ذَلِكَ خطط التعبئة النمساوية.



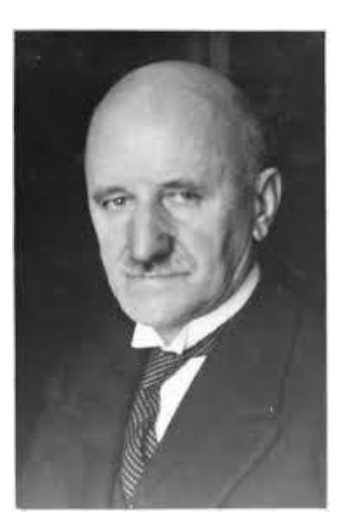
هَذَا الجاسوس النمساوي، العقيد ألفريد ريدل كَانَ مُهمِلاً في سلوكه الشخصي (علاقات مع الشواذ، قمار، شرب الخمور) وجذب شبهة نائبه، ماكسيمليان رونج، الَّذِي تحرى عنه، وكشفه، وواجهه بتجاوزاته، ثُمَّ حثَّه على قتل نفسه بالرصاص بناءً على ميثاق الشرف المُتَّبَع لدى ضباط الفيلق الإمبراطوري.

ثُمَّ واصل رونج ترقّيه في جهاز أفيدنسبورغ[2] حَتَّى بات رئيساً لَهُ خلال الحَرْب العالمية الأولى، ليؤسس ويقود جهاز الاسْتِخْبَارَات لأول جمهورية نمساوية إلى أن ضمَّها هتلر إلى ألمانيا سنة 1938، ليعيش خلال الحَرْب العالمية الثانية كسجين سياسي لدى النازية، وليموت بهدوء في فيينا مناهزاً التسعين من عمره.

---

[1] جمع خلد، وهو جمع من غير لفظه، مثل مرء جمعها رجال.

[2]: أفيدنسبورغ: هو مديرية الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة في الإمبراطورية النمساوية الهنغارية.



وعند حديثه عن حالة ريدل مع ضابط مكافحة استخبارات أمريكي شابٍ قبل موته بسنة، أبدى الجنرال رونج ندمه عن أنه لم يستجوب العقيد ريدل بصرامة. وشرح باستفاضة أن قانون الشرف العَسكَرِيّ (في الإمبراطورية النمساوية حين كَانَت في العهد الملكي) لم يسمح قط بمثل هَذِهِ الإجراءات المُبتَذَلة، فلم يستطع الرائد الشاب رونج أن يفعل ما لم يوافق عليه الإمبراطور المسن فرانز جوزيف، كم تختلف هَذِهِ المعايير عن معايير الشرف لدينا هَذِهِ الأيام.

الاتجاه الغربي: كافةُ الاختراقاتِ تكونُ من متطوعين

نادراً ما تحاول أجهزة الاسْتِخْبَارَات الغربية استخدام الابتزاز، وغالباً ما تفشل حين تحاول هَذَا. أوه بالتأكيد فهُنَالِكَ عنصر من الابتزاز في أي عملية تَجَسُّس بعد حدوث التجنيد، لأن التهديد بالتعرُّض للانكشاف قائم دوماً. لكن نوع الابتزاز الَّذِي كَانَ السُّوفيَات يدمنونه، مثل تصوير الناس في السرير الخطأ ثُمَّ التهديد بنشر الصور ما لم يتحوَّل صاحب الصور إلى جاسوس، ليس شائعاً في الغرب. فهَذَا لا يؤدي إلى الوصول إلى جواسيس متحمّسين، ومعظم ضباط الحالة الغربيين يفتقرون إلى الحماس لِهَذَا النوع من السيطرة على الجواسيس.

الجاسوسُ الجيدُ لجهاز الاسْتِخْبَارَات الغربي، وعلى وجه الخصوص الاختراقات الجيدة لجهاز استخبارات في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة، يَجِبُ أن يكون لديهم أسبابهم الخاصة ليخونوا هَذَا الجهاز. ومهمة المُجَنِّد الغربي هي المساعدة في إيجاد هَذِهِ الأسباب.

نوعان من المتطوعين:

كُلّ الاختراقات تتطوّع من أجل العمل، لكن البعض منهم يفعل هَذَا عندما يكون لديه تواصل شخصي مع شخص يمكنه ضَمُّهُ للعمل، بينما يقوم آخرون بعملهم عن بعد، ولدينا

أمثلة عامة عن النوع الثاني. رمى بوبوف رسالة إلى داخل سيارة مسؤول أمريكي في فيينا، وكتب جولينيفيسكس رسالة باسم مستعار إلى السفارة الأمرِيكِيَّة في سويسرا، وسار أوليج بنكوفيسكس علناً إلى السفارة الأمرِيكِيَّة في موسكو، حَيْثُ طُرِد، ومن بعدها إلى السفارة الكندية، حَيْثُ طُرِدَ أيضاً، وفي النهاية تواصل من خلال رجل أعمال بريطاني.

لن تقرأ كثيراً عن الطريقة الَّتِي يصل بموجبها النوع الآخر من المتطوعين للدرجة الَّتِي يصبحون فيها اختراقات، حَتَّى عندما يتمّ إخلاؤهم في النهاية ويظهرون للعلن ويلفتون انتباه الجمهور. إنه النوع الَّذِي يُجنَّد مباشرة عبر التواصل الشخصي. ولا يتطلَّب غطاءً من الكتّاب مثل ديفيد مارتن، وتشابمان بنشر، وكريستوفر أندرو، وتوماس بورز، وإدوارد جاي إبستين، ببساطة لأن ضباط المخابرات الغربية الَّذِينَ يقومون بالتجنيد ليسوا معروفين لِهَذَا النوع من المؤرخين والصحافيين، لكنهم جميعاً سواء، فهَذَا النوع من التجنيد ليس نادراً.

ترتيبُ الأثاث:

سواء كُنْت تتوقع من المتطوعين أن يأتوا إليك أو يتركوك تجنِّدهم من خلال التواصل الشخصي، فَيَجِبُ أن تكون جاهزاً للتعامل معهم. وهَذَا يعني جهاز دعم جيد (انظر الفصل الرابع) ومنظَّم عالمياً. وفيما يلي بعض المرافق الَّتِي ستحتاجها:

البيوت الآمنة: عندما يمكن ترتيب اجتماعات في منطقة العدو، يمكن تجهيز البيوت الآمنة سلفاً. والمتطوعون الَّذِينَ يُجرُون اتصالات مفاجئةً يَجِبُ أن يؤخذوا إلى مكان آمن من أجل استخلاص المعلومات والترتيبات العملياتية الابتدائية. وعادةً ما يستلزم هَذَا بيئة حَيْثُ يمكن للمُنشق المفترض أن يقتنع بالبقاء في مكانه ويعود إلى عمله دون أن يلحظ أحد غيابه. وبعد انطلاق العملية، يَجِبُ أن تُجَهَّزَ البيوت الآمنة في محيط أي مكان يُحتَمَل عقد اجتماع فيه.

ترتيبات الاجتماعات العَرَضية: في معظم عَمَلِيَّات الاختراق تكون الاجتماعات المتكررة في البيوت الآمنة خياراً غير واقعي. لذا يمكن ترتيب اتصال عَرَضي بِحَيْثُ يتمكَّن فيه العميل من تمرير مواد أو إيصال شارة لمن يُفتَرَض أنه غريب عنه في مكان عام.

استُخدِمَت هَذِهِ الحيلة عشرات المرات في موسكو خلال عملية بنكوفيسكي، أخذت زوجة دبلوماسي بريطاني الأولاد للعب في المتنزهات العامة بِحَيْثُ يستطيع بنكوفيسكي الخارج ظاهرياً في نزهة من تمرير فيلم مصغر لَهَا بينما تظاهر باللعب العَرَضي مع أطفالها.

وأذكر ترتيباً أكثر تفصيلاً حين اضطر عميل للسفر في نهايات الأسبوع بالقطار من مقر قيادته -جهاز الأمن الداخلي- إلى مسقط رأسه، وفي محطة على الطريق، مر قطار في الاتجاه المعاكس، وبالتالي بقي القطاران متوقّفين لعدة دقائق في اتجاهين متعاكسين على جهتين مختلفتين من الرصيف. وأثناء هَذِهِ الدقائق، تبادل العميل وضابط الحالة دون كلام حقائب متماثلة الشكل، ثُمَّ مضى كُلّ منهما إلى الجهة الأخرى.

المركبات: يَجِبُ أن تكونُ السيارات والسائقون جاهزين لأخذك إلى اجتماع، أو نقل عميلك إلى منزل آمن، أو أن يستفيدوا من السيارات كمكان للاجتماع. على التراب المعادي أو المحايد، يتعين عليك استخدام سيارات مُستأجَرة أو سيارات أجرة، وكلاهما تتطلبان التخطيط المسبق. وسيارات الأجرة بالذات مثيرة للمشكلات لأنك يَجِبُ أن تخطط لتجنُّب المراقبة وفضول السائق عبر تغيير السيارة عدة مرات، وفي كُلّ مرة مع وجهة مقبولة بالنسبة للسائق. تذكَّر أن سائقي سيارات الأجرة معتادون على استجوابات الشرطة؛ ولديهم ذاكرة جيدة وعادة ما يحتفظون بسجلات دقيقة.

المُسجِّلات المحمولة: لا تعتمد على ملاحظاتك المكتوبة في الاجتماع لتسجيل دقيق ما لم يكن من المستحيل لأسباب أمنية حمل مُسجِّل صغير.

معدات نسخ الصورة سريعاً: احرص على حيازة مجموعة من معدات تصوير وأدراجاً لحفظ نُسخ الصور، ومصدراً إضافياً للإضاءة، وفيلماً إضافياً احتياطياً يمكنك حمله والتجول بِهِ عندما يكون لديك اجتماع مفاجئ مع عميل اختراق. ويَجِبُ أن تكون هَذِهِ المعدات متاحة على الدوام لانتهاز أية فرصة لحدوث انشقاق، إذا كَانَ هَذَا المُنشَق يحمل مستندات تحوي معلومات لإثبات حسن نيته، فسيترتب عليك نسخها والسماح لَهُ باستعادتها قبل فقدها، فعلى الأقل سترغب بتصوير أوراقه الثبوتية.

الصندوق الهاتفي: بالنسبة للاختراق المُحتَمَل الَّذِي تقابله اجتماعياً قل: "اسمع بوريس، لا تتصل بي على البيت. هَذَا رقم لن يتسبب لأيّ منا بالمشكلات". وقل للخلد المُجنَّد: "هَذَا رقم لتتذكره وكود للإشارات الَّتِي تتعين عليك استخدامها حين تريد اجتماعاً، عندما تعتقد بأنك مشتبه بك، عندما تشحن صندوقاً ميتاً (أربع رنات، انتظار دقيقتين، ثُمَّ أربع رنات أخرى)". هَذِهِ الهواتف ينبغي أن تُجهَّز وتدَّخر للاستعمال المستقبلي؛ كن مستعداً.

المراقبة: فريق المراقبة الَّذِي يعمل لصالحك -أو أياً كَانَت وسائل المراقبة الَّتِي لديك- يَجِبُ أن يغطِّي الاجتماعات لكشف أي شارات عن المراقبة المعادية لعميلك أو المراقبة العَرَضية لمكان الاجتماع من قِبَل طرف ثالث مثل الشرطة المحلية.

الصندوق الميت: لا تستخدم ذات الصندوق مرتين. ويَجِبُ تفتيش الصندوق الميت الَّذِي اخترته بعناية، والصناديق الَّتِي يختارها العُمَلَاءُ يَجِبُ فحصها بعناية مقدماً عبر إجراء عملية شحن واحدة بريئة على الأقل، وإن كُنْت لا تستطيع المجازفة بالتحرك في المنطقة أكثر من مرة، فاترك الصندوق دون تفريغه.

الصندوق الحي: الصندوق الحي الَّذِي يتوجَّب على العميل أن يزوره هو مكانٌ يشكل دخوله مجازفة، وتكون تغطية جهة الاتصال هُنَا مهمة للغاية. الصندوق الحي الَّذِي يكون عنواناً سكنياً فقط (مثلاً: صندوق بريد في بريطانيا) يكون ضاراً فقط عندما لا يكون ثمة الكثير منه، فمن الحكمة تجهيز ضِعفَ عدد عناوين الإقامة المباشرة الَّتِي يمكنك توقُّع استخدامها كما يتوجب الحفاظ عليها.

البحثُ والاستهدافُ:

يتناول الفصل السادس عشر من هَذَا الكتاب نظام الملفَّات لديك، وفي جزء منه يتطرَّق إلى ملفَّات أهدافك. وهَذَا يعني تصنيف جميع المواد من جميع المصادر الَّتِي تعتمد على الاسْتِخْبَارَات، ومكافحة الاسْتِخْبَارَات وغيرها من الأجهزة التآمرية الَّتِي تعتمد عليها للاختراق. والملفات لدى قياداتك ربما تكون كبيرة، لدرجة أنك لو التقيت أحد أفراد جهاز استخبارات معادٍ في حفل استقبال دبلوماسي، أو التقطتَ اسمه من خلال عميل

مزدوج، أو كشفته من خلال المراقبة، وطلبت اقتفاء أثره من البيت، يَجِبُ أن نتلقى ملخصاً عن تاريخه من جميع المصادر الَّتِي تعرفه.

وأحد الأمثلة الملموسة: أتذكر لقاءً اجتماعياً مع دبلوماسي شرقي دفعه شغفه بكرة القدم إلى التحدُّث عن مباراة دولية كَانَت قد جرت قبل عشر سنوات في جزء آخر من العالم. وتوصَّلَت التحريات إلى أنه ضابط أمن دولة أُرسِل إلى المباراة بغطاء مدرِّب لفريقه الوطني بمهمة التحري حول اختفاء أحد زملائه. كَانَ هَذَا الزميل قد انشق بالفعل وانضم إلى الغرب وقدَّم شرحاً تفصيلياً لعمل جهازه، بما في ذَلِكَ معلومات عن السيرة الذاتية لِهَذَا "الدبلوماسي" الَّذِي وجدت نفسي الآن على اتصال بِهِ.

هَذِهِ المعلومة من ملف الهدف عن جهاز استخبارات العدو مكنتني من استباق الشخص الَّذِي أتعامل معه وأثبتت فائدتها. حكمت بأنه لن يتطوَّع للعمل كاختراق لذا لم أحاول تجنيده، لكنني استفدت من معرفتي بِهِ لحماية "دبلوماسي" آخر في سفارته كنا قد جنّدناه كاختراق. وكم كَانَ هَذَا الاختراق ممتناً لقدرتي على تدريبه لتجنُّب التحقيق ولتأكُّدِهِ من أن جهازي كَانَ -وما زال- نِدَّاً لجهازه من الناحية المِهَنِيَّة. ملفات الهدف الَّتِي تحفظها في الميدان وتِلْكَ في مقر القيادة يَجِبُ أن تكون مرجعك الدائم في برنامج الاختراق الَّذِي تنفِّذه.

نثرُ بذورِ الشَّكِ:

لأنك عضو في جهاز استخبارات غربي ومجتمع الاسْتِخْبَارَات الغربية، فالمتطوِّع المُحتَمَل يعرف مسبقاً أن جهازك وأجهزة أصدقائك جهاز استخبارات واحد. وما لا يعرفونه هو أين يذهبون كي يتطوعوا؟ إنهم يحتاجون سبيلاً للوصول إليك، وإن كُنْتَ تريد منحهم سبيلاً للوصول إليك فَيَجِبُ أن نتدبر إمكانية الوصول إليهم. وسيضعك هَذَا في لعبة تبدو في العادة سخيفةً بين ضباط الاسْتِخْبَارَات المتقابلة في حفلات استقبال وحفلات كوكتيل ودعوات غداء أو عشاء يَتُمّ اختلاقها بصعوبة بالغة، وأحاديث عن كرة القدم وحفلات

الأوبرا والصيد، وكُلّ من الجانبين يأمل تجنيد الآخر، وكُلّ منهما يعود إلى مكتبه ليكتب تقارير تواصل ويضعها في ملفاته كمعلومات عن السيرة الشخصية أو المراقبة الشخصية.

وفي الكثير من الأحيان يلعب "وسطاء الوصول" هَذِهِ اللعبة من كُلّ جانب. المُلحَقون التجاريون الهنغاريون الَّذِينَ تلعب معهم الورق يمكن أن ينقلوا حكايات عنك إلى أعدائك في جهاز الاسْتِخْبَارَات الهنغاري، ولا ضير إن قدَّمَت هَذِهِ الروايات صورة عن مسؤول متعاطف مع هنغاريا ولكنه في نفس الوقت مُخلِص لحكومته. وإن كَانَ الضابط الهنغاري يرغب فيُمكِن للملحق التجاري أن يرتب إنهاء اللعبة في الجولة الثالثة، لتبدأ بعد ذَلِكَ لعبة مَن يُجنِّد مَن.

في بعض الأحيان ستصل إلى الهدف من خلال قناة عميل مزدوج. إن كَانَ ضابط حالة للعدو يشغِّل عميلاً مزدوجاً ضدك، فيمكنه استخدام ذاك العميل ليرسل لك رسالةً أو يؤسس اتصالاً.

الدافع: هل ماتت الأيديولوجيا؟

من الذائع الإشارة إلى الاختراق على أنه "انشقاق في المكان". وتقول النظرية إنه في مكان ما من عقولهم، اختار هؤلاء الجواسيس "الحرية" ويعملون ضد نظام نشأوا فيه وواصلوا حياتهم المهنية لتحقيق النصر للنظام الَّذِي تبنَّوه والدمار للنظام الَّذِي تخلوا عنه، فمن المفترض إذاً أن تكون دوافعهم أيديولوجية.

فيلبي الشيوعي في الثلاثينات:

في حالة فيلبي كَانَ الدافع أيديولوجياً بِشَكلٍ واضحٍ، فقد اعتنق الشيوعية بقوة -كما قال- اعتباراً من الفصل الدراسي الأخير لَهُ في جامعة كامبريدج: "تخرجت من الجامعة بمعدَّل جيد ومقتنعاً بأن حياتي يَجِبُ أن تُكرَّس للشيوعية" (حربي الصامتة، لندن 1968)، لكنَّ هَذَا كُتِب بتوجيه من الكي جي بي بعد استقراره في موسكو. وكرَّس لعقود مواهبه

الاستثنائية في التآمر والاسْتِخْبَارَات للتلاعب بأصدقائه وأعدائه، وأُسلّمُ بأن الأيديولوجيا كَانَت مفتاح دخوله إلى عمله كمتلاعب، لكن دافعه من المهد إلى اللحد كَانَ الرضا عن النفس الَّذِي جناه من التلاعب، ومن الشعور المستتر بالرضا لخيانته نفسه، بعد خيانته بلده، وجهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي عمل فيه، وزملائه وربما عدد من العُمَلَاء خسروا حياتهم، ذهب ليستقر في موسكو بعد أن خان صديقه الوحيد دونالد ماكلين عبر سرقة زوجته.

فيلف النازي الَّذِي تحوَّلَ إلى الشيوعية:

في حالة هينز فيلف، كَانَ الدافع أيديولوجياً بالمصادفة. فقد كَانَ تقنياً تنحصر رغبته بتطبيق أسلوبه في أن يكون ضمن الفريق المنتصر. أما الأيديولوجيا فقد كَانَت مُزعِجَة لَهُ، وخصوصاً كوسيلة للتلاعب بأعدائه وأصدقائه. كَانَت شهية التلاعب لديه والاستمتاع بالخيانة -كما لدى فيلبي- القوَّتان الدافعتان لَهُ في حياته.

لم ينشق كُلّ من فيلبي وفيليف عن مكانهما، بل كانا مُنشقَّين قبل فترة طويلة من وصولهما إلى مكانهما، فإن لم يكونا مدفوعين بالأيديولوجيا -وهما بالفعل ليسا مدفوعين- فما هو الاختراق إذاً؟ أعتقد كقاعدة عامة لا تخرقها سوى قلة من الاستثناءات أن الأيديولوجيا الشيوعية لم تكن القاعدة المعتادة والدافع الحقيقي لِعُمَلَاء الاختراق الفعَّال مثل فيلبي وفيلف الَّذِينَ أدارتهما أجهزة الاسْتِخْبَارَات التابعة للكتلة السُّوفيَاتِيَّة في الغرب.

آجي، الأمريكي غير المستقر:

للوهلة الأولى، يبدو الأمريكي فيليب آجي استثناءً لِهَذِهِ القاعدة العامة، لكنه في الحقيقة ليس استثناءً. فقد عمل آجي لاثنتي عشرة سنة في جهاز الاسْتِخْبَارَات السري للسي آي إيه، في واشنطن والإكوادور والأورغواي والمكسيك. ومن الواضح أنه انشقَّ قبل أن يبدأ عمله بفترة طويلة كاختراق تابع للسي آي إيه في كوبا.

رغم أنه يصوِّر نفسه كمُعتَنِق للأيديولوجيا الماركسية (من كتّاب من داخل المؤسسة: يوميات السي آي إيه [نيويورك: ستونهيل 1975] الَّذِي كُتِب بمساعدة كبيرة من مديرية الاسْتِخْبَارَات العامة الكوبية)، وعرف زملاؤه السابقون كم كَانَ مُحبَطاً من عمله ساخطاً على رؤسائه وكيف كَانَ زوجاً فوضوياً قبل مدة طويلة من اكتشاف انتمائه للماركسية. حقيقة أن ضباط حالته الكوبيون/الروس لم يتمكنوا من إبقائه في مكانه كاختراق يشهد باختلاله العقلي والعاطفي.

وحسب خبرتي، فلم تكن الاختراقات الغربية لأهداف في الكتلة السُّوفيَاتيَّة مدفوعة بالأيديولوجيا، بل كَانَت دوافعهم تكتيكية وليست استراتيجية. فقد طغى عليهم الاشمئزاز من العقيدة السُّوفيَاتِيَّة، لأن الجميع في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة انتابهم الاشمئزاز من هَذِهِ الأيديولوجيا. فتطوَّعوا لارتكاب الخيانة ضد نظامهم الشيوعي الأم، أو سمحوا لأنفسهم بأن يُجنَّدوا لفعل هَذَا، لأنه كَانَ لديهم بعض الأسباب الشخصية لتخريب مؤسساتهم المحلية.

خلال الحَرْب الباردة، لم تكن القاعدة العامة (سمِّها نظرية، إن شئت) بأن عُمَلَاءَ الاختراق الفعَّالين لا يكونون مدفوعين في العادة بالأيديولوجيا الشيوعية أو الأيديولوجيا المعادية للشيوعية، قاعدةً رائجة لدى كلا جانبي الستار الحديدي. هَذَا سيجعل زملاءك ومُشرفيك الَّذِينَ يضغطون طلباً للتمويل، يقيمون علاقات عامة، وينفِّذون عَمَلِيَّات دعائية إضافة إلى عملهم السري المرهق. أذكر هَذَا للتذكير بأن وضع هَذِهِ القاعدة في الحسبان يوفِّر عليك الوقت والطاقة، فالقاعدة خلال أيام الحَرْب الباردة -والَّتِي ما زالت تنطبق اليوم على أعداء مُشابهين من ناحية الأيديولوجيا- هي أنه عند التخطيط للتجنيد والتعامل مع الاختراق لأجهزة استخبارات مثل تِلْكَ التابعة للكتلة السُّوفيَاتِيَّة، فركِّز على دوافع الهدف الشخصية، وليس على السياسة المُعلَنَة، فإن كَانَ يريد مناقشة الأيديولوجيا، فدعه يفعل، لكن لا تفترض أبداً أن الأيديولوجيا هي الَّتِي تتحكم بأفعاله حقاً، حَتَّى وإن كَانَ يعتقد ذَلِكَ.

خارج ميدان الصراع الشرقي/الغربي، يمكن تطبيق العديد من القواعد. ربما كَانَ دافع جاي بولارد للتجسس لصالح إسرائيل أيديولوجياً حقاً مع أنه لم يكن مستقر المزاج. في

عَمَلِيَّات اختراق منظمة إرهابية، ستواجه بلا شك أشخاصاً مُخلِصين وأحياناً مُتَعصِّبين للأيديولوجيا الَّتِي يحملونها أو متقلبي المزاج، وربما يكون سريع التأثر بأي جهة تدّعي تمثيل منهج مُعيَّن.

لذا فقد يكون فرد في: "التنظيم العالمي لأخوَّة تدمير أعداء الإيمان الحقيقي" سريعَ التأثُّر بمنهج شخص يعتقد أنه فرد من تنظيم "حراس المُعتَقَد الصحيح" أكثر من استجابته لعميل في جهاز استخبارات رسمي. إن تمكنت من اختراق "حراس المعتقد الصحيح"، فيمكنك عندئذٍ اختراق جماعة "الإيمان الحقيقي" بِشَكلٍ كبير دون إظهار الراية الحقيقية. أو يمكنك اختراع منظمة "حراس المُعتَقَد الصحيح" للاستفادة منها في اختراق جماعة "الإيمان الحقيقي".

من يتولى المهمة:

دائماً ما تؤكّدُ المناهج التدريبية في مكافحة الاسْتِخْبَارَات على السيطرة على عملائك العاديين وعملائك المزدوجين وعلى اختراقاتك. والتوجيه كلمة محبَّذة: "أصدر دوماً توجيهاً مُفصَّلَاً لعميلك"، ثُمَّ التأكيد على التدريب: "تدريب العميل يَجِبُ أن يتواصل".

حسناً، هَذَا صحيحٌ تماماً وواضحٌ تماماً، لكن في حالة الاختراق الجيد لجهاز استخبارات العدو، غالباً ما تكون السيطرة بيد الاختراق لا بيدك، لماذا؟ هُنَالِكَ أسباب ثلاثة تتعلق بتحديد: ما يَجِبُ أن يُسرق، وكيف يُسرق، وكيفية تسليمه.

ما يَجِبُ أن يُسرق: كونه محترفاً وكونه عميلاً، يعرف الاختراق أفضل من ضابط حالته ما هي المتطلبات. وهو يعرف أفضل منك، ما يعتبره زملاؤه حساساً ومهماً، وما يتمنون أن يحموه من أمثالك. لذا فهو يعرف أفضل منك ما ينبغي أن يُسرق.

كيفَ يسرقهُ؟ كونه محترفاً وكونه في مكانه، يعرف الاختراق أكثر منك كيف يسرق المواد. أتَذَكُرْ أولئك الهنغاريين السُّذَج كيف أخبروا شمولكا (في الفصل التاسع) بأن عليه أن يستخدم أوراق اعتماده كفرد من مفرزة التحقيق الجنائي لتكون غطاءً لَهُ، ومعدات

التحقيق لتصوير وثائق اتصالات حساسة!! لو كَانَ شمولكا تحت سيطرة الهنغاريين، لأعطى مُشغِّليه دورةً سريعةً عن الطريقة الَّتِي يعمل فيها الجيش الأمريكي. فأفراد مفرزة التحقيق الجنائي لا يحق لهم الوصول إلى مواد الاتصالات.

كيفيةُ التسليم: كونه محترفاً، وكونه في مكانه، يعرف الاختراق أكثر منك كيف يتصل بك. فهو يعرف متى وأين يستطيع السفر، ويعرف ما يمكنه إخفاؤه وأين يخفيه، ويشعر إن كَانَ خاضعاً للمراقبة أم لا.

نقاطُ الضعفِ:

هل يعرفُ خلدُكَ المحترفُ دوماً الكثير؟ نعم. في العادة يعرف الكثير، لكن كن حذراً طوال الوقت. ففي اختياره لما يسرق، ربما يقوم ببعض المراقبة. وقد يفحص بعض الأشياء الَّتِي قد تضر بصديق شخصي، أو يخفي أشياء يمكن أن تُظهِره بمظهر غير الكفء أو المهمل، ويحذف أشياء قد تحملك على تكليفه بمهام لا يريد أداءها. في حكمه على كيف يسرق؟ ربما يستخدم الإجراءات المُتَّبعة في الجهاز الَّذِي يعمل فيه، وبالتالي سيكون عرضة للانكشاف. أيضاً، يمكنك اتِّباع بعض الإجراءات الَّتِي قد تكون أكثر أماناً في انتقاء كيفية التسليم، كما يمكنه أن يتَّبِع طرقاً ارتجالية للتواصل ويتجاهل الطرق الأكثر عملية في الصناديق الحية والميتة والهاتفية، والاجتماعات العَرَضيَّة، وما شابه مِمَّا يمكن تنشيطه.

أن يكون المرء محترفاً فلهذا جانب سلبي في الاختراق: وهو الثقةُ المفرطةُ بالنفس. إن كَانَ اختراقك عميلاً جيداً، فلأنه محترفٌ في هَذِهِ المهنة، ولدى هؤلاء نصيبٌ كبيرٌ من الثقة بالنفس. كما أنهم يتمتَّعون بالثقة بالنفس فيما يتعلق بالإجراءات الَّتِي اعتادوا اتباعها في جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي كانوا يعملون فيه، ويميلون إلى عدم الثقة بأولئك الَّذِينَ يعملون في أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية مثل الجهاز الَّذِي تعمل فيه. لكن قد لا يكونون دوماً على حق.



يشكِّل ميشال غولونسكي، العقيد في جهاز أمن الدولة البولندي والمتعاون مع الكي جي بي مثالاً على رجل مخابرات محترف تولى إدارة نفسه بنفسه. وأرسل التقارير إلى السي آي إيه من خلال قناة بريدية كَانَ قد أسسها، ومن خلال صناديق ميتة كَانَ قد رتَّبَهَا من خلال قناته البريدية، وأخفى هويته الحقيقية عن السي آي إيه حَتَّى حان الوقت لانشقاقه صراحةً. وعلى الرغم من هَذِهِ المراوغات فقد كشفت اعترافاته عدداً من اختراقات الكي جي بي المُندَسّين بعناية، بعضهم مذكور في هَذَا الكتاب (فيلف، بلاك، مولودي/لونسدال) وذُكِر بعضهم في مصادر عامة أخرى، وبعضها لم يُنشر بعد.

كَانَ غولونسكي ضابط استخبارات سرية كفئاً، ولم يتصف بنقاط الضعف الَّتِي ذكرناها آنفاً، أو على الأقل لم تكن عيوبه قاتلة. والحقيقة المثيرة للسخرية هي أن غولونسكي كَانَ مجنوناً. وظن نفسه: ليس نابليون وإنما القيصر إلكسي، الَّذِي كَانَ سيرث عرش أسرة رومانوف لولا أنه قُتِل في 16 تموز سنة 1918 على يد البلاشفة. هل كَانَ لمرضه بجنون العظمة دور في مهارته كعميل سري أم لم يكن؟ يَجِبُ أن نفكِّر بالإجابة على هَذَا السؤال ملياً.

تدريب أم تلقين؟

تلخيصاً لما تقدَّم: الاختراق على مستوى عالٍ لجهاز استخبارات معادٍ يَجِبُ أن يَعتَبِرَ نفسه مُكلَّفاً بالعملية، وسيتولَّى بنفسه المَهَمَّة عملياً. وقد يُضعِف هَذَا العملية أكثر مِمَّا يقويِّها. لأنه لن يكون لديك الكثير من الخيارات، بل يمكنك أن تأمل فقط أن اختراقك بالفعل مُشغِّل سِرّي محترف وكفء أو أن الظروف ستسمحُ لك بتدريبه.

تدريبُ المبتدئين:

إن لم يكن اختراقك مُشغّلاً سرياً بل محللاً، أو إدارياً أو مُنفّذاً، أو ضابط اتصال (قيّم لكن نادر)، ستكونُ مشكلتك في تدريبه مشكلةً لوجستية بالمقام الأول. هل يمكنك مقابلته وجهاً لوجه في بيت أو مكتب آمن؟ أعطه عندئذٍ المنهاجَ بأكمله مع كُلّ ما تستلزمه المهنة. وإن اضطررت لإدارته عن بعد، فأْمَلْ أن يكون لديه نصيب من التفكير السليم والقدرة الجيدة على المراقبة، وغريزة قوية للبقاء، لأن هَذِهِ المزايا هي السمات الأساسية الَّتِي يقدّمِها التدريب السري والتجربة.

أعطه -عن بُعد- التدريب المهني اللازم على وسائل حِرفة الاسْتِخْبَارَات، ولا تترك العملية تُدارُ من قِبَل لجنة من المشرفين؛ ففي كُلّ اختراق جيد سيسعى كبار الضباط للتدخل. استمع لنصائحهم، لكن تذكَّر أن كبار الضباط يحصدون ثمار النجاح، بينما يقع اللوم عليك في حال الفشل.

تلقينُ المحترفِ:

إن كَانَ اختراقك مُشغّلاً سرياً (كما هو الحال في معظم الاختراقات، لأن البقية قَلَّما ينجون) فعملك ليس كله تدريباً كُلقِّن، بل يَجِبُ عليك جعله يتأقلم مع الطريقة الَّتِي يعمل فيها جهازك، والطريقة الَّتِي ينظر فيها جهازك إلى الأشياء، والطريقة الَّتِي يشعر فيها جهازك بنفسه. في البداية سيعتقد اختراقك أنه يعرف كُلّ هَذِهِ الأشياء، وسيتوقع منك أن تتفاعل حسب الصورة الَّتِي تصوَّرَها في ذهنه، والَّتِي شكَّلَتْها سنون البروبوغاندا الغامضة والتقارير المُتَفَرِّقَة. سيتوقع منك القيام بأعمال تفوق طاقتك، وسيقف مشدوهاً أمام بعض الأعمال الَّتِي تستطيع حقاً القيام بِهَا.

الأساس في التلقين الناجح هو إقامة الصلة، الصداقة، الزمالة، الاحترام المهني بين العميل وضابط الحالة. في حالة "بويتر سيمينوفيش بوبوف" اختراق السي آي إيه للمديرية العامة لِلاسْتِخْبَارَاتِ الروسية الَّذِي ذكره بيل هود في كتابه: "الخلد"، حافَظَ ضابط الحالة على

الصلة بالعميل الَّذِي كَانَ مُقرَّباً منه بذات الدرجة الَّتِي يحظى بِهَا أي من زملائه الأمريكيين، وكَانَ أقرب إلى بوبوف من زملائه الروس.

البطل "بويتر سيمينوفيش بوبوف"، سماه ديفيد مارتن في كتابه (غابة المرايا، الصادر سنة 1980) "جورج كيسفالتر"، وسمّاه هود باسم "جورج دومنين"، وكَانَ شبيهاً برئيس الوزراء السُّوفيَاتِيّ جورجي مالنيكوف، وتحدَّث اللغة الروسية بطلاقة. وكَانَ بالنسبة للروس رجلاً طيباً للغاية، (وبالنسبة للأمريكيين -وهَذَا رأيي- كَانَ رجلاً طَيِّباً فوق التَّصَوُّر).

الإخلاء:

متوسط العمر المُتَوَقَّع لأي عملية اختراق لجهاز استخبارات معادٍ يكون غالباً قصيراً. يَجِبُ أن تدرك هَذَا وتقوم بأقصى ما يمكن لإطالة عمر حياة العميل إلى ما بعد حياة العملية. بمعنى أن نتوقع اليوم الَّذِي يتحوَّل فيه اختراقك إلى منشق، وتخطط معه ما هي الأعمال الواجب اتخاذها بالضبط في ذَلِكَ اليوم.

الإشارات الَّتِي تؤدي إلى الإخلاء يَجِبُ أن تأتي فعلياً من العميل نفسه، لأنه يدرك عادةً إشارات الخطر أكثر منك. إن كَانَ عناصر مكافحة الاسْتِخْبَارَات أو الأمن في الجهاز الَّذِي يعمل فيه مُرتابين، يمكن عندها أن يكتشف المراقبة، ويلحظ تغييراً في الموقف منه من قِبَل زملائه، أو يجد نفسه فَجْأَةً وقد نُقِل إلى واجبات أخرى، وقد يتناها إلى مسمعه أنه سيخضع للتحقيق، أو أن المواد الَّتِي تعامل معها ستُصار لتحليلها بِشَكلٍ غير اعتيادي. عند هَذِهِ النقطة، يعود الأمر إليه بأن يلفلف العملية، ويستخدم أسرع وسائل الاتصالات ليتنصَّل منها.

في بعض الأحيان تُصدِر -كضابط حالة- وكامل فريق العملية إشارةً إلى أن العملية قد اختُرِقَت أو أنها على وشك الاختراق. قد تأتي هَذِهِ الإشارة من اختراق آخر، أو من منشق، أو من عميل مزدوج. إن كَانَ فريقك يقوم بعمل الملفات على ما يُرام، ربما تأتي الإشارة من تحليل دقيق للقضية مع الأخذ بعين الاعتبار كُلّ ما تعرفه من المصادر الأخرى. ومع هَذَا فعندما تحصل على الشارة تحرَّك بسرعةٍ.

إن كُنْت محظوظاً وماهراً، سيأتي إغلاق العملية تحت عنوان آخر: التعامل مع المنشَّقّين (الفصل الرابع عشر). أم إن لم تكن ماهراً أو محظوظاً فستحمل دم العميل المزدوج على راحتي يديك. وهَذَا ليس مُضرّاً بعميلك فقط، بل إنه مضرٌّ بعملك.

(14)

المنشقُّون: ثاني أفضل أسلحتك

إلى جانب الاختراقات (المناجذ)، فالمنشقون هم أفضل سلاح لك ضد أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية. إنهم يأتون بالكثير من المعلومات عظيمة الأهمية، على الرغم من أنها قد تكون محدودةً بسبب حقيقة أن بياناتهم قديمة. ستميل للشعور بالثقة بالمنشقّين، متى وصلتَ إليهم، لأن المُنشقِّين يأتون بكمياتٍ هائلةٍ من المعلومات.

وبينما يكون حذرك المهني حاضراً بِشَكلٍ كبيرٍ في حالة الاختراقات والعُمَلَاء المزدوجين، إلا أن ثقتك بالمنشقين تتعزز بالعاطفة. هَب أن هُنَالِكَ جسدَاً حياً ينام في غرفة ضيوفك، يأكل طعامك، ويتحدَّث معك، بل إنه انضم إليك، فهو في جانبك، إنه صديقك.

كن حذراً، فلن تغيب عن العدو حقيقة أن المنشقِّين مصدر مُنتج ومفضَّل. القاعدة الأساسية في الخداع (انظر الفصل الثامن عشر) هي جعل الناس يصدِّقون بالفعل ما يريدون تصديقه، وهذَا ينطبق على المصادر كما ينطبق على المعلومات. لذا قدِّم لعدوك منشقَّاً مُغرِيَاً، ويَجِبُ أن ينقلَ لهم ما يسرُّهُم.

لِهَذَا السبب، كَانَت الانشقاقات المتصاعدة خلال الحَرْب الباردة من الكتلة السُّوفيَاتيَّة تقنية قياسية في أيام الأبوين الروحيين (لينين ودزيرجينسكي) لجهازي الكي جي بي (أمن الدولة) وتشيكا (المفوضية الروسية الاستثنائية لمواجهة الثورة المضادة والتخريب في كُلِّ روسيا).

لذا قبل الخوض في كيفية التعامل مع المنشقين، ربما ترغب بقراءة بعض من الحالات (المثيرة للجدل حتماً) الَّتِي تناقلتها الصحافة. فعلى سبيل المثال كَانَ ضابطُ الكي جي بي "يوري إيفانوفيتش نوسينكو" مُرسَلاً لخداع السي آي إيه الأمرِيكيَّة

حول قضايا عديدة مهمة، مثل طبيعة العلاقات العملياتية بين الكي جي بي و"لي هارفي أوسوالد"، الَّذِي اغتال الرئيس جون كندي.

حالة أخرى من الحالات المثيرة للتأمُّل هي حالة ضابط الكي جي بي "فيتالي سيرجيفيش يورشينكو". في نمط يتَّبعه العديد من المنشقين، لم يكن يورشينكو مستقراً عاطفياً، فقد كَانَ مبتعداً عن عائلته، ومتورطاً في علاقة جنسية فوضوية مع زوجة زميله. ويبدو أن انشقاقه في إيطاليا كَانَ جزءًا من مخطط للاستفادة من الأمريكيين الَّذِينَ انشقَّ إليهم ليرتِّب لَمَّ شمله مع حبيبته، الَّتِي كَانَت مقيمةً مع زوجها في كندا. وتوقع من السي آي إيه أن ترتب هرب هذين العاشقين إلى الولايات المتحدة ليعيشوا بسعادةٍ كمكافأةٍ من مضيفيه الممتنَّين، الَّذِينَ سيقدِّمُ لهم المعلومات والنصائح بلا مقابل.

لكن المخطط اصطدم برفض السيدة الانشقاق، فأحبط هَذَا الرفض يورشينكو، الَّذِي استفاد عندئذٍ من مهاراته المهنية ليعاود الاتصال بالكي جي بي. واستخدمت الكي جي بي عزوفه عن الانشقاق كما لو أنهم دفعوه للانشقاق منذ البداية؛ مع دعاية كبيرة تتهم السي آي إيه باختطافه، وتعذيبه، وارتكاب مخالفات، وعدم الكفاءة، ثُمَّ سحبته الكي جي بي إلى روسيا وأجرت معه تحقيقات مكثَّفة لمعرفة كافة الشخصيات والمؤسسات والمتطلبات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي وشى بِهَا للسي آي إيه.

وماذا بعد؟ أعتقد أن مصير يورشينكو انتهى بطلقة في مؤخرة عنقه، لكن ربما أُعطِي دوراً آخر ليلعبه، وهو مجرَّد إرباك كارهي الكي جي بي من أمثالي في عيون القُرّاء من أمثالك. هَذَا الأسبوع، أي أسبوع، عندما تقرأ عن أن المنشقين ظهروا للعلن (ظهروا لوسائل الإعلام) فاقرأ ما بين السطور فيما تنشره الصحف، وأُمَلْ أن أجهزة الاسْتِخْبَارَات الَّتِي تعمل فيها تدرِّب مكافحة الاسْتِخْبَارَات بينما يكونون متلهفين لاستجواب أي منشق وصل حديثاً.

نقطة أخرى: نحن نتحدث عن منشقين حقيقيين، وليس لاجئين أو رجال أعمال. فلاعبي التنس وراقصي الباليه والكُتّاب المنشقين والصهاينة؛ ليسوا منشقّين بالمعنى الَّذِي نتحدَّث

عنه. وفي كُلّ الأحوال دع دائرة الهجرة ترحب بهم جميعاً. فنحن نأمل أن يلقوا المساعدة وأن يجدوا المكان الآمن في مجتمعنا، لكنهم ليسوا ممن تستقبلهم مكافحة الاسْتِخْبَارَات لتستخلص منهم المعلومات وتعيد توطينهم. أما إن كانوا قد أُرسلوا كعملاء، ففي هَذِهِ الحالة ستصل إليهم من خلال عملياتنا الأخرى.

الدافع:

"الدافع" كلمة مهنية تُستخدَمُ لإقناع شخص ما بالانشقاق والانضمام إليك. ويمكن أن يكون الدافع مُحَدَدَاً، كما في حالة ما إن كُنْت متصلاً مع هدفك تحت بعض الذرائع، أو عامّاً كما هو الحال عندما ترتِّبُ الأمورَ بطريقة تجعل المُنْشَقَّ المُحتمل يعرف كيف يأتي إليك عندما يقرر الانشقاق. ثمة قسم في الفصل الثالث عشر بعنوان "كيف تصل الى الاختراقات" (وهي "منشقون في المكان") تُطبَّقُ مباشرةً على المنشقين الَّذِينَ لا تستطيع - أياً كَانَت الأسباب- أن تبقيهم في أماكنهم كجنابذ.

تراتبيةُ التعاملِ:

التعامل مع منشقٍ لا تستطيع إعادته ليعمل كاختراق يشابه التعامل مع أسير الحَرْب. السجين الَّذِي يُلقى عليه القبض في ميدان المعركة يَجِبُ أن يخضع للاستجواب على مراحل، وعلى مستويات مختلفة من القيادة، ولأجل أنواع مختلفة من المعلومات.

فريق الاستجواب في اللواء والكتيبة للتعامل مع الأسرى، يريد معلومات تكتيكية فورية: مواقع الأسلحة الثقيلة، خطوط حدود الوحدة، قوة المجموعات والفصائل والسرايا، والدوريات والخطط الهجومية. لكن عندما يعود السجين إلى الفرقة، سيرغب فريق استجواب أسرى الحَرْب هناك في الحصول على معلومات حول تعريفات الوحدة (ترتيب المعركة)، وآخر تحركات الفرقة، ومعلومات شخصية عن القادة، و(إن كَانَ الأسير قائداً أو ضابطاً في هيئة الأركان) الخطط التكتيكية.

وفي التحقيق الميداني داخل ساحة المعركة يُحدَّد أيضاً مستوى معلومات السجين. ما الَّذِي يعرفه عن شؤون الإستِرَاتِيجِية العَسكَرِيَّة؟ وعن الشؤون السِّيَاسِيَّة والاقتصاديَّة في بلده؟ وعن الشؤون التقنية والعلمية؟ أما كيف يَجِبُ إجراء مزيد من الاستجواب على المستويات الأعلى فيعتمد على مستوى المعرفة. ولا يعتمد هَذَا بالضرورة على رتبته، فممرِّض الجنرال يعرف عادةً ما يعرفه القائد العام، بل وأكثر منه عن بعض الأشياء.

يَجِبُ أن يخضع المنشق عن جهاز استخبارات العدو هو الآخر للتحقيق على مراحل وعلى مستويات مختلفة. المرحلة الأولى مرحلة حاسمة وتتطلب الحصول على إجابات ابتدائية عن خمسة أسئلة تتداخل فيما بينها عند السؤال.

أولاً، هل يحتاجُ رعايةً طبيةً؟ بعض المنشقين يتسببون لأنفسهم بكسورٍ بطرق عنيفة بعض الشيء ويحتاجون ضمادات أو جبائر، ويصل البعض ثَمِلَاً ويتوجَّب إعادته إلى رشده بأقصى سرعة مُمكِنَة حَتَّى تبدأ مرحلة التحقيق بسرعة. ويصل الكُلّ بأعصاب مُتوتِّرَة، يشعرون بالغضب والخوف. وربما يحتاجون تناول عقاقير مُهدِّئة، لكن عن طريق الطبيب حصراً، إن كَانَ بمتناول يدك طبيب، وخصوصاً إن ظهر الكحول في دمه. فمن السهل أن تقتل أو تتسبب بضرر لدماغ رجل إن استخدمت المهدئات أو المنبِّهات بِشَكلٍ عشوائي.

ثانياً، من يكون؟ وما هو عمله؟ تمعَّن في إجاباته وقارن بينها وبين السِّجلات المحلية المتوافرة وأرسل طلب تعقُّب إلى مكتبك في وطنك. ستحصل على إجابات سريعة، وزملاؤك في الوطن لن يخطر ببالهم أنهم قد نهضوا من الفراش ليقوموا بعملية التتبع. كم مرة يمكن أن تواتيهم الفرصة ليقوموا بمثل هَذِهِ المهمة النادرة؟

ثالثاً، كيف وصل إلى هناك؟ عرفت تحركاته وأفعاله وملاحظاته من الليلة السابقة فقط وحَتَّى اليوم الَّذِي ترك فيه مكانه القديم ووصل إليك. انتبه لَهُ حين يسرد قصته (مرة بعد مرة) لتلتقط شارات التلفيق والإخفاء وتشويه الدافع.

رابعاً، لماذا انشقَّ؟ الكلمة الإنكليزية (why) تحمل معنيين غالباً ما يَتُمّ الخلط بينهما: السبب والمسبب. قد تكون الأسباب أيديولوجية، أما المُسببات فلا يمكن أن تكون أيديولوجية.

فمثلاً: سائق محطة استخبارات للعدو، يذهب في جولة مع عاهرة محلية، ثُمَّ يسكر، ويصطدم بسيارته، لديه سبب ومُسبب للانشقاق. المُسبب هو المأزق الَّذِي وقع فيه، والسبب بدايةً هو تجنُّب تَبِعات أفعاله، لكنه ربما يكتشف لاحقاً أن السبب الحقيقي هو رغبته بالتمتع بالحرية لدى الغرب.

عندما يحدث هَذَا مع رئيسه -وهو ضابط رفيع الرتبة- قد يكون لديه سبب للصمود مدة أطول، لكن سيكون لديه مسبب أيضاً، لا يختلف عادةً كثيراً فيما يخص الجانب الإنساني عن مُسبب السائق. مشكلات العمل والعائلة تبدو في بعض الأحيان مُسبِباً لمعظم الانشقاقات على كافة المستويات. لذا يَجِبُ أن ينقسم هَذَا السؤال إلى سؤالين فرعيين:

ما السببُ في انشقاقه؟ وما حملَهُ على اختيار هَذِهِ اللحظة، أو ما الَّذِي جعلَ هَذِهِ اللحظةَ تختارُهُ؟

ما السبب في انشقاقه؟ سيعتقد في البداية أن المُسبِب هو الَّذِي جعله يقرر الانشقاق. ومع مضي الوقت سيكتشف أن لديه سبباً وأن هَذَا السبب أيديولوجي. فقد كره النظام السُّوفيَاتِيّ، واختار النمط الديمقراطي للحياة، وأراد الاحتفاظ بالحرية.

تذكَّر أن كافة الأشخاص، بمن فيهم أنت، وأنا، والمنشق إليك، يحب أن يصدّق أن قراراته كَانَت منطقية، وأنه كَانَ لدينا سبب منطقي وأخلاقي لِكُلِّ ما فعلناه. وإلا فإننا نفقد أثمن ما نملك؛ ألا وهو احترامنا لذاتنا. لكن تذكَّر أيضاً أننا قلَّما نتَّخذ قرارات في الشؤون الإنسانية بطريقة عقلانية أو منطقية أو أخلاقية.

إن وجدت -مع أي حالة انشقاق خاصة- أن قرار الانشقاق نَبَعَ عن تفكُّر كافٍ، وأنه نال قسطاً وافراً من الدراسة والتبصُّر في العواقب الأخلاقية، فاعتبر عندئذٍ أنك محظوظ لاكتشافك سلعةً نادرةً؛ المنشق الأيديولوجي. فتعامل معه برفق لأنه قد ينهار.

خامساً، هل هو حقيقي؟ المنشق الزائف أو "الطعم" سلعة نادرة، فإن لم تكتشفه في أوانه، سيستفيد منه عندئذٍ العدو. أما إذا اكتشفته فسيكون عظيم الأهمية بالنسبة إليك كحالة

مكافحة تَجَسُس، لأنه أياً كَانَ ما يمكن أن تكتشفه عن أسباب العدو كي يرسله إليك فسيعطيك نظرة قد تكون ذات قيمة إستراتيجية.

المعلوماتُ الَّتِي تصل إليك من المنشق الزائفِ مُهِمَّةٌ، وربما أهم من تِلْكَ الَّتِي تصلك من منشق حقيقي، لأنها تكشف المعلومات الَّتِي يريدك العدو أن تعرفها، وبالتالي فلا بد وأنها جزءٌ من خطةِ العدو للتلاعب بحكومتك.

نوسينكو حالة تستحق التأمل. كَانَ خلداً متطوعاً سيطر بقوة على (أو هل نقول: سيطرت الكي جي بي من خلاله على؟) حيزٍ واسعٍ من اجتماعات المسؤولين ووسائل الإعلام لما يزيد على سنة، وخلال هَذِهِ السنة رفض الخروج من الاتحاد السُّوفيَاتِيّ وصرَّح مراراً وتكراراً أنه لن ينشق صراحةً، ولن يتخلى على الملأ عن انضمامه للكي جي بي أو عن كونه مواطناً سوفياتياً. ثُمَّ فجأة، وفي أقل من شهرين بعد اغتيال جون كينيدي، نُقل عنه أنه تعامل شخصياً قبل خمس سنوات مع تقييم للكي جي بي عن القاتل المستقبلي أوسوالد في موسكو وعرف أن الكي جي بي لم تجنِّد أوسوالد. وفي ذات الوقت طلب نوسينكو القبول الصريح لَهُ كمنشق، متنازلاً عن مواطنته ومتخلياً عن أسرته في موسكو.

سؤال: لماذا أرادت الكي جي بي من السي آي إيه الاعتقاد أن لي هارفي أوسوالد لم يكن عميلاً سوفياتياً؟

سؤال: كم هو مقدار المعلومات الجديدة عن الكي جي بي الَّتِي بوسعه توفيرها؟ وإلى أي مدى تحتمل الكي جي بي التخلص من هَذِهِ المعلومات الجديدة؟

سؤال، سؤال، سؤال.

طُرِحت في حالة نوسينكو تقريباً كافة الأسئلة الَّتِي يمكن أن تطرحها عندما يأتي إليك منشق من جهاز استخبارات أجنبي. لذا كن مستعداً.

كُنْ مستعداً:

إن لم تكن مستعداً لاستقبال منشق عندما يصل من حَيْثُ كَانَ، فلن يكون لديك الكثير من برامج الانشقاق. والاستعداد لتداخل المنشقّين يرتّب الأجواء للاختراقات (انظر الفصل الثالث عشر). فالعديد من العناصر من جهاز الدعم المحلي (انظر الفصل الرابع عشر) يُستفاد منهم في كلا النوعين من العَمَليَّات:

البيوتُ الآمنةُ:

البيوت الآمنة المُعَدَّة للمنشقين يَجِبُ أن تُرتَّب في أنساق. لأنه يمكن تجهيز أي منشق لينضم إليك بغية كشف منشآتك، أو قد يكون من النوع منخفض المستوى وبالتالي يمكن أن يغيِّر رأيه لاحقاً، يَجِبُ أن يكون أول بيت يحضر إليه المنشق مكاناً يُستخدم للاجتماعات منخفضة السرية الَّتِي قد تكون معلومةً بالنسبة للعدو والسلُطات المحلية من قبل.

وعند اكتمال الاستخلاص الأولي للمعلومات وعندما نتوصل إلى أن هَذَا المنشق قد يكون قيّماً، يَجِبُ نقله إلى بيت آمَن ذي ترتيبات أطول مدىً ويَجِبُ أن يكون مُجهَّزاً بمدبّرين للمنزل بدوامٍ كاملٍ، ويَجِبُ أن يعمل المدبّرون بدوام كامل كحراس ومرافقين وممرضات. أي أنهم يَجِبُ أن يكونوا ضباط حالة أكفاء، مُدَرَّبين على التعامل مع العُمَلَاء ومتآلفين مع الحالات الَّتِي يتعاملون معها. وينبغي أن يكون لديهم لغةٌ مشتركةٌ مع المنشق، ويفضَّل أن تكون لغته، بغضِّ النظر عن مدى إتقانه للغتك. كما يَجِبُ أن يسجّلوا الأسئلة والملاحظات والانتقادات في دفتر.

المعدات المحمولة:

المعدات المحمولة -أجهزة التسجيل، الكاميرات، وما شابه- يَجِبُ أن تكون متاحة للاستخدام في البيت الآمن منخفض المستوى الأمني الَّذِي تقود المنشق إليه في البداية. أما البيت عالي الاحتياطات الأمنية الَّذِي تبدأ بالاستخلاص الجدي للمعلومات فيه يَجِبُ

أن يكون مُجهَّزاً بالكامل بأجهزة التسجيل المخفية، والكاميرات، والشاشات التلفزيونية مغلقة الدارات، والاتصالات الراديوية والهاتفية الآمنة بالقاعدة، ونظام أسلحة دفاعية.

المحققون ومشغلو البوليغراف:

ربما يكون أول تحقيق تجريه عبر البوليغراف في البيت الآمن منخفض الاحتياطات الأمنية. ويَجِبُ أن يكون فريق التحقيق من الضباط المطَّلعين على جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي انشق عنه هَذَا الشخص، ويَجِبُ أن يكون الدعم بالبوليغراف متاحاً على مدار الساعة كُلَّما توقعت قدوم منشقٍ جديد.

التقييم النفسي:

التقييم النفسي الأصلي للمنشق يَجِبُ أن يجريه فريق التحقيق الأولي ولا يستلزم اشتراك أطباء نفسيين محترفين أو أطباء عاديين. وعندما يبدأ الاستخلاص الجدي، يَجِبُ الاستفادة من أي دعم يمكنك تجميعه أو تملكه كاحتياطي من الأطباء النفسيين المحترفين. هَذِهِ الإيجابيات يمكن أن تعطيك نظرةً داخليةً تحتاجها عندما يكون المنشق جديداً وسيحميك ويحميه من أي كآبة تلحقُ بِهِ لاحقاً.

المراقبةُ:

إن اختفى أحد أفراد فريقك -أو موظفيك أو سكرتيرك أو سائقك- ستبحثُ عنه بكافة الوسائل المتاحة لك، وعندما تجده ستحاول استعادته. لذا فعندما تحصلُ على منشق من جهاز آخر، يمكنكُ التأكدُ من أن أعداءك يبذلون أقصى جهودهم لإيجاده وإبعاده عنك. وإن لم يتمكنوا من استعادته فسيحاولون قتله.

الاستخدام الكؤود للمراقبة في البيوت الآمنة وحولها لكشف مراقبة العدو أو محاولة الاتصال بالمنشق إليك؛ مكوّنٌ أَسَاسِيّ من دفاعك. تذكَّر أيضاً حالة المنشق الزائف فيتاليتي يارشينكو، الَّذِي أسس اتصالاته السرية بجاسوسه المقيم، من داخل بيت آمن تابع للسي آي إيه واستخدمه للانسحاب السريع عندما كَانَ هَذَا في صالح العدو. لذا أبقِ المراقبة على

المنشق إليك وعلى المحيطين بِهِ أيضاً. وفي حال المنشقين المهمين، سواءً شككت بحسن نياته أم لا، فلا يضر أن تُبقي مستويين من المراقبة: واحد يمكنه كشفه ويكون على دراية بِهِ، وواحد تأمل ألا يكتشفه. وأظن بأن زملائي السابقين في السي آي إيه يتمنون لو أنهم طبّقوا هَذِهِ الخدعة المـكُلفَة على يورشينكو.

المركبَاتُ، ووسائلُ النقلِ الدوليَّةِ، والوثائقُ:

يُعَدُّ التنقّل حاجةً أسَاسِيَّةً لِكُلِّ من يتعامل مع المنشق وعلى كافة المستويات، إذ يَجِبُ أن تتمكن من نقل المنشق وكافة عناصر فريق المتعاملين معه سريعاً من بيت آمن لآخر، ومن مدينة لأخرى، ومن بلد لآخر. وإن لم يكن بوسع اللوجستيين السريين في جهازك التعامل مع عملية النقل هَذِهِ فمن الأفضل أن تنظر في تحويل هَذَا المنشق إلى جهاز صديق للعمل على هَذِهِ الحالة سويةً. وفي الواقع فالاستغلال المشترك للمنشقين بين أجهزة الاسْتِخْبَارَات الغربية إجراءٌ راسخٌ ويمكن أن يحدث في معظم الحالات، أياً كَانَت الترتيبات اللوجستية المُتَّبَعَة.

إعادةُ التوطينِ:

منذ الأيام الأولى للحرب الباردة، أصبح هناك تدفقٌ ثابت للمنشقين من الشرق إلى الغرب، وكَانَت إعادة توطينهم مهمةً صغيرةً ضمن مهام الاسْتِخْبَارَات الغربية الكبرى، وهو ليس عملاً يجلب المرابح للقائمين عليه (كُلّ المكاسب من هؤلاء المنشقين كَانَت قد حُصِّلَت من قبل)، وغالباً ما ينظر القائمون بأعمال الميزانية إليه بعين الاستياء، فهم يحبون الحد الأدنى من النفقات، سواءً كَانَت هَذِهِ النفقات بالدولار أو الجنيه الإسترليني أو المارك، أو من المعلومات.

نتيجة لِهَذَا الموقف المؤسف -لكن المبرر- يجد الأشخاص المسؤولون عن الميزانية في الغالب طرقاً لتقتير الأموال على المنشقين، ويبدؤون التقتير بعد إعادة التوطين الأصلية، الَّتِي كَانَت جزءًا من عقد قانوني.

عملية التوطين، وبوليصة التأمين، والرواتب السنوية باتت الآن مصونةً، ووصلت إلى حساب مغلق خارج حسابات الميزانية. ما يجد المسؤولون عن الميزانية صعوبةً فيه، هو ملاءمة نظامهم للاستمرار في خدمة المنشقين الَّذِينَ أعيد توطينهم.

لاحظ أيضاً أن المُنشقِّين-مع استثناءات قليلة- هم أناسٌ وجدوا صعوبةً في التأقلم مع بيئتهم، ومع أي بيئة. فإن لم يتأقلموا مع البيئة الَّتِي وُلِدوا وترعرعوا فيها، فلا ينبغي أن نتوقَّع منهم التأقلم والاستمتاع مع الامتنان لبيئتك الغريبة، الَّتِي انشقوا إليها. لاحظ أيضاً، أن الأيديولوجيا والسِّيَاسَة لا تشغل سوى ذاك الحيِّز الصغير في الشخصية المخصص للأيديولوجيا والسِّيَاسَة لدى أي إنسان، أما بقيَّت الشخصية فهي إنسانيةٌ، تكوَّنت عبر طفولتهم والبيئة الخارجية الَّتِي كَانَت على الدوام البيت الَّذِي نشأوا فيه، أياً كَانَت التجربة الَّتِي خاضوها لاحقاً. وعندما ينتهي استجوابهم، وعندما يكونون قد أدلوا بنصائحهم الأخيرة، وعندما يتقاعدون ويذهبون إلى بيوتهم، يواجه أولئك الأجانب الغريبون الَّذِينَ يتحدثون لهجةً غريبةً ولا يحظون بالأصدقاء، وقتاً عصيباً. وسينتابهم الحنين إلى الوطن، وهَذَا الحنين مؤلم، وفي بعض الأحيان قاتل إن لم يُعالج.

إنهم يحتاجون للمساعدة. لكن (المسؤولين عن الميزانية يسألون) بما أنهم قاموا بعملهم، وجنوا ثماره، ووصلوا إلى المرحلة الَّتِي يمكنهم فيها أخذ فرصهم ومواجهة مشكلاتهم الخاصة مثل أي مواطن آخر في هَذَا البلد، فعلامَ نساعدهم؟ هُنَالِكَ سببان: السبب العملي، هو أنهم يشكِّلون خطراً محتملاً. فبالنسبة لهم جميعاً، هم أهداف لِعُمَلَاء العدو. ولديهم أسرار عملياتية عنك، قد تصبح هَذِهِ الأسرار قديمةً لكنها لا تموت. والسبب الإنساني لمساعدتهم هو أنهم كانوا قد ساعدوك من قبل. في عملنا ما تكسبه يَجِبُ أن تدفع لأجله، حَتَّى ولو لم تحدد طريقة الدفع في "اتفاقية إنهاء الخدمة"، وإلا فسيكون لعمل التَّجَسُس سمعةٌ سيئةٌ لدى العامَّة وسيكون لجهازك التَّجَسُسِيّ اسم سيء بين الجواسيس، وأنت نفسك ستشعر بالاستياء لأنك تصرفت كجاسوس سيء.

أفضل طريقة تساعد فيها المنشق الموطَّن ليس بتوطينه بل بأن تجد لَهُ عملاً في مهنةٍ يستطيعُ العمل فيها منتجاً حَتَّى يحين موعد تقاعده. صديق لي، وأحد أقدم المنشقين عن جهاز

استخبارات تابع لإحدى دول الكتلة السُّوفيَاتيَّة، أحب أن يصبح اسمه "جو"، لأنه بعد أن تعلَّم الإنكليزية وجد أنه وفقاً للهجتنا العامية أنه "جو".[1] بعد أن انتهى من الإدلاء بالمعلومات، أراد أن يصبح عميلاً نشطاً. فأجرينا لَهُ بعض العَمَليَّات الجراحية التجميلية لتغيير شكله وعيَّنَّاهُ ضابطاً (في الواقع عدة ضباط) في الجهاز الَّذِي انشق إليه.

ولسنوات كَانَ يتنقَّل مع أحد ضباطنا من مكان لآخر حول العالم يجنِّد مسؤولين من حكومته السابقة ممن يعملون تحت علَمه السابق (الَّذِي بات زائفاً الآن)، مِمَّا وفَّر كميات كبيرةً من المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الثمينة من ملفَّاتهم. وعندما حَكَمْنَا بأن العمل تحت غطاء عمله الزائف قد انتهت مدة صلاحيته، أعطيناه عملاً رسمياً روتينياً ليكون غطاءً تَعامَل تحته مع العُمَلَاء لسنوات، وهَكَذَا كَانَ رفيقاً جيداً جداً.

وفي النهاية آن وقت التقاعد، فتقاعد بشعره الرمادي راضياً، وهو الآن يتهادى بين زهوره، أو يدرِّب فريق ابنه على كرة القدم، أو يعمل ما نعمله جميعاً عند تقاعدنا. لم نوطِّنه أبداً، وإنما ساعدناه فقط على متابعة ما كَانَ يتقنه: التَّجَسُس.

جو لم يكتب كتاباً قط، لكن انظر الكتب الَّتِي كتبها منشقون آخرون. إنها تملأ رفاً طويلاً في مركز التدريب التابع لجهازك. لا تفكر أبداً، مطلقاً، بتاتاً، بالتوطين كخيار مطروح. فلا يَجِبُ أن يفكر أي منشقٍ بأنه قد تَمَّ التخلص منه.

[1] تعني كلمة جو بالإنكليزية الرفيق أو الصديق.

(15)

الاستفادةُ من أجهزةِ الاسْتِخْبَارَاتِ الصديقةِ، الأجنبيَّةِ والمحليَّةِ

القاعدة في جميع البيروقراطيات سواءً كَانَت عَسكَرِيَّةً أم مدنيةً، وسواءً كَانَت وكالةً حكوميةً كبيرةً أم مؤسسةً صغيرةً، هي أنه يمكن تفويض السلطة لكن لا يمكن تفويض المسؤولية؛ إلا في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات. ففي هَذِهِ المهنة تُفوَّض المسؤولية طوال الوقت من خلال ما يُسمَّى الارتباط.

الارتباط هو أحد مُسببات قرحة المعدِة، وارتفاع ضغط الدم، والكآبة، وسلوك جنون العظمة، والكوابيس الَّتِي تنتاب منفّذي مكافحة الاسْتِخْبَارَات. في كُلّ يوم في الارتباط، يفوّضون المسؤولية عن أمن العَمَليَّات إلى جهاز استخبارات أجنبي ليس لهم سلطةٌ عليه. والوعي بما يعنيه هَذَا يتسبب بالقلق وبالتالي القرحة وهلمَّ جرَّاً.

ربما كَانَت أقرب ترتيبات الارتباط وأشَدَّها وِدّيَةً هي تِلْكَ الَّتِي جرت بين الدول الناطقة بالإنكليزية؛ بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزلندا وكندا. يعود هَذَا التقليد للتعاون الوثيق في الحَرْب العالمية الأولى، عندما عمل السير "ويليام وايزمان" رئيس المحطة البريطانية في واشنطن عن كثب مع العقيد "إدوارد ماندل هاوس" مساعد الرئيس وودرو ويلسون، الَّذِي كَانَ جهازه غير الرسمي أقرب شيء مَلَكَتهُ الولايات المتحدة إلى وكالة الاسْتِخْبَارَات المركزية البريطانية في الحَرْب.

وكَانَ الاسم إكس-2 مثالاً عن هَذَا التقليد في الحَرْب العالمية الثانية، وهو الجهة المكلفة بمكافحة الاسْتِخْبَارَات لمكتب الأجهزة الإستراتيجيَّة، وكَانَ عبارةً عن السي آي إيه في مهدها. وأُطلقَت تسمية إكس-2 تيمناً بجهاز استخباراتي بريطاني؛ كَانَ تحالفاً بين أجهزة الاسْتِخْبَارَات التابعة للجنة العشرين الَّتِي كَانَت تتعاون في "عَمَلِيَّات الصليب المزدوج" (لأن

الآلات الكاتبة لم تكن تحوي زر صليب، يُكتب XX بالأرقام الرومانية "عشرون"، وبالتالي جاء الاسم (X-2).

استمرَّت الاسْتخْبَارَات البريطانية والأمرِيكيَّة وأجهزة مكافحة الاسْتِخْبَارَات بالإشارة إلى بعضها بكلمة "أبناء العم" تعبيراً عن ذاك المزيج من الحنق والعاطفة الموجود في العديد من الأسر.

لكن فلنفكّر قليلاً في العديد من أسماء ضباط الاسْتِخْبَارَات: بلاك، وبلنت، وفيلبي، وأيضاً هوليس الَّذِي يثير حَتَّى الآن العديد من التساؤلات. فمن خلالهم تدفقت هويات العُمَلَاء الأمريكيين، وتفاصيل العَمَلِيَّات الأمرِيكِيَّة، وأسماء المشتبه بهم الخاضعين للتحقيق الأمريكي، إلى جهاز الاسْتِخْبَارَات السُّوفياتِيَّة؛ وحصلوا عليها جميعاً من خلال الاتصال. هَذِهِ الاختراقات السُّوفيَاتِيَّة لجهاز استخبارات أبناء عمّنا تسببت بضررٍ كبيرٍ للولايات المتحدة بنفس الدرجة الَّتِي أضرت فيها بِبريطَانِيَا. **هل كَانَ الضررُ سيقلُّ لو كَانَ الارتباطُ أقلَّ أخويةً؟**

أسبابُ الارتباطِ:

تبدو صورة أجهزة الاسْتِخْبَارَات البريطانية -الَّتِي اخترقها العُمَلَاء السُّوفيَات كما يخترق الرصاص هدفاً قريباً- حجةً دامغةً على ضرر الارتباط مع هَذِهِ الأجهزة. وفي الواقع وبما أن البريطانيين ليسوا وحدهم من يخترقهم العدو، فقد يبدو هَذَا حجةً على الارتباط من أي نوعٍ مع أي طرف. من ناحية أخرى، فكّر ببعض الأشكال الهندسية الغريبة:

1- بلاك، الاختراق الَّذِي يسيطر عليه الروس ضد الاسْتِخْبَارَات البريطانية، خان الاختراق الَّذِي يسيطر عليه الأمريكيون (بوبوف) ضد المديرية العامة لِلاسْتِخْبَارَاتِ الروسية من خلال معلومات حصل عليها عبر الارتباط بالأمريكيين، فهل يعني هَذَا أن على الأمريكيين قطع الارتباط بالبريطانيين؟

2- جولونوسكي، اختراق يسيطر عليه الأمريكيون ضمن الاسْتِخْبَارَات البولندية، خان بلاك لصالح الأمريكيين والبريطانيين من خلال المعلومات الَّتِي حصل عليها من خلال الارتباط بالكي جي بي. فهل يتعيَّن على الروس قطع علاقتهم بالبولنديين؟

3- **ميشيل ستريت،** مواطن أمريكي درس في إنكلترا وانشق سنة 1941 عن موقعه كعميل لِلاسْتِخْبَارَاتِ السُّوفيَاتِيَّة، وخان بلنت، الاختراق الَّذِي يسيطرُ عليه الروس ضمن جهاز الاسْتِخْبَارَات البِرِيطَانِيّ (MI6)، وسلَّم نفسه لمكتب التحقيقات الفيدرالية إف بي آي. لكن الإف بي آي أمسكت المعلومات عن شريكها البِرِيطَانِيّ في الارتباط، ربما بسبب الريبة في قدرة (MI6) على حفظ السرية، أو بسبب تحقيقات (MI6) مع هَذِهِ المجموعة المُعقَّدَة (المؤلفة من: بلنت (هوليس؟) برغس -ماكلين- فيلبي) قد أُجِّلَت. فهل ينبغي على بريطانيا قطع ارتباطها بالأف بي آي الأمرِيكِيَّة لأنها أخفت عنها هَذِهِ المعلومات؟



في كُلّ من هَذِهِ الحالات، تواصل الارتباط، وفي كُلّ حالةٍ كَانَ ثمة فترة من الألم؛ لقد أُلغيت اجتماعات، ونُقِلَت مكاتب، وعُدِّلَت إجراءات، وأجريت أعمال نقل غير مجدولة... لكن الارتباط استمر. لماذا؟ لأنه كَانَ ضرورياً. فالارتباط مثل طفل القطران في كارتون الأرنب برير،[1] حالما تمسَّه تلتصق بِهِ.

الارتباط بين أجهزة الاسْتِخْبَارَات في الخارج امتداد للارتباط بين أجهزة الاسْتِخْبَارَات في الداخل، والسبب هو نفسه في الحالتين: فكما أن المجرمين ينتقلون من مدينة لأخرى، كذلك يفعلُ الجواسيسُ عبر الحدود الدولية. ما لم تشارك شرطة ميونخ وفيسبادن المعلومات حول لص انتقل من مدينة لأخرى، فإنهم يُضعِفُون عندئذ فرصتهم للإمساك بِهِ. إذا سلَّم جاسوس سوفيَاتِيّ كَانَ قد سرق معلوماته من فورت مونماوث ونيوجرسي[2] إلى ضابط سوفيَاتِيّ في أوتاوا،[3] فمن الأفضل عندها أن يتشارك كُلّ من الإف بي آي وشرطة الخيالة الكندية الملكية المعلومات، أو إدارة القضية بِشَكلٍ مشتركٍ. وبالفعل سوف يتشاركون مزيداً من المعرفة العامة الَّتِي تصلهم من كُلّ عملياتهم كي يزيدوا من فاعلية كلا الجهازين. كما أن كلاً من شرطة الخيالة الكندية والإف بي آي يُجرُون اتصالات مع أجهزة مكافحة الاسْتِخْبَارَات في العديد من الدول الأخرى ومع العديد من الأجهزة الأخرى في حكوماتهم.

على الأقل فهَذِهِ هي طريقة العمل نظرياً، وهَذِهِ هي الطريقة الَّتِي تُطبَّق فيها هَذِهِ النظرية. مكاسب زيادة الكفاءة -نظرياً- تزيد على الكلفة الأمنية. ربما، عند التطبيق، تزيد المكاسب على الخسائر، رغم نجاحات العدو الَّتِي نقرأ عنها في صحف الصباح.

كيفَ يعملُ الارتباطُ عملياً؟

فكِّر بمثال مبسَّط وافتراضي عن كيفية عمل الارتباط:

---

[1] فيلم كارتون يعود للثمانينيات.

[2] في الولايات المتحدة.

[3] عاصمة كندا.

1. عميل مزدوج في سيدني عاصمة كندا يبلغ ضابط حالته الأسترالي بأن ضابط حالته التشيكي أعطاه عنوان إقامة في تورنتو الكندية.
2. من خلال قناة الاتصال بشرطة الخيالة الملكية الكندية، يطلب جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالية تفقد العنوان، دون تحديد المعلومات المطلوبة.
3. من خلال قناة اتصالها بشرطة تورنتو، تطلب شرطة الخيالة الملكية الكندية تَفَقُّدَ الملف والعنوان، فيتبيَّن أن الشقة مستأجرةٌ لرجل أعمال ألماني اسمه يواكيم كرامر، وعنوانه الدائم في هامبورغ في ألمانيا. وفي الملفات الموجودة في قيادة شرطة الخيالة الملكية الكندية، يتبيَّن أن عنوان تورنتو مُدرَج ضمن عناوين فُحِصَت سابقاً بناءً على طلب اتصال من الأمن الماليزي. وبناءً على طلب الماليزيين، أجَّلَت شرطة الخيالة الكندية وضع "كرامر" تحت المراقبة، مع التسليم بأن الماليزيين لا يرغبون بالمخاطرة بتنبيه هدفهم إلى أن طرفاً ما مهتمٌ بِهِ.
4. شرطة الخيالة الكندية الملكية تبلغ جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي بأن العنوان مُسجَّل باسم "كرامر" وأن العنوان الدائم يظهر في هامبورغ.
5. تستفسر شرطة الخيالة الملكية الكندية من الاسْتِخْبَارَات الألمانية عبر قناة الاتصال بِالاسْتِخْبَارَاتِ الألمانية في مدينة كولونيا بألمانيا، وتطلب الاسْتِخْبَارَات الأسترالية تفقُّدَ الاسم والعنوان في هامبورغ.
6. عبر قناة اتصالها بشرطة هامبورغ، تستفسر الاسْتِخْبَارَات الألمانية عن الاسم والعنوان. تردُّ شرطة هامبورغ، بعد أن لاحظت الاستفسار عن هَذِهِ المعلومات وتسليمها سابقاً: العنوان ما يزال محطة إطفاء، وأنهم لم يعثروا بعد على سجلات ليواكيم كرامر. وتقارن المخابرات الألمانية سجلات الطلب السابق من جهاز الأمن الماليزي، مع الطلب الماليزي بعدم اتخاذ أي إجراء كي لا ينتبه الهدف.
7. المخابرات الألمانية تبلغ المخابرات الأسترالية بأن العنوان ما هو إلا محطة إطفاء ولا يوجد سَجِل لكرامر في هامبورغ. كما تلحظ أن جهاز استخبارات أجنبي آخر غير محدد قد قدَّم طلب تحديد هوية.

لاحظ: بناءً على قواعد الاتصال لا يمكن لِلاسْتِخْبَارَاتِ الألمانية تحديد جهاز الاسْتِخْبَارَات الماليزي على أنه المتحري السابق. ففعل هَذَا يُعتَبَر خيانة لـ "طرف ثالث" - ماليزيا- لصالح "الطرف الأول"، أستراليا. لكن مع ذَلِكَ يمكنها ملاحظة أن المصادفة جاءت لصالحها. وعلى الرغم من أنه من المحظور وضع مراقبة على العنوان، فيمكنك التأكد من أن العنوان سيُحتَفَظُ بِهِ في قائمة نشطة للعناصر المشبوهة وسيتمتع بمعاملةٍ خاصةٍ عندما يظهرُ مرةً ثانيةً في الاتصالات.

لاحظ أيضاً: جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي يخوضُ في الأصل مخاطرتين، واحدة في كندا والثانية في ألمانيا، فإن حدث تسريب يشير إلى مصلحة مكافحة الاسْتِخْبَارَات بـ "كرامر" أو أياً من عنوانيه، تكونُ عمليةُ العميل المزدوج قد تعرضت للاختراق عندئذ.

لاحظ أيضاً: لدى جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالية الآن معلومات مكافحة استخبارات تؤثّر على الأمن في كُلّ من كندا وألمانيا. ويتوجب الآن على جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي أن يقرر ما إذا كَانَ سيُخاطر باستخدام قنوات الاتصال الخاصة بِهِ لتطوير العملية.

8. بعد أن يتجرَّع ضابط جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي كأساً من الخمر، وقرصاً مهدّئاً وبعض الأدوية الخافضة لارتفاع ضغط الدم، يقرر الذهاب للصيد. ويعرف من رد جهاز الاسْتِخْبَارَات الألماني أن أحد أجهزة الاسْتِخْبَارَات الصديقة للجهاز الألماني يشارك في ذات العملية ضد التشيك الَّتِي يشارك فيها عميله المزدوج. لذا يضع قائمةً بِكُلِّ أجهزة الاسْتِخْبَارَات الصديقة للألمان ويعطي تعليمات لضباط الارتباط لديه بأن يذكروا بِشَكلٍ غيرِ رسمي بأن جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي يمكن أن يكون لديه بعض المعلومات المفيدة عن نظام الاتصالات لعميل تشيكي يمكنه مشاركتها على أساس المقايضة.
9. وبعد قدْرٍ لا بأس بِهِ من السِّجال، أُبرِم اتفاقٌ في كوالالمبور. كشف فيه جهازا الاسْتِخْبَارَات لبعضهما بتحفظ أن لديهما كليهما عُمَلَاءَ مزدوجين يبلغون عن نفس العنوان السكني في تورنتو، وبالتالي يمكنهما مشاركة المعلومات الَّتِي تفيد المصلحة

المشتركة، وفي نفس الوقت يحمون هويات عملائهم المزدوجين من خلال تشفير الأسماء الَّتي يتوافقون عليها كجزء من الاتفاق.

10. كلتا الحالتين تنطلقان من تِلْكَ النقطة. وفي النهاية ربما يشارك الكنديّون، لأن تجنيد صندوق الرسائل في تورونتو يقعُ ضمن عمل القضاء الكندي. وربما يكون لدى الألمان أيضاً فرصة للمشاركة، فالتحقيق مع كرامر سيتطلب دعماً من ألمانيا.

التعاونُ مقابلَ التنافسِ:

المثال السابق يمكن أن يقودنا للتفكير بأن الارتباط يسيطر على عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، لا ليس الأمر كذلك. فالأجهزة الأربعة المذكورة؛ أستراليا وكندا وألمانيا وماليزيا، تحرس عملياتها بغيرةٍ شديدةٍ، كما يفعلُ الآخرون في هَذَا العالم. لسبب واحد، فمبادئ الأمن تتطلب أن تقتصر معرفة المعلومات الحساسة على أولئك الَّذِينَ يحتاجون لمعرفتها فقط، ولن يخطر ببال أسترالي أن أي كندي يحتاج لمعرفة العملية الأسترالية إلا حين يتبادلون معلومات جزئية تساعد جهاز الاسْتِخْبَارَات الأسترالي.

علاقات الارتباط مماثلة لِتِلْكَ العلاقات بين المتنافسين في الأعمال. فكُلّ المطاعم في بلدتي تنتمي إلى رابطة المطاعم، الَّتِي تجتمع بانتظام لتبادل المعلومات عن مشكلات قد تظهر، مثل معالجة الضرائب على المبيعات، والاحتيال عبر البطاقات الائتمانية، ولوائح رَكنِ السيارات، والحماية الَّتِي توفِّرها الشرطة. أما أسرارُ الطبخ فتبقى سرّيةٌ.

وتصبح الأجهزة الصغيرة مُعتادَةً على تصنيف الطلبات من أجهزة مختلفة أكبر منها للاستفادة من هَذِهِ الفروقات ولكي تتلاعب بِهَا واحداً ضد الآخر، ويعمل الأمريكيون والبريطانيون في ذات العاصمة، مُحافِظين على عملهم الروتيني سِرِّيّاً عن بعضهم البعض، على الرغم من أن كليهما يجري اتصالاً بجهاز الاسْتِخْبَارَات المحلي بالإضافة إلى اتصالهم مع بعضهم البعض، وربما يبدأ جهاز الاسْتِخْبَارَات المحلي الاعتقاد بأنه يعرف أكثر مِمَّا يعرفون عن بعضهم البعض. رغم أن مثل هَذِهِ الثقة بالنفس قد لا تكون في محلها. أتذكر -مسروراً- نظرة الذهول في وجه رئيس أحد هَذِهِ الأجهزة المحلية الصغيرة عندما هرع من سريره في

الثالثة صباحاً ليقابل رؤساء المحطتين الأمرِيكِيَّة والبِرِيطَانِيَّة واقفين كتفاً إلى كتف طلباً للمساعدة في حالة كانوا يعملون عليها سويةً، ولم يكن قد سمع عنها قط.

ما يهيمن على أعمال مكافحة الاسْتِخْبَارَات وبالتالي يسيطر على عملية الارتباط، هو الأمن التشغيلي (انظر الفصل الأول). فالقاعدة الأساسية هي: المعرفة على قدر الحاجة.

الارتباطُ والاختراقُ:

بات من الشائع القول بأن الغاية الرئيسية والنهائية من كافة أعمال الارتباط هي الاختراق. فقد كَانَ من المفروض أن تتبادل الأجهزة المعلومات، وأن يختلط الضباط بالمجتمع الاسْتِخْبَارَاتِيّ بغرضِ تجنيد مزيد من العُمَلَاءِ بالدرجة الأولى. قرْضٌ لضابط زميل في جهاز استخبارات صديقٍ، يكفي دفعُه ليصبحَ عميلاً مأجوراً. أليست وضاعةً؟ كما أنها تبسيط مُخِلٌ، وسذاجةٌ بعضَ الشيء.

لكن فكِّر معي، متى يكون لجهاز استخبارات سبب لاختراق جهاز آخر في حين يمكنه تحصيل ما يريدُ عبرَ الارتباط؟ هُنَالِكَ ما لا يقل عن ثلاثة أسباب.

أولاً: تنوُّعُ السياساتِ الوطنيةِ:

ليس هُنَالِكَ دولتان لهما ذات السياسة الخارجية تماماً، فألمانيا واليابان لديهما سياسات تجارية دولية متباينة، وكذلك الأمر مع الولايات المتحدة وكندا، والسويد وفَرَنسَا تتبعان سياستين مختلفتين اتجاه إندونيسيا، ولدى الولايات المتحدة والهند سياستان متباينتان اتجاه باكستان. ويترتَّب على ذَلِكَ أن تبادُلَ المعلومات من خلال قنوات الاتصال حيثما وُجِد، لن يكون كاملاً. في هَذِهِ الحالات، ربما تسعى أجهزة مكافحة الاسْتِخْبَارَات لاكتساب المعلومات من خلال الاختراق السري. حالة بولارد واحدة منها.

تختلف السياستان الأمرِيكِيَّة والإسرائيلية في موقفهما من البلدان الإسلامية. فلدى أجهزة الاسْتِخْبَارَات الإسرائيلية أسباب وجيهة للاشتباه بأن الولايات المتحدة لا تمرر كافة المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي تحصل عليها من الدول الإسلامية إلى إسرائيل. فإن سنحت

الفرصة، أو كَانَ بالوسع خلق الفرصة، لسرقة بعضٍ من تِلْكَ المعلومات المحظورة، فالشيء الوحيد الَّذِي يمكن أن يمنع هَذِهِ السرقة هو تقييم مكافحة الاسْتِخْبَارَات لإمكانية كشف العملية.



الجاسوس الإسرائيلي جوناثان بولارد

لقد قُبِضَ على بولارد، وضجَّت الصحافة الأمرِيكِيَّة والسياسيون الأمريكيون بالحديث عن أن هَذِهِ الدولة الصغيرة، الَّتِي أغدقت عليها الولايات المتحدة الأموال بكرمٍ بالغٍ، ردَّت الجميل كما ردَّه جان فالجان في رواية البؤساء للكاتب فيكتور هوجو حين عاد وسرق الشمعدانات الثمينة من الراهب الَّذِي أحسن إليه.[1]

فلنترك هَذِهِ الحَمِيَّة العمياء للصحافة والسياسيين، فلا مكان لَهَا في تفكير ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، الَّذِي يَجِبُ أن يعمل في عالم واقعي.

ثانياً: التغيُّراتُ المُستقبليَّةُ في السياسةِ الدوليةِ:

أصدقاء اليوم قد يصبحون أعداء الغد. لم يمضِ وقت طويل منذ أن اصطف البريطانيون مع الروس والفرنسيون ضد الألمان. كما كَانَت الولايات المتحدة عدوَّة لفرنسا حَتَّى أواخر عهد ماكسيمليان في المكسيك،[2] ومُعادِيَة لبِرِيطَانِيَا حَتَّى أواخر الحَرْب الأهلية الأمرِيكِيَّة.

---

[1] رواية البؤساء روايةٌ شهيرةٌ للكاتب الفَرَنْسِيّ فيكتور هوغو.

[2] كَانَ "ماكسيميليان" أرشيدوقاً نمساوياً، وكَانَ الامبراطور الوحيد للإمبراطورية المكسيكية الثانية من 10 نيسان سنة 1864 وحَتَّى أُعدِمَ في 19 حزيران سنة 1867.

وكَانَت بريطانيا وإيطاليا اللتان تحالفتا في الحَرْب العالمية الأولى قد أصبحتا عدوَّتَين في الحَرْب العالمية الثانية، وهما الآن حليفتان في الناتو.

لكن عندما تتغيَّر السياسة الخارجية لدولة ما جذرياً، تتغيَّر توجُّه مؤسساتها ببطء، حَيْثُ تميل إلى مواصلة العلاقات القديمة، مع الاستخدام الواضح لِعَمَلِيَّاتِ الاختراق.

ثالثاً: الرغبةُ بالمراقبةِ:

أحبت مُستَثمِرَةٌ لديها رأسُ مالٍ كبيرٍ مرتبطٌ بمؤسسة أن تعرف ما يجري في هَذِهِ المؤسسة، وهي تشعر بأمان أكبر إن كَانَ لديها عضو في إدارة الشركة يخبرها كيف تسيرُ الأعمالُ اليوميةُ، وما هي القرارات التنفيذية المُتَّخَذة، وما هو وضع دفتر الأستاذ،[1] وما هي المشكلات الشخصية. ولهذا يحبُّ جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تمثِّل معلوماته رأس ماله، أن يكون لديه اختراقات لعملية الاتصال بغيةَ البقاء عن كثب على الأعمال الداخلية للجهاز. ستشعر بأن هَذِهِ الرغبة أقوى عندما يكون لديك سبب للاشتباه بأن جهاز الاسْتِخْبَارَات الصديق مُختَرَقٌ أو يطبِّقُ إجراءات أمنية ضعيفة.

رابعاً: غريزةُ التطفُّلِ:

لم أعرف قط جهاز استخبارات راضٍ عن الطريقة الَّتِي يعمل فيها جهاز آخر. وكلَّما تقاربت علاقة الاتصال، زادت الرغبة في تحسين إدارة جهاز الاسْتِخْبَارَات الآخر. ومعظم المحاولات للتأثير على إدارة الآخرين تأخذ شكل نصيحة مُخلِصَة، وعِظَة وتبادل للأفكار. لكن في بعض الأحيان ستخضع لفكرة أنك إن لم تستعن بأحد غيرك فسيجعلُ هَذَا الأحوال أفضل.

لكن كن حذراً، فما لم يكن الجهاز الَّذِي ترتبط بِهِ وتحاول اختراقه ضعيفاً جداً لدرجة أنه لا يستحق الارتباط بِهِ، ربما يكون جيداً بما فيه الكفاية للإيقاع بك، وعندما يُوقَع

---

[1] **دفتر الأستاذ** أو حساب الأستاذ، هو أحد الدفاتر المحاسبية الأساسية في النظام المحاسبي، وهو عبارة عن دفتر يخص الفترة المالية الواحدة فقط، أي يَتُمّ فتحه في بداية السنة المالية وإقفاله في نهايتها.

بك متلبساً تحاول تجنيد شركاء في جهاز الاسْتِخْبَارَات الَّذِي يرتبط بِهِ جهازك، سيكون وضعك مزرياً، ربما يتفهَّمُ زملاؤك في هَذَا الجهاز الهدف ويتقبّلونه مبتسمين.

لكن: 1-السياسيون في البلد الهدف، 2- السياسيون في بلدك 3- الصحافة العالمية لن يرحموك أبداً. ويمكن تعليق الارتباط لبرهة من الزمن.

(16)

كيفَ تديرُ الملفات؟

الملفات بالنسبة لضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات جزء أَسَاسِيّ من حياته مثل السيارة الَّتِي يقودها، أو الطائرة الَّتِي يطير بِهَا، أو القدمين اللتين يسير بهما. فمن دون معلومات مُنَظَّمَة، لا يمكن لضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات أن يصل إلى حَيْثُ يَجِبُ أن يصل. ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات هو السيد والخادم في ذات الوقت لملفاته، عليك قبول هَذَا كحقيقة من حقائق عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات: **ستكون بنية ملفاتك مثل تصميم وبنية سيارتك في أهميتها لأمنك وعملك بفاعلية.**

والملفات ليست على الدوام مجلدات، أو أفلاماً مُصغَّرةً أو أقراصاً حاسوبيةً بل إنها أيضاً الناس الَّذِينَ يديرون المعلومات ويرتّبونها، ويبحثون فيها، وخصوصاً أنت، نفسك. أعرفُ ضابطَ مكافحة استخبارات، انتابه الملل من العمل الورقي ويفتخر بكونه رجل شارع ويعتمد على الحدس، ويترك التصنيف والبحث لموظف الملفات. هَذَا الرجل نصف ضابط مكافحة استخبارات، وسيسدي معروفاً لنفسه ولجهازه إذا انتقل إلى أعمال شبه عَسكَرِيَّة أو الإعلانات الرياضية. يمكن أن يتولى عمله موظف الملفات، الَّذِي لن يأنف -إذا تطلب الأمر- من أن يخرج إلى الشارع، أو أن يتولى العمل في قضية كاملة.

الترتيبُ الزمنيُّ للملفاتِ:

الملف الأساسي لضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات في مقر القيادة، أو في المكتب الميداني، أو في القاعدة الأساسية هو مجموعةٌ من التقارير الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي تحوي أو يمكن أن تحوي معلومات عن مكافحة الاسْتِخْبَارَات مُرتَّبَةٌ زمنياً من الأحدث إلى الأقدم، بِحَيْثُ تغطّي أطول مدة ممكنة من الزمن. ولا يتوافق الترتيب الزمني فيها مع الشكل الَّذِي يسمّيه أُمَناء المكتبات "تاريخ الدخول" وإنما "تاريخ المعلومة" والَّذِي يكون عادةً التاريخ الَّذِي كُتِبَ فيه التقرير.

عادةً ما تكون الملفات الزمنية ضخمةً، لدرجة تُذهِل مدراء المستودعات من المساحة الَّتِي تشغلها الأوراق والأفلام المصغَّرة، أو الأقراص الليزرية الَّتِي تحوي تسجيلات نادراً ما يُرجَع إليها، "لماذا إذاً؟"، يسألون، "تحتفظون بالسجلات لسنوات وعقود، تِلْكَ الَّتِي تخصُّ العَمَلِيَّات البائدة والأموات؟ فلنتخلَّص من كُلّ ما زاد قِدَمُهُ على ثلاث سنوات، أو على الأقل ما زاد قِدَمُهُ عن ثلاثين سنة". يُسمِّي ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات المحترفون هؤلاء المُدراء: "الأنيقون والمُرَتَّبون"، وتنتشر الحساسيات بين الطرفين، خاصةً عندما يُخصِّصُ المسؤولون عن الميزانية لهؤلاء "الأنيقين والمُرتَّبين" مزيداً من الدعم المالي.

كلا الطرفين مُحقَّان، فتقرير من سنة 1945 عن "الكنيسة الحمراء" (الاسم الألماني الكودي لمجمع التَّجَسُس الروسي في الحَرْب العالمية الثانية، وغالباً ما تُترجم إلى "الأوركسترا الحمراء")، أو من سنة 1948 من الملفات الَّتِي أُنقِذَت من أيدي شرطة شنغهاي أو من 1975 عن بنية البو كونج (الإصدار الفيتنامي الشمالي للكي جي بي) يكون احتمال الاستفادة منها لإجراء بحث، بعد عشرين أو أربعين سنة، لاسم عضو في الجيش الفيليبيني الشعبي الجديد احتمالاً ضئيلاً للغاية. فهل مثل هَذَا الاحتمال البعيد يستحق تكاليف المحافظة على هَذِهِ التَّرِكَة التاريخية الطويلة؟

الإجابة في الغالب: نعم. فالملف الضخم الأصلي عن الكنيسة الحمراء، اندمج الآن في النظام الرئيسي في لانجلي بالولايات المتحدة أو كولوجن بألمانيا، أو ملبورن في أستراليا، فإن

رُتِّبَت هَذِهِ الملفاتُ بِشَكلٍ مناسبٍ، فيمكن أن تظهر صلة بين رجل فيلبيني وعميل لزعيم الجواسيس السُّوفيَات ساندور رادو الَّذِي عمل في سويسرا سنة 1944. وتحدث أشياء أغرب في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات كُلّ يوم.

إذاً متى تصبح المعلومات تاريخاً؟ وماذا يمكن أن نفعل حول الحجم الكبير؟ حسناً، تذكَّر أولاً أن مكافحة الاسْتِخْبَارَات لا تستطيع أن تكون بذات كفاءة دار النشر. وكلفة تخزين المعلومة وتصنيفها ليست مقياساً لأهمية تِلْكَ المعلومة، كما أن تكرار استخدامها لا يمكن مقارنته بالأرباح الَّتِي تجنيها الدار من مبيعات الكتب. تقبَّل حقيقة أن ملفاتك أشبه بحديقة مليئة بالأزهار الَّتِي قُدِّر لَهَا أن تُزهر ثُمَّ يُدرِكها الذبول دون أن يتمتع أحد بجمال منظرها ولا عبق أريجها.

لذا، حاول التخلي عن الإفراط في الترتيب والأناقة، واهتمَّ بالملفات الكبيرة والقديمة وحسنِ التصنيف. حافظ عليها كما هي مهما كَانَت ملفاتٍ كبيرةَ الحجم، واتركها لتصبح قديمةً، واجعلها أنيقةً ومرتبةً بقدر ما تستطيع دون تدميرها. واستخدم أحدث التكنولوجيا لتقليص الحجم وتسهيل الاستخدام.

بعد انتهاء الحَرْب العالمية الثانية بسنوات، لاحظ جهاز الاسْتِخْبَارَات البِرِيطَانِيّ (إم أي 5) حقيقتين:

1- وصل العديد من أكثر أفراد هَذَا الجهاز خبرةً إلى سن التقاعد.
2- باتت الملفات في لندن غير قابلة للإدارة، وأحد الأسباب هو حجمها والسبب الآخر هو أن إجراءات الصيانة كَانَت مِمَّا عفا عليه الزمن.

ومن الواضح أن أفضل المؤهلين لتنقيح ملفات الـ (إم أي 5) وإعادة تنظيمها وتحديثها هم أولئك الَّذِينَ سيخسرهم الجهاز بسبب التقاعد. لذا بدأت الـ (إم أي 5) برنامجاً لإعادة ضباط الحالة والمحللين المسنين للعمل بدوامٍ جزئي كَمُصلِحِي ملفات. أما المتقاعدون، فيمكنهم إن أرادوا كسب بعض المال إضافةً إلى راتبهم التقاعدي، من خلال الاستفادة من معرفتهم الخاصة بالحالات القديمة لتنقيح وغربلة الملفات، ويمكنهم إجراء التغييرات

الَّتِي لطالما أرادوا إجراءَها على نظام الاحتفاظ بالملفات وإدارتها، وكُلّ هَذَا بكلفةٍ زهيدةٍ نسبياً بالنسبة للجهاز. كما يمكن للمخضرمين منهم حلُّ بعض المُعضِلات وإضافة بعض الحالات الجديدة الَّتِي تختبئ بين ثنايا الأوراق القديمة. ومن حسن الحظ فقد استُنسِخَت هَذِهِ التجربة فِي كُلّ مكان من العالم الغربي.

الفهرسةُ حسبَ الاسمِ:

فِي الماضي، كَانَت الطريقة الوحيدة لفهرسة التقارير هي عبر الأسماء الواردة فيها. وعملت كتائب من موظفي الملفات من شروق الشمس حَتَّى مغيبها يقرؤون التقارير ويستخلصون بشق الأنفس كُلّ اسم ويدوِّنونه فِي بطاقة بمقاس (3-5) إنش يُسَجَّل عليها أيضاً عنوان وتاريخ التقرير. ثُمَّ تُرتَّب البطاقات هجائياً بِحَيْثُ يتمكّن موظف الملفات من الوصول إلى جميع التقارير وإعطائك إياها عندما تحتاج تقفّي أثر اسمٍ ما.

واليوم تتواصل ذات العملية، ما عدا "كتابة البطاقات" الَّتِي يمكن للحاسوب أن يقوم بِهَا من خلال عملية إدخال إلى قائمة على قرص ليزري، ويمكن أن يكون التقرير على فيلم مُصغَّر، أو قرص ليزري. وفِي عالم أجهزة المخابرات الأوسع، هَذِهِ الأيام، تُكتَب معظم التقارير أو تُنقل إلكترونياً وبالتالي فهي مكتوبة بالأصل باللغة الرقمية، الَّتِي يمكن للحاسب أن يفهرسها برمجياً. ويمكن قراءةُ التقارير القديمة والكابلات والمذكَّرات وما شابهها فِي بعض الحالات بواسطة الماسحات الضوئية لتحويلها إلى اللغة الرقمية ومن ثُمَّ تخزينَها ضمن ملفات الحاسب، وبالتالي فاقتفاء أثر اسم يمكن أن يَتُمّ عبر استخلاص نسخة مطبوعة بدلاً من مستند أصلي، وبِشَكلٍ أسرعَ بكثيرٍ. أما كتائب موظفي الملفات فيمكن استبدالها بشركات أو بفصائل[1] من مشغِّلي برامج الحاسوب.

لكن الصنف الرئيسي من المعلومات الَّتِي تُستَدعى التقارير من خلاله فِي عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات لا زال: "اسم العائلة، أول حرف من اسم الأب، والاسم الأول"، ويمكن دعم هَذِهِ البيانات عند الإمكان بـ: تاريخ/مكان الولادة، الموقع، ورقم المصنَّف (انظر فِي

[1] الفصيل أصغر من الكتيبة فِي التنظيم العَسكَرِيّ.

الأسفل). المعلومات الإضافية تسمح لموظف المِلَفَّات أو الحاسوب باستبعاد: جون سميث، كوفاكس إستفان، أو نغوين ثي ماي الَّتِي لا تريد البحث عنها. يمكن اختصار العمل الروتيني من البحث اليدوي في بضع ياردات من البطاقات 3×5 وكلها تحمل عنوان "بييرليروي"، من خلال البحث الحاسوبي على قرص يحمل ذات المعلومات، ولكن رغم ذَلِكَ يمكن أن تكون القائمة المُستَخلَصَة طويلةً، فهي تساعد على تحديد "الموقع: كندا" والتخلص من البلجيكيين والفرنسيين.

أثناء عَمَلِيَّات التتبع، يمكن لموظَّف المِلَفَّات القيام ببعض أعمال التطهير الانتقائي كجزء من وظيفة الصيانة. أتذكر أنه منذ عقود رأيت بطاقة 3×5 معنونة بـ "أوبل، كابيتين أغم" "أغم=الاسم الأول غير معروف" تمثل تقريراً عام 1946 من قِبَل قوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات التابعة للجيش الأمريكي في ألمانيا حول تحقيق يتعلَّق بشيء فظيع. وعلى خلاف الشخص الَّذِي استخلص التقرير إلى بطاقة، تصادف وأن عرف موظف الملفات الَّذِي وجد البطاقة أنه في عام 1946 كَانَت قوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات للجيش الأمريكي تستخدم سيارات من صنع شركة أوبل، موديل كابيتين، وكَانَ عميل مكافحة الاسْتِخْبَارَات يسجّل السيارة الَّتِي يستخدمها للمراقبة فقط. لقد أتلفنا البطاقة لكن لم نتلف التقرير، الَّذِي يحوي بعض الأسماء الحقيقية عليه.

ملفاتُ الحالةِ:

احتفظْ بكافة المعلومات الَّتِي تخصُّ حالة تعمل عليها أنت أو فريقك في ملف واحد أو مجموعةٍ من الملفات. الملف الأساسي -طبعاً- هو التسلسل الزمني، لكن إن تَوَجَّبَ عليك تطوير الحالة إلى أي شيء، فستحتاجُ نسخ أو تلخيص الأجزاء المتعلقة بالتسلسل الزمني من أقسام أخرى؛ على سبيل المثال، تقارير جهات الاتصال، تقارير، إرشادات/توجيهات، لوجستيات/تمويل، والملفات الشخصية (أضابير). ستحتوي هَذِهِ النسخة الجديدة على كُلّ الأسماء والمُلَخَّصَات الواردة في معلومات السيرة الذاتية والشخصيات (وبالتالي "P")[1].

في حالات العُمَلَاء المزدوجين ينبغي أن يكون لديك أقسام أخرى: توضيحات، المتطلبات الَّتِي حصلوا عليها، معلومات بناء الثقة الَّتِي صُرِّح باستخدامها، ومعلومات بناء الثقة الَّتِي مُرِّرَت، وهَكَذَا. معظم ضباط مكافحة الاسْتِخْبَارَات أيضاً يحافظون على لُصاقةٍ مكتوبٍ عليها "قائمة العمل" أو "الانتظار اليائس" ليذكِّروا أنفسهم من خلالها، بالأفكار العشوائية، والمعلومات الغريبة الَّتِي قد تخطر في أذهانهم أثناء تنفيذ المهام.

هَذِهِ ملفات عملك في الميدان وتِلْكَ هي الملفات الخاصة في المكتب المنزلي، حَيْثُ تحصل على الدعم؛ أي التتبع والمقارنة والتوجيه. ومن الجلي أنه لا تسمح كافة المواقف الميدانية بالاحتفاظ بالملفات التفصيلية أو تنقيحها، لكن إن لم يتمكَّن الضابط الميداني من أخذ هَذِهِ الملفات معه، فمن الأفضل حفظها في مكتب خاص في المنزل أو قريباً منه، ومن الأفضل أن يكون المكان الَّذِي تُخبَّأ فيه الملفات بمتناول ذاك الضابط، وإلا سيُعرِّضُ نفسه لمجازفة كبيرةٍ.

يبدو النظام معقداً، وهو كذلك في الغالب، إذ يبدو مُستَهلِكاً للوقت، وهو كذلك غالباً. لكن بالانضباط والمثابرة، يوفِّرُ الوقتَ على المدى الطويل ويمنع المصائب.

---

[1] ملفاتP: هل اللفات الشخصية،personnel .

التنسيق بين المراسلات الميدانية ومقر القيادة، وظيفةُ مقر القيادة. تذهب أولاً إلى الملف الزمني ثُمَّ تُرتَّب حسب الاسم (تطرقنا إلى هَذَا آنفاً)، ثُمَّ يمكن الحصول على أي ترتيب (سنتطرق إليه لاحقاً). ملف الحالة كائنٌ خاصٌ ويَجِبُ الحفاظ عليه سليماً وفقاً لاسمه والاسم الرمزي للحالة. وستستفيد الأجيال القادمة من دراسة ملف الحالة، وستتأثر الحالات المستقبلية بِهِ، وستجري اكتشافات في المستقبل، ويمكن أن ينقذ أرواحاً في المستقبل.

كُلُّ ضابط مكافحة استخبارات قديم لديه حالاته القديمة المفضَّلة، وبالنسبة لي أعتبر حالة "الثقة" الَّتِي أفسد فيها رئيس الاسْتِخْبَارَات الروسية فليكس دزيرجينسكي الخطة البريطانية بعد الحَرْب العالمية الأولى مباشرةً حالتي المُفضَّلَة (روى تلفزيون البي بي سي هَذِهِ القصة بعنوان ريللي: رئيس الجواسيس).[1] الملفات المتاحة حول هَذِهِ القصة ليست كاملة، لكنها تمثّل مدخلاً كافياً لتلقين درس (أُهمِلَ عدة مرات بعدها) عن: كيف تنجو من التخريب؟

[1] **سيدني رايلي**: وهو مغامر روسي المولد أصبح أحد أعظم الجواسيس الَّذِينَ عملوا في المملكة المتحدة والإمبراطورية البرِيطَانِيَّة على الإطلاق. من بين مآثره، في أوائل القرن العشرين، تسلل إلى هيئة الأركان العامة الألمانية في عام 1917 وتسبب في الإطاحة تقريبًا بالبلاشفة في عام 1918.

الأضابيرُ والملفاتُ الشخصيةُ (ملفات - P)

إن كُنْت شخصاً بارزاً يهتم العامّة بموته، فسيكون لدى الصحيفة المحلية ملف لك يحوي معلومات يمكن لمحرر صفحة الوفيات استخدامها صبيحة يوم وفاتك. وفي ذات الوقت يمكن استخدامها كمرجعٍ للمراسلين الَّذِينَ يراقبونك حَتَّى قبل أن تموت. ويمكن أن يتواجد هَذَا الملف في "مشرحة" الصحيفة مرتباً هجائياً وفقاً للاسم الأخير. **في جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات يُسمى هَذَا الملف: إضبارةً.** وهَذِهِ الكلمة مشتقة من اللغة الفَرَنسِيَّة وتعني حزمة الورق المُجمَّعة كأنها حدبة في الظهر، مثل: أحدب نوتوردام (le bossu de Notre Dame).

إن كُنْت مواطناً أمريكياً، ربما كَانَ لديك رقم اجتماعي سري، إن كُنْت تدفع ضريبة دخل للحكومة الأمرِيكِيَّة فالرقم السري (إن لم تخفيه دائرة الإيرادات الداخلية، أو مصلحة الضرائب) موجود على الملف الَّذِي تحتفظ فيه مصلحة الضرائب بِكُلِّ "مواردك" السنوية وكُلّ المراسلات معك (إن لم يفقدوها).

الفارق المادي الوحيد بين ملف مصلحة الضرائب وملف الصحيفة هو أن الصحف تصل إليها (تستعيدها) مُرَتَّبَةً هجائياً من خلال اسمك، بينما تستخدم مصلحة الضرائب الرقم. لماذا؟ لأنه إن كَانَ اسمك بيل جوهانسون، فلدى مصلحة الضرائب 7419387 ملفاً عن أشخاص اسمهم بيل جوهانسون. تأملُ مصلحة الضرائب، وأنت كذلك، أن يكون لدى واحد منهم فقط الرقم الاجتماعي السري الَّذِي لديك.

وبالتالي، فبالإضافة إلى الترتيب الزمني للملف، سيحافظ جهاز الاسْتِخْبَارَات على أضابير دائمة عن أفراد بعينهم في مقرات القيادة لديه، وسيُحافظ على أضابير مؤقتة، وملفات شخصية ميدانية تحوي ما تريده عند الحاجة. الملفات الشخصية ستحتوي على معلومات تعَقُبِ الهدف في الوطن، بما في ذَلِكَ نسخة عن إضبارة تمثل تقرير قيادة الجهاز عنه (إن وُجِدَت). وستحوي أيضاً مادة جديدة كُنْت قد جمعتها أياً كَانَ المصدر، ونسخ من هَذَا

القبيل يَجِبُ أن تشحنها إلى الوطن على الفور، دون أن تنسى أن القيادة هي حصنك المنيع وملاذك، حيثما جاءتك المساعدة.

عادةً ما تحوي الأضابير مواد غير سرية وغير مُفهرَسَة إضافة إلى الوثائق الَّتِي تُدار بِشَكلٍ أكثَرَ رسميةٍ، على سبيل المثال: نسخة من صحيفة تحدَّثت عن زفاف ابنة شخص ما، مُقتَطَف من الكتّاب السنوي للمدرسة أو الكلية، مُقتَطف من اللوائح المنشورة للجهاز الَّذِي يعمل فيه شخص ما، فكُلّ هَذِهِ الوثائق عناصرٌ تساهم في الحصول على السيرة الذاتية، سواء كَانَت ذات صلة بحالة راهنة أم لا. تتعامل مكافحة الاسْتِخْبَارَات مع الناس، وأياً كَانَ ما يساعد ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات على فهم البشر الَّذِينَ يتعامل معهم فهو مفيد لَهُ. لا تهمل أبداً المصادر العلنية، اقرأ الصحف، تذكر أن المعلومات الَّتِي ترد في الصحافة صحيحة بنسبة لا تقل عن أربعين بالمئة، وعلى الرغم من أنها قد تُغفِل ذكر حقائق مفيدة إلا أنها تنقلُ المواقف. السياق الَّذِي يُذكر فيه شخص ما يخبرك غالباً بالكثير عنه أكثر مِمَّا تدَّعي الصحيفة، لذا ضع قُصاصة الصحيفة داخل الإضبارة.

هل تُنتَهَكُ الحقوقُ المدنيَّة للناس أو خصوصياتهم عبر الاحتفاظ بإضبارة تحوي معلومات لا تعكس مباشرةً جرائم أو أعمال تخريبية؟ صَدِّق أو لا تُصدِّق، يعتقد البعض أنك تنتهك الحقوق. أتذكَّر حواراً ودياً مع رئيس تحرير صحيفة أمريكية كَانَت قد تبنَّت نهجاً مُعارِضاً بشدة لوزارة الخارجية الأمرِيكيَّة. وعند استخدام قانون حرية المعلومات[1] حصل على نسخة من إضبارته لدى الإف بي آي، وكم كَانَ مبلغ دهشته حين اكتشف أن هَذِهِ الإضبارة تَضُمُّ نُسَخَاً من مقالات كَانَ قد نَشَرَهَا، وسجلات خدمته العَسكَرِيَّة لأقاربه، ومقتطفات من الكتّاب السنوي للجامعة[2] ("من هو الأكثر تفوُّقَاً؟ الألمع؟ أو الأجرأ؟").

[1] **قانون حرية المعلومات** الأمريكي (FOIA) هو قانون فيدرالي ينص بصورة عامة على أن لِكُلِّ فرد الحق في طلب الوصول إلى سجلات الوكالة الفيدرالية، فيما عدا حدود السجلات المحمية من الكشف، الواقعة ضمن الإعفاءات التسعة الواردة في القانون أو ضمن أيٍ من الاستثناءات الثلاثة الخاصة بسجل تنفيذ القانون.

[2] **الكتّاب السنوي للجامعة:** نشرة سنوية تقدِّم المعلومات الحالية وتسرد أحداث أو جوانب السنة الماضية، كما يحوي صوراً للطلاب الأوائل في كُلّ سنة وتفاصيل عن أنشطة الجامعة للسنة الماضية.

إن كَانَت ملفات التعريف بالشخصيات العامة أو سِجل الوفيات في صحيفة النيويورك تايمز تحوي (كما قد حصل بالفعل) ذات المعلومات، فينبغي أن نشعر بالإطراء وليس خيبة الأمل.

حاولت أن أشرح لرئيس التحرير هَذَا أنه حين يظهرُ أن الخط الَّذِي تتبناه صحيفته وثيق القرب من خط الاتحاد السُّوفيَاتِيّ، يبرز على الفور التساؤل المنطقي لدى جماعة مكافحة الاسْتِخْبَارَات فيما إن كَانَت هَذِهِ الصحيفة تتلقى تمويلاً من أجهزة استخبارات سُّوفيَاتِيَّة أو تشيكية، وعما إن كَانَ المصدر الأصلي للمواد المطبوعة هو أجهزة التضليل السُّوفيَاتِيَّة أو التشيكية أو الألمانية، وأن الاستقصاء الَّذِي وُثِّقَت نتائجه في إضبارة عنه لم يكن يستهدفه وإنما يستهدفُ الاتحاد السُّوفيَاتِيّ. إن كَشَفَ الاستقصاءُ دليلاً عن اتصال سري بين موظفين في صحيفته وضباط استخبارات في الكتلة الشيوعية، يكون المحققون عندها قد وضعوا أيديهم على دليل ضد عملية لجهاز استخبارات معادٍ؟ وفي هَذِهِ الحالة يكون قد نال الفرصة لمساعدة حكومته إن اتَّبَعَ هَذَا الخيار.

أرقامُ الأضابيرِ:

بما أن الأضابير في مقر القيادة لديك كثيرةٌ جداً وتضمُّ الكثيرَ جداً من الأسماء المُتَشابِهَة أو المُتَماثِلَة، يَجِبُ أن يكون لَهَا أرقام. وهَذَا يعني عملياً أن معظم الشخصيات الَّتِي وردت في تقارير مكافحة الاسْتِخْبَارَات يَجِبُ أن تُعطى أرقاماً، حَتَّى لو لم يكن للعديد منها أو معظمها أضابير. هل هَذَا هدر؟ لا، فالأرقام لا تكلِّف شيئاً، وخصوصاً بالنسبة للحاسوب، كما أنها توفِّر اختزالاً مريحاً لبيانات التعريف الأخرى؛ مكان الولادة، والعنوان، وما إلى ذَلِكَ.

أجهزة الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة في معظم البلدان تعطي أرقاماً تسلسلية لكافة الأشخاص، ويُنشِئُ النظامُ العَسكَرِيُّ الأمريكيُّ القديمُ أضابيرَهُ الشخصية عبر إلحاق الرقم 201. في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات يُستخدَمُ عادةً نظامٌ مشابهٌ، مع سابقة مثل "1" للأضابير الَّتِي

تُعنى بالأفراد، و"2" للمجموعات، و"3" للتنظيمات وأجهزة الاسْتِخْبَارَات (انظر الفصل 17 حول الترتيب)، "4" لإدارة الأفراد، وهلم جراً.

الأرقام الَّتِي توضع بِشَكلٍ تسلسلي تكون جزءاً تلقائياً من عملية التتبع، وهَكَذَا عندما نتلقى اتصالاً من الميدان يطلب منك تتبع أثر إلمير نودنيك، المولود في 12 نيسان سنة 1962، سيتضمَّن الرد رقماً حديث التعيين مسبوقاً بالرقم "1". كُلّ المراجع إلى نودنيك ستشمل هَذَا الرقم، وكذلك كافة الفهارس لذَلِكَ الاسم.

وبالتأكيد، ستُعيَّن العديد من الأرقام لنفس الشخص، لأن الإبلاغ من الميدان يَتُمّ على دفعات مُجُزَّأَة، وقد يكون لدى جماعتنا في طوكيو شخص يُدعى نوديك دون أن يكون لديه تاريخ ميلاد، بينما لا يكون لندويك في ستوكهولم عنوان. ويمكن أن يتصادف أن يستخدم نوديك في طوكيو اسماً مستعاراً في ستوكهولم، وبالتالي يُكسِب نفسه رقمين دون أن يدري. عند اكتشاف عملية التكرار من هَذَا القبيل، يَجِبُ حذف أحد الرقمين وتجميع الملفين في ملف واحد. لذا ينبغي توسيع نظام الأرقام الستة الَّذِي وضعته السنة الأخيرة ليصبح نظاماً سُباعيَّاً. ولن يعاني حاسوبك تقريباً من أي ضغط إضافي.

الأضابيرُ والخصوصيةُ:

لا يُحِبُّ الناسُ أن يكون ثمة ملفاتٍ محفوظةً عنهم. أنا لا أحبُّ هَذَا، ورئيس التحرير آنف الذكر لا يحبه، وإن كُنْت تقول إنك لا تمانع، فسأثبت أنك كاذبٌ عبر البوليغراف. يثّمِن الناس الخصوصية، ففي النهاية الشيء الوحيد الَّذِي تملكه حقاً هو نفسك، والمكتب الائتماني، أو شركة الهاتف، أو قوة الشرطة الَّتِي تحتفظ بسجلات حول أنشطتك الخاصة والَّتِي تأخذ منك بعضاً من السيطرة على أغلى ما تملك.

الاعتزازُ بخصوصياتنا راسخٌ فينا، فنحن مُبَرمَجون بِهَذِهِ الطريقة. فلا عجب إذاً أن تظهر فئةٌ كبيرةٌ تندد بصحافة الأضابير، أياً كَانَ من يحتفظ بِهَا (باستثناء جماعة الأخبار طبعاً). الحاجة الفطرية للخصوصية حقيقةٌ يواجهها ضباطُ مكافحة الاسْتِخْبَارَات. فضباط مكافحة

الاسْتِخْبَارَات يتقاضون أجورهم في مقابل أن يكونوا حِشَريين، وأضابير جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات تنتهك خصوصية الناس، لا شكَّ في هَذَا.

لكن، ويا للحسرة، العالم الَّذِي يكاد يضيق بنا اليوم ليس ذات العالم الَّذِي تطوَّر فيه جنسنا البشري لعدة ملايين من السنين. في مئات الأجيال الأخيرة، أنتجنا فجأة أفكاراً وجمعيات ومعامل ونقابات وتنظيمات وفيدراليات وتحالفات. وبالرغم من التوق الشديد للخصوصية الَّتِي لم تبرح جيناتنا منذ بضعة آلاف من السنين، إلا أننا تخلينا عنها. منذ خمسة آلاف سنة، تطوَّرنَا وتضاعفت أعدادُنا، وما زلنا نستمسك بالتوق الشديد للخصوصية. لكن من الناحية السِّيَاسِيَّة والاجتماعية لا يمكننا توفيرها، كم نحن مساكين، لن نحظى بِهَذِهِ الخصوصية الَّتِي يحظى بِهَا النمل.

عزيزي ضابط مكافحة الاسْتِخْبَارَات المسكين، عملك هو انتهاك الخصوصية، ولن تكوِّن العديد من الصداقات في هَذِهِ العملية. فأضابيرك ستكون محل استياء واستنكار واستهجان، وستُسَنُّ العديدُ من القوانين للتقليل من هَذِهِ الأضابير والحدِّ من محتواها وإتلافها. ستُبنى العديد من المهن الصحافية على هَذَا، وكذلك العديد من المهن السِّيَاسِيَّة، لأن القُرَّاءَ ومن لهم حق التصويت في الانتخابات، مثلك ومثلي، يكرهون أن يحتفظَ أحدٌ بأضابيرَ عنهم.

ينبغي أن تتسم بالمثابرة، أعدَّ أضابيرك، لكن حافظ عليها بعيداً عن الأيدي العابثة. انتهكت الخصوصية في البداية، فاحترمها في النهاية. وتذكَّر أن هَذِهِ الملفات تحوي ما يُعتَبَرُ الأهمُّ لزملائك: شكل شخصياتهم. كن شديد الحذر فدورك هو دور الوصي المحترم وليس دور الإله.

(17)

ترتيبُ مكافحةِ الاسْتِخْبَارَاتِ

ريموند روكا، الْمُلَقَّب: الصخر، هو أول من ابتكر مصطلح "هايلاندويذر" <نسَّاج الجبال> (Weaver Highland) وأطلقه على نوع محدد من محللي مكافحة الاسْتِخْبَارَات. صخر هَذَا معروفٌ من خلال معرفته الاحترافية بكيفية إعداد الملفّات واستخدامها، ولاحَظَ أن أفضل نسيج في العالم هو ذاك النسيج الَّذِي تحيكه النساء باستخدام النول اليدوي في المرتفعات الأسكتلندية في بريطانيا. كُلّ دفعة من القماش جميلةٌ وغير قابلة للتلف وفريدةٌ من نوعها، وهي كافية لخياطٍ في لندن كي يصنع بدلةً جميلة وغير قابلة للتلف وفريدةً من نوعها أيضاً، فإن احتاج الزبون في السنة التالية زوجاً إضافياً من الجوارب أو صدرية لارتدائها مع البدلة، فهَذَا يعني أن الحظ قد خذله، إذ ستكون قطعة القماش الجديدة الَّتِي سيصنعها نسَّاجُ الجبالِ مختلفةً عن القديمة.

يوجد "نسَّاج جبال" صغير في كُلّ محقق، وفي كُلّ محلل مكافحة استخبارات. وأنا أيضاً لدي الكثير من سمات نسَّاج الجبال في داخلي، فعندما أعمل على حالةٍ معينة، أكون الخبيرَ الوحيد، وأتوقع منك القدوم إليَّ وإلى ملفاتي الفريدة من نوعها، وليس إلى نظام مركزي أُعِدَّ للحالات العادية فقط لا يتطلب خبرتي الفائقة لفهمه. إنني أُبقي ملف الحالة هَذَا بحوزتي وفي حاسوبي الشخصي، ومثل نظيري الَّذِي ينسج القماش في الجبال، أنا الوحيد الَّذِي يملك هَذَا الجزء من العمل؛ إنه جزءٌ مني.

ومن المؤسف أنني عندما اتصف بسمة نسَّاج الجبال، سيكون ذَلِكَ سبباً في أن ملف الحالة الَّتِي أعمل عليها مع مجموعة المجلدات والفهرس الداخلي لا يمكن دمجها ضمن النظام الرئيسي. كَانَ هَذَا الوضع مقبولاً عندما كَانَ يتوجَّب إجراء المقارنة يدوياً، مع ملفات بطاقات متعددة، وإضافة حواشٍ جانبية، ووضع علامات على المستندات، ووضع

مسودّات للملخصات على لوحات صفراء. لكن حلول عصر الحاسوب غيَّر هَذَا كله. والآن ينبغي على عمل المحلل أن يتشابك ("برمجيات الحاسوب يَجِبُ أن ترتبط") مع عمل زميلٍ لَهُ في مكتبٍ مجاورٍ أو في الجانب الآخر من العالم، ويَجِبُ أن يتوافق عملهما مع أنظمة تشغيل الحواسيب المُستخدمة لدى جميع أجهزة الاسْتِخْبَارَات، بما في ذَلِكَ الحواسيب المركزية الَّتِي تشكِّل المخزن المركزي للمعلومات وتخزّن السجلات الأساسية.

ومع الأسف، ستستمر متلازمة "نَسَّاج الجبال" حَتَّى مع وجود الحاسب، ليس بسبب اختلاف مُحللي الحالة فقط، ولكن أيضاً لاختلاف مصممي الأنظمة الكبيرة الَّتِي يُفتَرَض أن يلتزم بِهَا المحللون. ومن الأمثلة على ذَلِكَ:

1- توافق الأنظمة" بين -فلنقل- وزارة الداخلية البريطانية (إم آي-5) والإف بي آي الأمرِيكِيَّة لن يكون كافياً على الأرجح، على الرغم من أنهما تعملان سويةً.

2- ضمن الإف بي آي البرمجيات المستخدمة لدى مكافحة الاسْتِخْبَارَات ومكافحة الجريمة المُنظَّمَة أيضاً لن ترضي أياً من الطرفين، وسيؤدي ذَلِكَ إلى حالة نسَّاج الجبال.

هل توقف المساعدة متلازمة نسَّاج الجبال؟ حسناً، المساعدة تضبطها.

ما هو التجميع؟

التجميع هو:

1- الفهرسة حسب الصنف.

2- التصنيف حسب الفئات.

3- التحليل.

إحدى الفئات المستخدمة في التصنيف هي "الاسم"، والمثال الشائع عن الفهرسة حسب الاسم هو دليل الهاتف، فمن المفيد الوصول إلى رقم هاتف تشارلي القديم، لكن ليس مفيداً جداً إن كُنْت تحاولُ الوصول إلى رقم زميل يعيش قريباً من تشارلي ولا تعرف اسمه. وللوصول للشخص الَّذِي يعيش بجوارها، يَجِبُ أن يكون لديك تصنيف "عنوان الشارع".

كم من الفئات في دفتر أرقام الهاتف لديك، بِحَيْثُ يكون "الاسم" فقط مفيداً للوصول إلى: "الاسم الكامل"، "رقم الشارع"، "رقم الهاتف"، بالإضافة إلى أربعة أخر: "المدينة"، "الولاية" مطبوعتان على مقدمة الدفتر، مع "تاريخ المعلومات" (تاريخ النشر)، أما "الدولة" فهي أمر مفروغ منه.

فيما يلي مثال عن الاضطرار لإيجاد شخص قريب جداً في حالة مكافحة استخبارات: هَب أن المحطة الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي تعمل فيها أخبرتك أن هُنَالِكَ راديو تشيكي في مكان ما ضمن دائرة قطرها 1 كم مرسومة على خريطة في أوسلو،[1] وهَب أيضاً، أنه لا يمكنك طلب المساعدة من السلطات النرويجية في تحديد البيت الآمن الَّذِي تنطلق منه شارات الراديو. يُفترضُ أنه ما من كرَّاسات مَرجِعيَّة مُتاحة تحوي قوائم بعناوين الشوارع مع أسماء مُلَّاكها (وبالفعل، يوجد كتب من هَذَا القبيل تُباع في العديد من المدن يستخدمها الأعداء والأطراف السِّيَاسِيَّة....).

[1] عاصمة النرويج.

دليل هواتف أوسلو لن يساعدك كثيراً، يمكنك تصفُّح هَذَا الدليل واستخراج جميع الأسماء الَّتِي تسبق عناوينها أسماء الشوارع داخل دائرتك، ومن ثُمَّ يمكنك تتبع كافة أسماء الأشخاص من خلال الفهرس المركزي لديك. فإن لم تصل إلى أي نتائج، يمكنك عندئذٍ تصنيف قائمتك حسب العنوان وإرسال فريق المراقبة لتسجيل جميع العناوين غير الموجودة في قائمتك؛ على الأرجح تِلْكَ الَّتِي لا تحتوي على هواتف، ثُمَّ باستخدام جميع حيل الاستجواب التجسسية يمكنك البدء بتحديد الأشخاص في العناوين دون أرقام الهواتف ومن ثُمَّ تتبعهم. إنه عملٌ شاقٌ.

ما مدى السهولة لو أن قيادتك نسخت من قبل (عبر المسح الضوئي) أدلة الهاتف في أوسلو وغيرها من المدن وبات من الممكن لَهَا ترتيبها حسب الاسم وعنوان الشارع، ورقم الهاتف. ما مقدار السهولة لو أن قيادتك فَهرَسَت جميع التقارير عن حالات التَّجَسُس التشيكية ليس حسب الاسم فقط بل حسب العنوان أيضاً. سيتولى الحاسوب نصف المجهود حَتَّى قبل أن تسمع عن الحالة.

التصنيفُ لغرضِ الترتيبِ:

فيما يلي بعض التصنيفات الَّتِي يرتِّب محلِّلُ مكافحة الاسْتِخْبَارَات أوراقه وفقاً لَهَا.

الاسم: في الترتيب غالباً ما تعمل على أشخاص لا تعرف أسمائهم أو يستخدمون أسماءً مُستعارةً. لذا فمن النادر أن تستخدم الاسم في عملية التصنيف، لأنك تأمل أن تكتشف الأسماء من التصنيفات الأخرى.

تحديد البيانات: الغاية من تصنيف بيانات محددة هي فصل العديد من أسماء جون سميث وبيل جوهانسون عن بعضها. والتصنيف الأبرز هو بيانات "DPOB" (تعني تاريخ ومكان الولادة)، وهي المعلومات الَّتِي تظهر في معظم جوازات السفر. في الملف الرئيسي في الحاسوب المركزي، يستلزم هَذَا حقلين، حقل رقم يمكن فرز المعلومات بحسبه بسهولةٍ من أجل التاريخ (270423=23/ نيسان/ سنة 1927) وآخر هجائي. لأن نظام الترتيب لديك

ربما يضم "الموقع" و"النشاط"، يمكن إدراج "مكان الولادة" في "الموقع" و"تاريخ الولادة" يمكن إدخالها في تصنيف "النشاط".

المنصب: لا يجري التصنيف عادةً تحت عنوان "المنصب". فمن الضروري أن تتمكن من التعامل السريع حول الموضوع، ويَجِبُ أن يكون لديك حقل منفصل للمنصب بِحَيْثُ لا يتداخل مع التصنيفات الأخرى. إنه يحوي عادةً على منصب الشخص ("رئيس تحرير صحيفة"، "كاتب شيفرة") لكن ربما تُحدِدُ أيضاً وظيفة عملية، مثل "مدبِّر بيت آمن".

الخصوصية: تصنيف "الخصوصية" مُشابهٌ لمصطلح "طريقة العمل" الَّذِي تستخدمه الشرطة الجنائية؛ أين يضع مُقتَحِم الخزائن أدواته في العادة، على يمين الخزانة أم على يسارها؟ كما ينطبق هَذَا على الندوب والعلامات المميزة. اكتشفتُ ذات مرة رئيس جواسيس سوفيَاتِيّ من تقرير كتبه عميلٌ مزدوجٌ. راقبَ العميل مُشغِّلَه الروسي -غريمي في اللعبة-، حَيْثُ كَانَ العميلُ أشبهَ بكرة البينغ بونج الَّتِي نتقاذفها بيننا، فلاحظ أن لديه ثلاثة أصابع موشومة بالحروف "A" و"H" و"R" من الخلف. وتقرأ هَذِهِ الحروف الثلاثة باللغة الروسية "آنيا" وهو اسم زوجة السكرتير الأول في السفارة السُّوفيَاتِيَّة. وعند استعراض صور المراقبة لرجال أسماء زوجاتهم آنيا، تذَكَّرَهُ مُنشَقٌّ عن الكي جي بي كَانَ زميلاً سابقاً لَهُ في المديرية الأولى، حَيْثُ كَانَ لَهُ بالطبع اسمٌ آخر.

هل يدخِّن الغُليون؟ هل يلمِّع مقدِّمَة حذائه؟ هل يضع خاتم الزواج في إصبع يده اليمنى أم اليسرى؟ هل ينقل شوكته من اليد اليسرى لليمنى (الأسلوب الأمريكي) عندما يأكل؟ هل يحتفظ بمنديل في كمه؟ هل يرتدي نظارات؟ يحمل (أي نوع) من الأسلحة؟ هل يذهب إلى الكنيسة أو الكنيس أو المسجد أو المعبد البوذي على نحو مُنتَظَم؟ هَذِهِ يمكن أن تكون الخصوصيات.

التاريخ/الوقت: كُلّ البيانات يَجِبُ أن تؤرَّخ وإلا فإنها ستُفقَد في الملفات. إن كَانَ @كوزنتسوف (يُصطلح على أن الرمز @ يشير إلى أن الاسم مستعار أو أنه لقب) في أثينا

في الخامس عشر من الشهر و@بيتروف لم يصل هناك حَتَّى العشرين من ذات الشهر فهَذَا يعني أنهم شخصان مختلفان. فإن كانا هناك في نفس التاريخ، ربما يكونان نفس الشخص.

في بعض الأحيان -على سبيل المثال برامج البث الإذاعي- يكون تاريخ اليوم مهماً. لذا يَجِبُ أن يكونَ عمود تصنيف الحاسوب للوقت والتاريخ في الملف الرئيسي بسعة عشرة أرقام، على سبيل المثال: ("6602211403"= 2:03 بعد الظهر في 21 شباط سنة 1966).

التواريخ غير التامة، على سبيل المثال: ("6602"=شباط سنة 1966)، يمكن وضعها في ملف رئيسي مزوَّد بوحدة برمجية بسيطة من نوع "إن كَانَ، فافعل عندها" سُتملأ في الفراغات من اليمين إلى اليسار بالأصفار، وبالتالي يصبح الرقم: "6602": "6602000000" لأغراض التصنيف.

المكان: عندما لا يكون لديك اسم أو لديك لقب فقط، فستسأل: "من كَانَ في ذاك المكان في ذاك الوقت؟" و "هل كَانَ (س) من الناس في مكان آخر في ذاك الوقت؟" إن قابل عميلك المزدوج @كوسنيتوف أحداً في ستوكهولم عاصمة السويد في 20 نيسان، فهل يمكنك الوصول إلى بيانات شركة الطيران للأسبوع السابق؟ فإن استطعت، يمكنك أن تحرى الأسماء الواردة في البيانات ونقاط المغادرة وتقارنها بالقائمة الرئيسية لضباط الحالة السوفييت المعروفين.

إذا وجدت أن السكرتير الثاني "بالكين"، الضابط في مديرية الاسْتِخْبَارَات الروسية العامة المتمركز في هلسنكي،[1] قد أخذ إجازةً قصيرةً في ستوكهولم ذاك الأسبوع، قد تكون بِذَلِكَ قد حصلت على قطعة غريبة الشكل لأحجية الصور الَّتِي كُنْت تجمع قطعها: @كوسنتوف هو "i/w" [2](تعني متطابق مع) بالكين. ألقِ نظرة على إضبارة بالكين؛ ربما تعرف حينئذ ما يكفي عنه لترتيب حديثٍ هادئ معه.

---

[1] عاصمة فنلندا.

[2] **i/w**: identical with

ربما يكون لديه مشكلات مع زوجته، أو ربما يكون قلقاً من الذهاب إلى البيت عند انتهاء رحلته، وبهذا ربما تتمكن من تجنيده. في العديد من الحالات، يكون معرفة هويته خطوة جديدة نحو نوع من عملية مكافحة التَّجَسُس الَّتِي تسعى إليها مكافحة الاسْتِخْبَارَات دوماً كهدف نهائي. أنت تقوم بعملك الَّذِي تتلقى عليه مرتبك، لكن لا تنسَ أن بالكين ربما يستخدم ذات مجموعة الحيل ضدك.

كما هو الحال في "التاريخ/الوقت"، تتنوع درجة الدقة المطلوبة لتصنيف "المكان" أيضاً. يَجِبُ أن يتسعَ الملفُ الأساسي في حاسوبك المركزي لأكبر قدر ممكن من التفاصيل الضرورية لأكثر الحالات تعقيداً، وبالتالي سيكون هُنَالِكَ حقولٌ منفصلة للبلد والمنطقة (المقاطعة، الدولة، إلخ) والمدينة، وعنوان الشارع. لكن عند العمل في حالة خاصة على حاسوبك الشخصي، ستنتابك على الأغلب مخاوفٌ مبعثها شيء أو شيئين. فقد يترك تحقيق تجري فيه كافة الأحداث في تورونتو للحاسوب مجالاً لملء "CAN" بكلمة كندا في حقل البلد، بدلاً من ملئها بكلمة تورونتو.

النشاط: ماذا جرى؟ يمكن أن يُشفَّرَ هَذَا، على سبيل المثال: "رف"= الاجتماع بعميل؛ "إ.ص"= اشحن صندوقا ميتاً؛ "ل.و"= لوحظ وجوده؛ وهَكَذَا. أو يمكن أن تكوّن حقلاً طويلاً بما فيه الكفاية لعبارات قصيرة في نص واضح. وفي كلا الحالتين فالتوحيد الصارم ضروري إذا كُنْت تنوي الفرز إلى هَذِهِ الفئة. حاسوبك غبي جداً ليدرج جميع اجتماعات العميل معاً إذا كُنْت تسمي بعض هَذِهِ الاجتماعات "اجتماع عميل" وتسمي البعض الآخر باسم مختلف: "اجتماعات ثنائية". وهَذَا مثال على: أين يتوجب عليك تطويع لمستك الشخصية؛ حالة "نسَّاج الجبال" (بالتأكيد عندما تُحوَّل المادة إلى النظام الرئيسي، يمكن أن تساعد خاصية البحث والاستبدال؛ لكن لا تعتمد عليها). "التاريخ/الوقت" و"الموقع"، تُرتَّب معاً، وتؤدي إلى نشوء أنماط.

جهات الاتصال: "جهات الاتصال" و"المجموعة" (البيانات المرتبطة بِهَا) متلازمتان ومتخصصتان. وفي بعض الأحيان تكونان أهم أنواع تحليل مكافحة الاسْتِخْبَارَات، لأنهما

تنتجان أنماطاً كبيرةً، وأوامر كاملةً لمعركة عدوك. لكنها لسوء الحظ تتطلب إدخال كمياتٍ كبيرةٍ من المُدخلات إلى نظامك، وتشغَلُ بالتالي حيِّزاً كبيراً من ذاكرة الحاسوب لديك.

"جهات الاتصال" يَجِبُ أن تكون جزءًا من كُلّ إضبارة تظهر في حالة نشطة. والأداة الأبسط لتجميعها هي جداول الحاسوب الَّتِي تُعدُّ في أعمدة قابلة للفرز. وتُستخلص البيانات من الإضبارة بترتيب عشوائي، وكي يرتّبها الحاسوب ويفرزها حسب الجدول: سِمِّ الموضوع، وجهة الاتصال، والتاريخ، والموقع، وتحت عنوان "النشاط" نوع جهة الاتصال. عند فرزها حسب اسم الموضوع والتاريخ، يكون أولُ مُدخَلَين في عمود "اسم جهة الاتصال" سيكون والدَيْ الشخص المعني؛ ويكون التاريخ هو تاريخ ميلاد الشخص المعني، وسيُرَمز بحرف "ع" للعائلة. إن كَانَ الشخص المعني عميلاً مزدوجاً، فربما يكون المُدخل الأخير في عمود "اسم جهة الاتصال" غ.م (اسم غير معروف)، و"نوع جهة الاتصال" يمكن أن تكون "ا.ع.ح" أي: "اجتماع عملياتي مع ضابط حالة العدو".

من السهل ترتيب جهات اتصال لشخص مُعيَّن مع ملفات جهات اتصال أخرى ومع سجلات أخرى. الأسماء في عمود "اسم جهة الاتصال" يمكن تتبعها بسهولةٍ وبِشَكلٍ آلي، ويمكن إنشاء ملفات جهات اتصال لِكُلِّ شخص إن لم تكن موجودةً بالأصل. كما يمكن دمج عدد من ملفات جهات الاتصال مرتبةً (باستخدام وحدة برمجية لنقل الأسماء بين الأعمدة) ومن ثُمَّ الحصول على "مجموعة" يمكنك إسنادُ اسمٍ لَهَا من قبيل "بالكين كومبلكس". ويمكنك ربطها مع حالات أو مجموعات أخرى؛ ما ينشأ في الحقيقة هو "نمط" يكون أكبر من مجموع أجزائه فما لو بقي كُلّ جزء على حدا، مثل الكعكة المحلاة الدائرية، الَّتِي يعرض وسطها، حَيْثُ تظهر الأشياء الَّتِي لا تعرفها ولا تعرف أنك لم تعرفها. ومن الجلي، أنك لو صنَّفت "UN" (اسم غير معروف) حسب "الوقت" و"الموقع" مقابل نفس الفئات من الملفات الأخرى، فقد تتمكن من استبدال "UN" باسم مُسجَّل بالفعل في حالة أخرى.



كما في السحر، أحياناً ينتج هَذَا النوع من الترتيب صورة عن جهاز التَّجَسُس بأكمله. وأحياناً يُظهِر بوضوح أنه ليس هُنَالِكَ ما يريب، مِمَّا يؤدي إلى توفير الوقت.

المجموعة: "العائلة" نوع بسيط من المجموعات، لا يكاد تحليل مكافحة استخبارات يخلو منه. يدرج القدّيس ماثيو[1] قائمة بأسلافه الذكور في خط مباشر يعود إلى زوج جدة يسوع الناصري؛ البطريرك أبراهام: "أبراهام ابن إسحاق؛ وإسحاق بن يعقوب... [وبعدها بعدة أجيال] أنجب ماثان يعقوب، وأنجب يعقوب يوسف، زوج مريم، الَّذِي وُلِد منه يسوع..." هُنَا وهناك على امتداد الخط، لم تُذكر سوى امرأة واحدة، لكن النساء لم تكنَّ ذات أهمية لغرض البطريرك. ولم يحتج الحاسوب الَّذِي لم يمتلكه.[2]

في البلدان الآسيوية والعربية، يكشف ترتيب العلاقات الأُسَرِيَّة العلاقات السِّيَاسِيَّة والاقتصاديَّة إضافة إلى تعقيدات الاسْتِخْبَارَات. تعقيدات السياسات الفيلبينية على سبيل المثال، تصبح فجْأةً أبسط عندما تُرتَّب المجموعات العائلية. والنقاط القوية لِلاسْتِخْبَارَاتِ والأمن والجماعات شبه العَسكَرِيَّة تصبحُ أكثرَ وضوحاً.

وأكثر المجموعات الَّتِي ستبني ملفاتك عليها ستكون مرتبةً بناءً على التصنيفات الأخرى الَّتِي ذكرناها آنفاً. لتسهيل ترتيب البيانات أكثر، يمكن أن تُسنِد الأسماء لِهَذِهِ المجموعات الَّتِي ستُدرج في العمود بـ"اسم الحالة". ثُمَّ عندما تفرزُ جهات الاتصال سيكون اسم المجموعة اختزالاً لكافة التعقيدات وسينقص حجم ملف العمل لديك.

---

[1] القديس ماثيو: أو متَّى الرسول، والمعروف أيضاً باسم القديس لاوي، وفقاً للعهد الجديد، أحد حواريي عيسى (عليه السلام) الاثني عشر.

[2] حسب إنجيل ماثيو يعتبر يوسف هو زوج القديسة مريم في الحياة الدنيا ووالد يسوع، ويسوع في نفس الوقت ابن الله، تعالى الله عن ذَلِكَ وتنزه أن يكون لَهُ ولد أو أن يكون بشراً. وكُلّ هَذِهِ المعتقدات ظهرت في الدين النصراني المحرف ما بعد عيسى عليه السلام، حَيْثُ تعرضت للوضع والاختراق من قبل اليهود، ومُلئت الأناجيل الَّتِي ظهرت فيما بعد بالأكاذيب الَّتِي نقلت معتقدات التثليث وعبادة الرهبان والأصنام من الأديان الوثنية ما قبل النصرانية.

إن كُنْت تستخدم أرقام الأضابير بالتزامن مع الأسماء، فَيَجِبُ أن تكون أرقام مجموعتك في سلسلة منفصلة؛ لذا فابدأ برقم مخصص للمجموعات. وبالتالي يمكن أن تبدأ بالرقم "1" لِكُلِّ أرقام الأضابير المخصصة للأفراد، و"2" لِتِلْكَ المخصصة للمجموعات، و"3" لِتِلْكَ المخصصة للتنظيمات.

التنظيمات: التنظيمات الرسمية مع القوائم الرسمية نوع من المجموعات، لكنها تُعطى ملفاً منفصلاً بسبب حجم المعلومات الكبير المتاح عنها. الأحزاب السِّيَاسِيَّة، والروابط الجامعية، ونوادي الحياطة، وأجهزة الاسْتِخْبَارَات، والجمعيات المهنية، والوحدات العَسكَرِيَّة... تُعدُّ بالآلاف، وربما الملايين. الملفات الأساسية يَجِبُ أن تكون على غرار أضابير الملفات الشخصية. وجلُّها يَجِبُ أن تُرتَّب فقط عندما تدعمُ الترتيبَ بِشَكلٍ مباشر في التصنيفات الأخرى؛ ومعظمها يَجِبُ أن يذهب إلى الأرشيف أو يُتلف عندما لا تُستخدَم في الوقت المناسب. لماذا؟ لأنها كبيرة وتشوِّش نظامك.

يَجِبُ أن تحتفظ فقط بتلك الَّتِي تحوي معلومات سرية، كما في حالة جهاز الاسْتِخْبَارَات. قائمة لاعبي فريق كرة قدم على سبيل المثال، يمكن دوماً تجميعها سريعاً من مصادر عامة إذا لزم الأمر في تحقيق مستقبلي، بينما لا يمكن فعل هَذَا مع قائمة مسروقة لأفراد منظمة إرهابية. (صدِّق أو لا تصدِّق، لاعبو كرة القدم العالميين يمكن أن يكونوا سعاة جيدين، إن رفعت مستوى التفكير لديهم إلى ما هو أعلى من أقدامهم).

استخدامُ الحواسيب:

بالنسبة لتقني الحاسوب في عمل الجواسيس، فلا يلوح لهم خطر البطالة في الأفق. الحواسيب أداة رئيسية في كُلّ جزء من هَذَا العمل. في رواية: الجاسوس المثالي (نشرَتْهُ مجلة نيويورك سنة 1986) ضرب الكاتب البِرِيطَانِيّ الَّذِي أطلق على نفسه جون لي كاريه مثالاً عن استخدام الحاسوب. (معظم قصص لي كاريه حقيقية، ومعظم ما يبدو من نسج خياله حقيقي، باستثناء مصطلح "الخلد" [لوصف الاختراق]، الَّذِي استقاه من بنات أفكاره).

في الرواية يحاول ضابط مكافحة استخبارات أمريكي في فيينا التعرف على خلد تشيكي ضمن جهاز الاسْتِخْبَارَات البِرِيطَانِيّ، يتحدث عن: "ساعات طويلة من الليل أقضيها أمام حاسوبي وأناملي تضرب على أزرار الحاسب لتجمع أشتات كميات هائلة من البيانات... أسماء وسجلات لِكُلِّ ضباط المخابرات الغربيين الَّذِينَ عملوا في واشنطن في الماضي والحاضر واحتكّوا بهدف تشيكي، سواء كَانَ هَذَا الهدف مهماً أم هامشياً... أسماء كُلّ جهات الاتصال، وتفاصيل عن أسفارهم، أنماط سلوكهم، ميولاتهم الجنسية والترفيهية... أسماء لِكُلِّ السعاة التشيكيين، والمسؤولين، والمسافرين القانونيين وغير القانونيين الَّذِينَ يدخلون ويخرجون من الولايات المتحدة، إضافةً إلى أوصاف شخصيةٍ تُستخدَمُ لكشف جوازات السفر المُزَوَّرَة. المواعيد والأسباب الظاهرية لِهَذِهِ الرحلات، تكرارها ومدتها" (الصفحة 239).

وبعدها "بضغطة واحدة على الزر بات كُلّ شيء رهن إشارتي، وبات العالم برمته قريةً صغيرةً، ثلاثة صحافيين في نهاية الثلاثينيات من أعمارهم أصبحوا جاسوساً تشيكياً واحداً" وبعد أن حدد مُشغِّل الخلد، وصل إلى الخلد، "بيم": "كُلّ مدينة أمريكية زارها "بيتز هامبل زاور" سنة 1981 و1982 زارها "بيم" بنفس التاريخ" (الصفحة 246). بعض الخيال أكثر إيجازاً، إن لم يكن أكثر صدقاً، من الحقيقة.

لكن ينبغي على ضابط الاسْتِخْبَارَات الَّذِي يشكّل الحاسوب أداةً بالنسبة لَهُ، سواء في الميدان أو في القاعدة الأساسية، أن ينظر إلى الحاسوب كما لو أنه يقف على حافة نبع مياه حارة في يلوستون أو نيوزيلاندا، حَيْثُ تسبب الفقاعات الطينية تشققات وجيوب غازية صغيرة أو انفجارات كبيرة كما تفعل البرامج والأجهزة الَّتِي تشبه رائحتها رائحة الكبريت في هَذِهِ الينابيع.

الشيء الوحيد الَّذِي يمكن أن تبقى متأكداً منه دوماً هو أنه أياً كَانَ النظام الَّذِي تشتريه، فسيصبح مِمَّا عفا عليه الزمن وفقاً لمعايير شخص ما خلال زمنٍ قصيرٍ. وفي ذات الوقت لديك عمل عليك القيام بِهِ، وأنت مضطر للعمل بالمعدات الَّتِي تملكها من قبل. وأنت مضطر أيضاً للعمل بأي مجموعة متنوعة من المعدات الَّتِي يستخدمها شركاؤك المتنوعون في أعمال مكافحة الاسْتِخْبَارَات، لأنك سترغب حتماً في تداول المعلومات على الأقراص الليزرية أو عبر الأنترنت. كما يَجِبُ أن يكون هُنَالِكَ توافق في البرمجيات والأجهزة بينك وبين شركائك في أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأخرى وفي المكاتب الأخرى ضمن الجهاز الَّذِي تعمل فيه.

إن كَانَ جهاز مكافحة الاسْتِخْبَارَات الَّذِي تعمل فيه كبيراً، فسيحتوي على "حواسيب مركزية"، بمثابة الرجال الضّخَامِ في الأقبية المُكيَّفَة الَّتِي تحتوي (على الأقل) على جميع سجلات مكافحة الاسْتِخْبَارَات وكذلك على جميع سجلات الموظّفين، وجرد المعدات، والحسابات المالية، وتوقعات الميزانية، والمراسلة الخارجية، وسجلات المحكمة لقسمك القانوني، وعشرات الملفات الضخمة الأخرى.

إن كَانَ جهازك مثل السي آي إيه الأمريكي يقوم بأعمال متعددة، مع مهام خارج مكافحة الاسْتِخْبَارَات لجمع المعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة بطرق سرية وأخرى علنية، ولإكمال مهام استخباراتية، وتنفيذ عَمَلِيَّات شبه عَسكَرِيَّة وبروبوغاندا وتغطية أعمال سياسية؛ فسيكون عندها عدد البرامج المستخدمة في نظام الحاسوب المركزي العنقودي لديك هائلاً، والتواصل بين هَذِهِ البرامج سيكون عملاً روتينياً رئيسياً للتقنيّين في مركزك ولمدرائهم.

المهام الروتينية لحاسوبك ستجري بآلات أصغر، هي الحاسب الشخصي والحاسب المحمول. في الحقبة المبكرة فقط، عندما كَانَ ضابط الحالة الميداني أو المحقق بحاجة إلى الكتابة على الآلة الكاتبة، كَانَ عجز الضابط عن كتابة مسودة تقريره على الأقل على الآلة الكاتبة نقطة سوداء في مسيرته المهنية، أما الآن فقد بات الضابط أو المحقق يعرف كيف يتعامل مع الحاسب وبات يعرف بِشَكلٍ أفضلٍ كيف يُجري التجميع الأولي لحالاته، وكيف يتعاملُ مع برامج تحرير النصوص الَّتِي حلت محل الأسلوب القديم في الكتابة الَّذِي عفا عليه الزمن.

(18)

اللعبةُ الكبيرةُ: الخِدَاعُ

لو أخبرت ديكتاتوراً روسياً شيوعياً بأن ديكتاتوراً ألمانياً نازياً سيهاجمه فلن يُصدّقَك. فكلا الطرفين أبرما اتفاقاً معقولاً لاقتسام أوروبا بينهما، ولَم يتخلَّ الألمان عن كُلّ المكاسب الَّتِي تحصَّلوا عليها من الاتفاق، خصوصاً وأنهم منهمكون في حرب طاحنة تدور رحاها على الجبهة الغربية؟ سأل ستالين: "هتلر يقاتل على جبهتين؟"، ثُمَّ أجاب: "كلام فارغ". لكن هَذَا ما جرى وتبيَّن أن الاتفاق الَّذِي سُمِّي اقتسام بولندا، لم يكن سوى خداع ألماني، كاد أن ينجح بتحويل ستالين إلى أسير بيد الألمان أو إلى جثة متدلية من سيارة جيب ألمانية.

إن قلت لجنرال يشنُّ هجوماً ناجحاً أن العدو ينسحب إلى مواقع مجهَّزَة، سيصدِّقك، لأن هَذَا ما سيفعله لو كَانَ في مكان العدو. أما إن أخبرته بأن العدو يستعدُّ لشنِّ هجوم معاكس، فلن يصدِّقك، لأن مناورة من هَذَا القبيل لن تكون منطقية وستكون انتحارية. وحدث هَذَا في الأردين[1] قُبيل عيد الميلاد سنة 1944، فقد كَانَ من المفروض وفقاً للمنطق، أن ينسحب هتلر إلى خط نهر الراين[2] لكنه بدلاً من ذَلِكَ شنَّ هجوماً معاكساً. والحلفاء الَّذِينَ لم يصدِّقوا ما نقلته مخابراتهم، وقعوا ضحية خطة الخداع الألمانية.

وبعد انتهاء معركة بلاج، وجد قادة الحلفاء عزاءً صغيراً وهو أن الألمان قد خسروا بالفعل الحَرْب في الغرب. وكَانَت الجيوش الألمانية في حالة يُرثى لهَا، وبات الطريق إلى برلين ممهداً تقريباً، لكن الطرق إلى ساحة المعركة الَّتِي تراكمت عليها الثلوج باتت مليئة بدبابات

[1] الأردين: منطقة إلى الجنوب الشرقي من بلجيكا تمتد إلى لكسمبرغ وألمانيا وفرَنسَا. شهدت معارك ضارية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، إذ تمتاز بتضاريسها الوعرة والوديان والأنهار المتعرجة والكهوف الواسعة والغابات الكثيفة الَّتِي تتقاطع مع الطرق الطويلة.

[2] نهر الراين: واحد من أكبر الأنهار في أوروبا. يبدأ في كانتون غراوبوندن جنوب شرق جبال الألب السويسرية، ويصب في بحر الشمال على الساحل الهولندي.

وآليات الحلفاء المحطمة مثلما امتلأت ساحات غابات الأردين بجثث جنود الحلفاء. كَانَ من الممكن غالباً تجنُّب وقوع الخسائر الأمرِيكِيَّة والبرِيطَانِيَّة أو التقليل منها فيما لو نُشِرَت القواتُ بِشَكلٍ مختلفٍ قبل بدء المعركة استناداً للمعلومات الاسْتِخْبَارَاتِيَّة المتاحة.

أثناء الحَرْب الباردة، لو أخبرت جهاز استخبارات غربي أن الحكومة الشيوعية في أوروبا الشرقية قد قُوِّضَت بفعل مقاومة داخلية نظَّمها قدامى المحاربين الَّذِينَ كانوا في صفوف الجيش السابق غير الشيوعي، كَانَ سيصدقك، لأنه كَانَ يعرف أن مواطني هَذَا البلد كانوا ضد النظام الشيوعي. وهَذَا ما حدث عندما تمكَّن جهاز أمن الدولة البولندي من خداع جهاز الاسْتِخْبَارَات الأمريكي والسيطرة -لفترة من الزمن- على عَمَلِيَّات التَّجَسُس الغربية ضد بولندا.

واعتمد جهاز أمن الدولة البولندي في عمليَّتِهِ على تنظيم مقاومة خيالي أسموه "الحرية والاستقلال" واستقوا الفكرة من تنظيم قديم يُدعى "الثقة" نَشِطَ في السابق ضد الاسْتِخْبَارَات البريطانية بقيادة فليكس جورجنسكي. تمكَّنت منظمة جورجنسكي (المنظمة الأم للكي جي بي) من القبض على عميل في منظمة "الاتحاد الملكي لروسيا الوسطى"، وهي منظمة حقيقية معادية للبلاشفة، واستفادت منه لتجنيد رئيس منظمة الاتحاد الملكي لروسيا الوسطى؛ بوريس سافينكوف.

وبتوجيه من البلاشفة خدع سافينكوف العميلَ سيدني رايلي[1]وجهاز الاسْتِخْبَارَات البريطانية، الَّذِي دفع المال لعملية جورجنسكي من خلال تقديم تمويل لمنظمة الاتحاد الملكي لروسيا الوسطى بملايين الجنيهات الإسترلينية.

وكلما زاد عدد الأمثلة على هَذِهِ "الإخفاقات" الاسْتِخْبَارَاتِيَّة الَّتِي يدرسها المرء، يزداد يقينه بأن عدد مرات الإخفاق في قراءة وتفسير المعلومات يفوق كثيراً عدد مرات الإخفاق

[1] سيدني رايلي: يهودي روسي، عملَ لصالح بِرِيطَانِيَا ضد روسيا وهو من أشهر الجواسيس في مطلع القرن الماضي، أعتقل سنة 1925 وأعدمَ رمياً بالرصاص في موسكو، يقول إنه كَانَ جاسوساً لأربع دول وكَانَ يستخدم جاذبيته لإغراء زوجات السياسيين والعسكريين وضباط الأمن لاختطاف المعلومات منهم، وهو من أشهر عشرة جواسيس في العالم.

في جمع المعلومات. ما المغزى من هَذَا؟ يصدِّق صناع القرار ما يريدون تصديقه، وأفضل طريقة لخداعهم هي تزويدهم بالمعلومات الَّتِي تتوافق مع الأفكار المُسبَقَة لديهم ومع تحيُّزاتِهِم.

المؤهل رقم واحد: كَانَ الموقف تجاه المخابرات في الكتلة السُّوفيَاتِيَّة السابقة مختلفاً عنه في الغرب، فقد كَانَ السُّوفيَات يميلون إلى التصديق بأنهم كانوا يسرقون من خلال التَّجَسُس أكثَرَ مِمَّا يحصِّلونه مجاناً من الصحافة أو الأبحاث الأكاديمية، بينما في الغرب -خصوصاً في الولايات المتحدة- كَانَ العكس صحيحاً. كَانَ محللو الاسْتِخْبَارَات الأمرِيكِيَّة (والسياسيون والأساتذة الجامعيون والعلماء المعنِيّون -رغم التناقض في المصطلحات-) يثقون بصحيفة نيويورك تايمز أكثر من تقارير الجواسيس، ويصدِّقون عادةً الحملات الدعائية السُّوفيَاتِيَّة بينما يشككون في الحقائق الَّتِي تنقلها لهم المصادر السرية.

لذا فقد توجَّه الخداع السُّوفيَاتِيّ (التدابير النشطة، المعلومات المُضلِلَة، التمويه) بقوة إلى الإعلام الغربي العام، في حين كَانَ على الخداع الغربي أن يعمل ضد أجهزة التَّجَسُس الشيوعية. وببساطة حاول من يقومون بالخداع من السوفييت الترويج لبضاعتهم في الإعلام الغربي؛ أما نحن فقد حاولنا سرقة ممتلكاتنا الَّتِي كَانَ السوفييت وجميع أجهزة المخابرات العامة التابعة لإمبراطوريهم قد سرقوها.

أدواتُ الخداع:

أدوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات، الَّتِي ناقشناها في هَذَا الكتاب، هي تِلْكَ الَّتِي تكشف وتخترق مخابرات العدو، وتصل إلى ما لديه من معلومات وتحليلات وتقديرات.

وأدوات الخداع هي نفسها أدوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات، الَّتِي تُستخدم للتلاعب بما لدى العدو من معلومات وبالتالي تشوش عملية التحليل ومن ثُمَّ تقديراته. إنها تكتيكية، ولأن الخداع يَجِبُ أن يكون إستراتيجيا، يَجِبُ على أولئك الَّذِينَ يستخدمونه تنسيق كافة أدوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات ومكافحة التَّجَسُس ودعمها بكافة الوسائل الأخرى المتاحة. فلنلقِ نظرة على التقنيات الرئيسية واعتبارات الخداع.

التناغمُ (كما لو كَانَت سيمفونية موسيقية)

حين يكتب بيتهوفن أو بيني جودمان سيمفونيةً فإنه يؤلِّف ترتيباً متأرجحاً يستخدم فيه نغمات أسَاسِيَّة يمكن عزفها بإصبع واحد على البيانو. لكن العازف على البيانو بإصبع واحد لا يستطيعُ عزف ألحان تجذب جمهور قاعةِ موسيقية. النغمة أو موضوع الخداع ينبغي أن يكون عملاً جماعياً متناسقاً. فَيَجِبُ أن تتعاون آلات العزف فيما بينها بما في ذَلِكَ آلات النفخ والقرع والأوتار، ويَجِبُ أن يكون بينها مُوصِّلٌ مشتركٌ بِشَكلٍ حازم.

البارحة:

لو صدَّق الألمان أن الحلفاء سيهاجمون شواطئ النورماندي صيف سنة 1944، لكانوا نشروا قواتهم بطريقة تؤدِّي يقيناً إلى تدمير القوات الغازية. وكما جرى، خُدِعَ الألمان وصدَّقوا أن الهجوم الرئيسي سيتَّجه إلى أقرب نقطة لإنكلترا، وهو ممر كاليه. كَانَت خطة "فورتيتيود" (عبور ممر الكاليه) هي التمويه للخطة الحقيقية "أوفرلورد"[1] (الهجوم البحري على شواطئ

---

[1] كَانَت عملية **أوفرلورد** الاسم الرمزي لمعركة النورماندي، وهي عملية الحلفاء الَّتِي أطلقت الغزو الناجح لأوروبا الغربية الَّتِي احتلتها ألمانية خلال الحَرْب العالمية الثانية. وبدأت العملية في 6 من حزيران سنة 1944 بإنزال

النورماندي)، الَّتِي تعلَّق بِهَا مصير الحَرْب. لو فشلت خطة "فورتيتيود"، لفشلت خطة أوفرلورد. ولَهُزِمَت بريطانيا وفَرَنسَا والولايات المتحدة هزيمةً ساحقةً في الحَرْب، ولما تمكَّن هَذَا المؤلف الطيب من النجاة وكتابة هَذَا الكتاب.

كَانَت الفكرة من خطة "فورتيتيود" بسيطة: إيهام العدو بأن الحلفاء سيغزون فرنسا المحتلة عبر معبر كاليه. وكَانَت متناغمةً عبر: 1- تحديد كُلّ مصدر يمكن للمخابرات الألمانية استقاء المعلومات منه. 2- السيطرة على هَذِهِ المصادر والتلاعب بِهَا، وأخيراً 3- فرض السرية التامة حول خطط الغزو الحقيقية.

لم تتطلب هَذِهِ الخطة مجرد التلاعب بجهاز التَّجَسُس الألماني فقط بل بالمصادر الأخرى أيضاً. الصحافة العالمية بحاجة ماسة لضخ "الأخبار" حَتَّى لو كَانَت تخمينات، فتم تزويدها بـ"الأخبار". وتولى أبرز الجنرالات، الجنرال جورج باتون[1]، قيادة مجموعة الجيوش الأمرِيكيَّة الأولى، ومقرات قيادتها قبالة معبر كاليه؛ وقُدِّمت لمجموعة الجيوش الأمرِيكيَّة الأولى كتيبة إشارة (الكتيبة D3301) لمحاكاة حركة شارات الراديو الهائلة الَّتِي قد تطلقها مجموعةُ جيوش تحوي عشرات الفِرَق القتالية، مع تحضيراتها لاقتحام القتال. ولتغذية الاستطلاع الألماني الجوي أُوكِلَت لمجموعة الجيوش الأمرِيكيَّة الأولى مهمة بناء مئات زوارق الإنزال الوهمية، ومئات الدبابات من الخشب وسيارات جيب هيكلية، وتجهيز مناطق مؤقتة لإقامة القوات تبلغ مساحتها مئات الفدّانات وتمويهها رغم أنها خالية. وفي اسكتلندا كَانَ الجيش البِرِيطَانِيّ الرابع نشطاً، مع الفيلق الثاني الَّذِي كَانَ متمركزاً في سترلنغ والفيلق السابع في دوندي؛ وكُلّ هَذَا كَانَ مزيفاً.

كَانَ لدى الاسْتِخْبَارَات الألمانية عشرون عميلاً في بريطانيا، وبالمصادفة كَانَ اسم لجنة مكافحة الاسْتِخْبَارَات البريطانية: "لجنة العشرين"، وهي اللجنة الَّتِي أعادت تجنيدهم

النورماندي. ومهَّدَت 1200 طائرة للهجوم البرمائي الَّذِي اشتركت فيه أكثر من 5000 سفينة، و160 ألف جندي عبروا القنال الإنكليزي، ليعبر أكثر من مليونين من جنود الحلفاء إلى فَرَنسَا بحلول نهاية شهر آب.

[1] الجنرال جورج إس باتون (بالإنجليزية: George S. Patton) قائد عَسكَرِيّ في الجيش الأمريكي، إبان الحَرْب العالمية الثانية. قاد الجيش الثالث أثناء الحَرْب، والَّذِي انتصر في معظم المعارك الَّتِي خاضها.

ليصبحوا عُمَلَاء مزدوجين، مع أنها لم تكن تعلم على وجه اليقين أن عشرين هو عددهم جميعاً. ولتأمين الحماية من العُمَلَاء الَّذِينَ كَانَت مكافحة الاسْتِخْبَارَات التابعة للحلفاء تفترض أنهم لم يُكتَشَفوا، سرَّبَت اللجنة العشرون معلومات عن مجموعة الجيوش الأمرِيكيَّة الأولى والجيش البرِيطَانِيّ الرابع إلى مُرَوِّجي الشائعات.

لو جلست معي في شتاء 1943-1944 الكئيب في إحدى حانات لندن، لسمعت عن مجموعة الجيوش الأمرِيكيَّة الأولى الَّتِي ذُكِرَت كثيراً، أما مجموعة الجيش الثانية عشر (القيادة القتالية الفعلية) فلم تَنل حظاً من الذكر، لكن حينها رأيتُ الجنرال باتون بمسدساته ذات القبضات اللؤلؤية يدخل إلى السفارة الأمرِيكيَّة في ساحة جروسفينور، يتبعه مجموعة من المراسلين، أما عمر برادلي قائد مجموعة الجيوش الثانية عشر فلن تراه في الشارع أبداً.

من بين عُمَلَاء أبوير[1] (جهاز الاسْتِخْبَارَات الألماني) العشرين الَّذِينَ سيطرت عليهم اللجنة العشرين كَانَ هناك تسعة منهم عُمَلَاء راديو، يتصلون بمحطات أبوير على البر الرئيسي (القارة الأوروبية). في تِلْكَ الأيام استخدم عُمَلَاء الراديو "الأزرار" لإرسال شارات وفقاً لشارة موريس. وكَانَ لِكُلِّ منهم نغمته الخاصة وأسلوبه وسرعته، ما يسمّيه جماعة الاتصال "اللمسة"، وتطوّر المشغّلون لدرجة أن يعرفوا "لمسات" بعضهم البعض كما يعرف الشخص خط يد صديقه.

وهَكَذَا فإن أردت أن تترك عدوَّك يعرف أن عميل الراديو المزدوج بات تحت سيطرتك، فما عليك سوى أن تجعل شخصاً آخر يرسل الرسائل عبر الراديو، وفقاً لـ "لمسة" أخرى. ويمكنك عندها أن تُدخِل معلومةً حقيقيةً في غمرة المراسلات، عارفاً أنها لن تُصدَّق وبالتالي ستُلقي بِذَلِكَ بظلال من الشك على أي تقرير حقيقي مماثل من أي عدو لم تكتشفه بعد.

---

[1] كَانَ أبووير هو جهاز المخابرات العَسكَرِيَّة الألماني من عام 1920 إلى عام 1945. على الرغم من أن معاهدة فرساي منعت الألمان من إنشاء منظمة استخباراتية خاصة بهم، فقد شكلوا مجموعة تَجَسُس في عام 1920 داخل وزارة الدفاع، وأطلقوا عليها اسم الأبوير.

استخدمَ أحد عشر عميلاً مزدوجاً من عُمَلَاء لجنة العشرين الحبرَ السري عبر القنوات السرية. وبِشَكلٍ روتيني زوّدهم أبوير بـ"**إشارة السيطرة**"، وهي إشارة غير واضحة يَتُمّ إدراجها في الرسائل للإبلاغ بأنهم قد أُسِروا أو أن العدو قد سيطر عليهم. وبالتالي فالمعلومة الحقيقية الموجودة ضمن رسالة تحتوي إشارة سيطرة كَانَ لَهَا تأثير تشويه الحقيقة وتعزيز أي خداع يمارسه الحلفاء في أي مكان آخر. " لوحِظ إرسال فرقتين من إيرلندا الشمالية إلى جنوب ويلز لتبديل الفرقة الثامنة والعشرون"، هَذِهِ معلومة حقيقية أُرسِلت بإشارة السيطرة في ربيع سنة 1944، عَزَّزَت الخداع بأن الفرقتين الثانية والثامنة والعشرين كانتا تتدربان في "كُنْت" للهجوم عبر معبر "كالييه".

برنامج الخداع البِرِيطَانِيّ في الحَرْب العالمية الثانية، الَّذِي أسماه تشرشل "الحارس الشخصي على الكذب" كَانَ بلا شك رائعاً. ورغم ذَلِكَ لا يمكننا الانسياق وراء ما قاله بعض المؤرخين بأنه السبب وراء الانتصار في الحَرْب وإنقاذ أوروبا (بما في ذَلِكَ ألمانيا والنمسا وإيطاليا) من داء عبادةِ النازية، فهَذَا تنكُّر للمجد الَّذِي صنعه الآلاف بالدماء والعرق والدموع، وقُتِلُوا دون التفكير في الخداع، لم يكن الخداع وراء انتصارنا في الحَرْب لكنه أنقَذَنَا من خسارتها. هل الخداع ممكن في حرب اليوم؟ هل هي ممكنة ضد التهديدات على الحضارة الغربية اليوم؟

ربما لا. فالظروف الَّتِي جعلت التناغم ممكناً في عَمَلِيَّات الخداع البِرِيطَانِيّ لم تعد موجودة الآن ولم تكن سائدةً أثناء الحَرْب الباردة، باستثناء بين الأعداء خلف الستار الحديدي.[1]

خلال الحَرْب العالمية الثانية كَانَت بريطانيا جزيرة مُنغَلِقَة، مع التحكم في كُلّ دخول إلى البر الرئيسي؛ وبالتالي فقد كَانَت شبيهةً بالكتلة السُّوفيَاتِيَّة؛ فمن الصعب دخولها، فإذا دخلتَهَا بات التهرُّب من التدقيق الرسمي مستحيلاً. لقد كَانَت تحت سيطرة مركزية صارمة، لدرجة أنه أمكن تنسيق أعمال جميع السكان، كما حدث ثانيةً في أوروبا الشرقية والاتحاد السُّوفيَاتِيّ

---

[1] الستار الحديدي: كَانَ حداً سياسياً قسّم أوروبا إلى منطقتين أوروبيتين منفصلتين منذ نهاية الحَرْب العالمية الثانية سنة 1945 وحَتَّى نهاية الحَرْب الباردة.

خلال الحَرْب الباردة. وأخيراً كَانَ لديها إجماع على الهدف بين سُكّانها، وهَذَا ما يُسمَّى "الوطنية".

الوطنية والثبات جعلتا من الممكن تَحمُّل الديكتاتورية وقت الحَرْب؛ وبالتالي نجاح خطة "فورتيود" وكسب الحَرْب. وبمجرد انتهاء الحَرْب على خير، أزاح الشعب البِرِيطَانِيّ الديكتاتور المُنتَخَب، وينستون تشرشل بموجب انتخابات تقليدية في زمن السلم. فقد مضت أعظم الساعات، ومضى معها قائدهم المحبوب ويني (تصغير اسم وينستون) بما يسمح لِبرِيطَانِيَا بأن تعود إلى الديمقراطية.

ثوب الوطنية اليوم بات ضيّقاً على بريطانيا، وأمريكا وسائر العالم الغربي. أسأل أحياناً بعضاً من أصدقائي الَّذِينَ يكتبون ويدرِّسون التاريخ: "متى تخلّت أرض الحرية عن شجعانها؟" فيغيّرون الموضوع، مُعتقدين -ربما- أنني أعيش في الماضي السحيق أو في المستقبل البعيد.

اليوم:

هَذَا العصر قاسٍ بالنسبة لمكافحة الاسْتِخْبَارَات، لكن الخداع يبقى الهدف النهائي بالنسبة لمكافحة الاسْتِخْبَارَات، ويَجِبُ أن يتناغم الخداعُ لينجح. فإذاً كيف يمكن تنفيذ التناغم؟ فلنلقِ نظرةً على مثالٍ مألوفٍ في الاتحاد السُّوفيَاتِيّ خلال الحَرْب الباردة.

الحكومة السُّوفيَاتيَّة ومن يدور بفلكها استخدموا بيروقراطيةً ضخمةً ومتجانسةً لِهَذَا الغرض. تربَّع على قمة هَذِهِ البيروقراطية القسم الدولي للحزب الشيوعي، والتابع مباشرة للهيئة الحاكمة العليا، وهي المكتب السِّيَاسِيّ، الَّذِي يرأسه السكرتير العام للحزب. المصطلح العام الَّذِي استخدمه السُّوفيَات للتعبير عن الخداع هو: "التدابير الفعَّالة" (aktivnyye meropriyatiya) وتشمل "التضليل"، والتمويه، والأنشطة الَّتِي نسمِّيها البروبوغاندا السوداء.

صاغَ القسمُ الدولي ونسَّق (أي جعل منها متناغمة) كُلَّ "التدابير الفعّالة" من الأنشطة العامة للسكرتير العام للحزب الشيوعي (الَّذِي يرأس الدولة، ويحضر "اجتماعات القمة" إلخ) إلى استخدام التمويه والمنشآت الوهمية، مثل: وحدة مدفعية وهمية على الحدود

الصينية. ومن خلال إدارته للمعلومات سيطر المكتب الدولي على كُلّ وسائل الإعلام الداخلية وعلى جميع مصادر المعلومات لوسائل الإعلام الأجنبية.

والأهم، من خلال أربعة عناصر من المديرية الأولى (الخارجية) وثلاثة عناصر من المديرية الثانية (المحلية) للكي جي بي؛ تدبَّر القسم الدولي التنسيقَ الوثيق بين جميع أشكال الخداع المُستخدمة في عَمَلِيَّات الاسْتِخْبَارَات المركزية. وتشمل الأجانب، والمعلومات الَّتِي زرعها عُمَلَاء التأثير، والمعلومات الَّتِي مررها العُمَلَاء المزدوجون من خلال عُمَلَاء من نوع طعم، ومن خلال مُنشقّين مُزيَّفين.

وكما ترى، كَانَ السُّوفيَات مُنظَّمين بِشَكلٍ مركزي، أما نحن فلدينا مجتمعات تعددية، وأنظمة سياسية تعددية، ووسائل إعلام تعددية. عندما ترك آرلوند ويبر جامعة كولورادو ليصبح رئيس جامعة نورثويست، سأله شخص في شيكاغو: كيف تبدو بولدر -موقع عمله القديم-؟ فأجاب: "إنها البلدة الوحيدة الَّتِي أعرف أن لَهَا سياستها الخارجية المستقلة". لكنه كَانَ مخطئاً عندما اعتقد أن بولدر فريدةً من نوعها. ففي الولايات المتحدة تكاد أي بلدة وأي جماعة وأي فرد أن يكون لَهُ سياسته الخارجية الخاصة بِهِ، فإن تعارضت هَذِهِ السياسات مع السياسة الرسمية للأمة، فسيكون لِهَذَا آثارٌ سلبيةٌ للغاية على الأمة.

يزور أعضاء الكونجرس البلدان الأجنبية بانتظام حَيْثُ يستفيدون من مناصبهم في المؤسسة التشريعية للتشويش على سياسات وزارة الخارجية التابعة للسلطة التنفيذية للدولة. وتسرِّب جهات ضمن وزارات السلطة التنفيذية روتينياً معلومات للصحافة عن عمل الجهات الأخرى الَّتِي تختلف معها. وتستخدم القوات الأمرِيكِيَّة المُسلَّحَة روتينياً علاقاتها العامة ذات الميزانية الضخمة للضغط بهدف تحصيل تمويلٍ لحاملات الطائرات بعد أن حصَّلَت الأسلحة البرية، والدبابات بعد أن حصَّلَت المُدمِّرات، والطائرات القاذفة بعد أن حصَّلَت صواريخ الغواصات، وصواريخ الغواصات بعد أن حصَّلَت الاستطلاع بالأقمار الصناعية وهلم جرّ، ويتحوَّل الفيزيائيون في جامعاتنا إلى سياسيين ويستخدمون المجلات العلمية للدفاع عن المواقف الحزبية.

ولا تقتصر هَذِهِ التعددية على الولايات المتحدة، بل تسود العالم الغربي برمته، وعلى العموم فالتعددية هي ما تجعل العالم الغربي مكاناً أفضل للعيش من أماكن لا مكان للتعددية فيها مثل الصين، وكوريا الشمالية، وفيتنام. لكن بالنسبة لِقِلَّةٍ من المختصين في عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات مثلي ومثلك، فإنها مزيجٌ من النعمة والنقمة. فهَذِهِ التعددية ليست مهيأة بِشَكلٍ جيدٍ لتدبير الخداع في الشؤون الخارجية أو الشؤون العَسكَرِيَّة أو أعمال التَّجَسُس.

الحدودُ العمليةُ:

أثناء الحَرْب الباردة، كَانَ لدى السُّوفيَات أوركسترا رائعة أمكنهم من خلالها فرض إيقاعاتهم الإستِرَاتِيجِيَّة، وماذا كَانَ لدينا في المقابل؟ فقط مكافحة الاسْتِخْبَارَات، ولا زلنا على حالنا، لذا يَجِبُ أن نعمل حسب إيقاعات مكافحة الاسْتِخْبَارَات، ويقتصر جمهورنا على أجهزة استخبارات أعدائنا. وأدواتنا هي:

1- العميل المزدوج من نوع الطعم.
2- العُمَلَاء المزدوجون من النوع المُعاد التوجيه.
3- الاختراقات.
4- جهاز الدعم.

وكأنها آلة عزف ذات أربعة أوتار تواجه دوي طبول العدو وصرير أبواقه. لكن هَذِهِ المحدودية ليست بالدرجة الَّتِي تبدو عليها من الضعف، فالروح الَّتِي يستمد منها النظام السُّوفيَاتِيّ حياته هي المؤامرة، أما أجهزة الاسْتِخْبَارَات فقد كَانَت بمثابة قلبه ورئتيه ودماغه. وبالتالي خوض صراعٍ مع الكي جي بي (أو أي من أفراخها من أجهزة الأمن وأجهزة الاسْتِخْبَارَات العَسكَرِيَّة) يعني وضع اليد على خِناق النظام السُّوفيَاتِيّ. ولأن نظامنا ليس تآمرياً ولا يحبُّ ابتزازَ الآخرين، يكره سياسيونا وصحافيونا ومواطنونا المُحِبُّون للسلام أن يصدِّقوا هَذِهِ الحقيقة الناصعة، لكن كضابط مكافحة استخبارات، من الأفضل لك أن تصدقها.

الغاياتُ والسِّيَاسَةُ:

الخداع وسيلة بيد السياسة، وليس مجموعةً من المقالب، فالغاية منه هي تحقيق أهداف حكومتك، وهَذَا يعني أنه يَجِبُ أن يبقى مُنضَبِطَاً بالآلِيَّات البيروقراطية الَّتِي تشكِّل الذراع الضاربةَ للسياسة الَّتِي تنتهجها حكومتك، إن كَانَ هُنَالِكَ في عمل الجواسيس مكان لا يمكن فيه التسامح أبداً مع الأفيال الشاردة، فهو بلا شك الخداع.

(بالمناسبة "الأفيال الشاردة" مصطلح صاغه سياسي أمريكي اسمه فرانك جارج، ليعبِّر من خلاله عن نوع من المسؤولين الَّذِينَ يقودون عملية الخداع -أو أي عمل سري- لكن لا ينبغي الوثوق بهم، لأنه عاش في عالم الدعاية الصحافية، حَيْثُ تتنافس الأفيال الشاردة على جذب الانتباه العام؛ وأوضح مثال عن فيل شارد هو فرانك جارج.[1] فقد وجدَ المتجرَ الصينيَّ الرائعَ لـ"العَمَلِيَّات السرية"،[2] تِلْكَ الأنشطة غير السرية الَّتِي تؤدِّيها أجهزة الاسْتِخْبَارَات، فحطَّم الكثير من أدوات المائدة غير المرغوبة مع بعض الخزف الَّذِي لا يُقدَّر بثمن.[3] ولا يمكن إلقاء اللوم عليه فهو مجرد فيل غبي لا يمكنه تفريق الغثِّ من

[1] **فرانك فورستر جارج** محامٍ أمريكي وسياسي، وعضو في الحزب الديمقراطي، وعمل كسيناتور أمريكي عن إيداهو ما بين عامي 1957 وحَتَّى 1981. واشتُهِر بترؤسه لجنة جارج الَّتِي حققت في انتهاكات ضمن مجتمع الاسْتِخْبَارَات الأمريكي، وكَانَ شخصية عامة مرموقة في السياسة الأمرِيكِيَّة الخارجية وترأَّس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ما بين عامي 1979 و1981.

[2] مصطلح: "**ثور في متجر صيني**" يُستخدم في اللغة الإنكليزية لوصف شخص يتصرف بطريقة خرقاء متهورة مندفعة دون تفكير في العواقب أو تدبُّر.

[3] ترأس جارج لجنة مختارة في مجلس الشيوخ الأمريكي سنة 1975 حققت في الانتهاكات الَّتِي ارتكبتها وكالة الاسْتِخْبَارَات المركزية (سي آي إيه) ووكالة الأمن القومي، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ودائرة الإيرادات الداخلية، وأجرت تحقيقات في انتهاكات المخابرات سنة 1975، الَّتِي سُمِّيَت "عام الاسْتِخْبَارَات". وأكثر ما أثار صدمة مِمَّا كشفت عنه اللجنة: عملية مكولترا الَّتِي جرى فيها تخدير وتعذيب مواطنين أمريكيين كجزء من التجارب على البشر للتحكم بالعقول، والعملية كوينتلبرو الَّتِي جرى فيها مراقبة المنظمات السِّيَاسِيَّة ومنظمات حقوق الإنسان الأمرِيكِيَّة سراً، وعملية "فاميلي جيوش" لاغتيال القادة الأجانب سراً، وعملية موكينجبرد لشن حملة ممنهجة ضد الصحافيين المعارضين والأجانب من قبل صحفيين آخرين يعملون مع وكالة المخابرات المركزية والعشرات من وكالات الأنباء الأمرِيكِيَّة الَّتِي توفر الغطاء لنشاط وكالة المخابرات المركزية.

السمين، بل إن الخطأ الأساسي يقعُ على عاتق الإدارة -في رأي ضابط مكافحة التَّجَسُس هَذَا- الَّتِي وضعت البضاعة الصينية الجيدة إلى جانب البضاعة الَّتِي لا قيمة لَهَا في ذات المتجر).

لذا فواحدة من القيود على الخداع، هي الحاجة إلى مُكَوِّنٍ -سَمِّهِ لجنة أو طاقم عمل- وسأسمّيه مجلس الخداع، لوضع خطة، ومراجعة العَمَلِيَّات وتنسيقها، هُنَا تُحَاكُ عملية التناغم الَّتِي ذكرناها آنفاً. ويمكن أن يكون المجلسُ ضابطاً واحداً مسؤولاً (بمساعدة عدد غفير من الموظَّفين)، أو لجنة على أعلى المستويات في جهاز الاسْتِخْبَارَات، أو لجنة مشتركة بين الأجهزة، لكن يَجِبُ أن تُبَلِّغَ هَذِهِ اللجنة قراراتها وتأخذ المصادقة عليها من أعلى صنَّاع القرار مرتبةً في الدولة. ويَجِبُ أن تضمَّ ضباطَ مكافحة استخبارات محترفين ذوي تجربة ونفوذ.

أما مجلسُ الخداع المكوّن من مبتدئين فسيفشل في الخداع وسيقع هو نفسه ضحيةً للخداع، عادةً ما يكون لدى المبتدئين المُتَحَمِّسين أفكارٌ رائعةٌ عن الخداع، لكن عندما ينالون الثقة بخططهم سرعان ما يغرقون في الحيرة، والسبب ببساطة هو أنهم لا يملكون الخبرة أو الصبر أو المهارة، ولا يمكنهم أن يتلمَّسوا طريقهم وسط الظلام.

مجلس الخداع، مثل كُلّ الأجهزة البيروقراطية، يتسبب ببطء العَمَلِيَّات، لكنه أفضل من ينفِّذ عَمَلِيَّات الخداع دونما تسرُّع. وكلما أبطئ المجلس عملك، توفَّر لك مزيد من الوقت للانتباه للتفاصيل.

الغاياتُ والاحتمالاتُ:

إمكاناتنا المحدودة لإجراء التناغم -عند مقارنتها بالكتلة السُّوفيَاتيَّة السابقة- تُقيِّد عملنا بِشَكلٍ أسَاسِيّ في الطرق التكتيكية. ويعودُ هَذَا إلى أن الأدوات الوحيدة الَّتِي يمكن تنسيقها بأمان هي أدوات مكافحة الاسْتِخْبَارَات، المسارات الَّتِي ينبغي أن نتَّبِعَها وصولاً إلى أهدافنا يَجِبُ أن تكون من خلال أجهزة الاسْتِخْبَارَات الأجنبية. لا يمكننا فرض التناغم في

صحافتنا الحرة ولا مُشرِّعينا المُنتَخَبين بِشَكلٍ حرٍ. لكن يمكننا تنسيق تكتيكاتنا للتلاعب بِعَمَلِيَّاتِ العدو وتشويش خططه، باستخدام الأدوات الَّتِي سنذكرها لاحقاً.

المدراء التنفيذيون لأجهزة الاسْتِخْبَارَات مثل جميع المدراء التنفيذيين، يكوِّنون آرائهم الخاصة ويتجاهلون النصح والمعلومات من مرؤوسيهم. لديهم آراؤهم الخاصة حول طريقة عمل بلد أجنبي وحكومة أجنبية وجهاز استخبارات أجنبي، ويتَّخذون قراراتهم حسب الآراء الشخصية الَّتِي يقرؤونها من الأوراق والتقارير الَّتِي يسمعونها. كما أن أحكامهم تتأثر ببيئتهم السِّيَاسِيَّة. وعلى خلاف مرؤوسيهم هم جزءٌ من العملية السِّيَاسِيَّة لبلدانهم، ويَجِبُ أن يستجيبوا باستمرار لقادتهم السياسيين، ولا شك أنهم يشاركونهم توجُّهاتهم السِّيَاسِيَّة.

وفي الواقع في بعض البلدان لا يكون مدراء الاسْتِخْبَارَات ضباط مخابرات على الإطلاق وإنما سياسيين أو عسكريين برتب رفيعة يُعيَّنون لتوافقهم مع القيادات السِّيَاسِيَّة. هَذَا الوضع منتشر في أجهزة مخابراتنا انتشاره لدى العدو، ويشكِّلُ نقطة ضعف لَهُ كما لدينا تماماً. يمكن أن يُخدَع أي جهاز استخبارات على مستوى القمة أسهل بكثير منه على مستوى القاعدة لأن قيادته مُنكبَّةٌ على أفكار مُسبقة يمكن تلبيتها والتلاعب بِهَا. وحَتَّى الأجهزة الَّتِي يرأسها ضباط ذوي خبرة – على سبيل المثال جهاز الاسْتِخْبَارَات البريطانية السرية، وفي بعض الأحيان السي آي إيه الأمرِيكِيَّة- تلعب المفاهيم المسبقة دوراً في القرارات العملياتية.

أثناء الحَرْب الباردة، كَانَ الضباط الأمريكيون ممن تخصر تجربتهم في العَمَلِيَّات المضادة للسوفيات يميلون لقراءة الصينيين كما لو كانوا روساً والعكس بالعكس. ومن الناحية الأخرى، قادة السُّوفيَات ممن قامَت مهنتهم على العمل ضد الأمريكيين في أوروبا يفسدون عمل مرؤوسيهم عندما يتعاملون مع الإيرانيين أو المصريين.

في العديد من البلدان، وخصوصاً تِلْكَ الَّتِي تخضع لقيادة رجل واحد، يكون لذاك الرجل غالباً جهازه الاسْتِخْبَارَاتِيّ الخاص المكوَّن من المُقرَّبين من خارج البنية الحكومية، ومستقلاً عن جهاز الاسْتِخْبَارَات الرسمي. والقادة من هَذَا القبيل بالذات يكونون عرضة للخداع، لأن أولئك المُقرَّبين الَّذِينَ يسيِّرون جهاز الاسْتِخْبَارَات هَذَا يكونون إما هواةً وإما

من خارج ميدان الاسْتِخْبَارَات، وفي كلا الحالتين يفتقر هَذَا الجهاز إلى جهاز دعم وإلى آلية عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات. وبالتالي فمن السهل اكتشافه والاتصال بِهِ وخداعه والاستحواذ على اهتمام مدير الجهاز، مِمَّا يشكِّلُ قناةً جميلةً للخداع.

قاعدةُ الأدواتِ غيرِ المقصودةِ:

الأدوات الَّتِي تطرقنا إليها في ثنايا هَذَا الكتاب، تكون أكثر فاعلية عندما تُستَخدَم للخداع ويكون من يستخدمونها أنفسهم مخدوعين.

لماذا هَذَا الدور معدوم الضمير ضروري؟ لأنه إن دُرِّب حامل الرسائل على الكذب، فإنه سيحمل مع الرسالة عبء الخوف من الذنب. أو ربما يُجبره تحقيق العدو معه على الاعتراف. كم سيكون الأمر هيِّناً إن كَانَ يؤمن بالرسالة. بالنسبة للأمن العملياتي البسيط، يبدأ الخداعُ بحامل الرسالة.

كضابط مكافحة استخبارات، ستواجه مشكلةً أخلاقيةً مع هَذِهِ القاعدة، وإن لم تواجه هَذِهِ المشكلة، فهَذِهِ مشكلة. فالكذب على رفيق السلاح يخالف -أو هَذَا ما ينبغي- مبادئك. وحامل رسائلك -العميل المزدوج، أو الطعوم، أو جماعة المراقبة، وغيرها من أنواع الدعم – هو رفيقك. بل إنك قد تكون حامل الرسالة في يوم من الأيام، فتكون الرئيس الَّذِي يحمل عن غير قصد رسائل كاذبة إلى حاملي رسائل يتبعون لك. في الواقع ما لم تكن على قمة آلية الخداع، فمن المنطقي فقط أن تنطبق هَذِهِ القاعدة عليك أيضاً. هَذَا النوع من مواقف إنكار الذات ينشأ أحياناً من القاعدة الأساسية الَّتِي يَجِبُ معرفتها.

من خلال هَذَا الكتاب، لم أكن أقول لك إن عمل مكافحة الاسْتِخْبَارَات مجرد عمل في غاية السهولة. فإن لم تتمكن من تقبُّل قاعدة "المعرفة على قدر الحاجة"، وما يترتب عليها من عدم إدراك كُلّ ما تريد معرفته، فمن الأفضل لك أن تجد عملاً آخر.

لكن مع ذَلِكَ لاحِظ، أن قاعدة الأدوات غير المقصودة هي القاعدة الَّتِي تُستعمل مع العميل المزدوج غير الموثوق بِهِ، والعميل الَّذِي تعرف أنه قد انقلب ضدك، ومن اعتاد

الكذب، والمريض النفسي بالخداع، حيثما كانوا على اتصال بالعدو، وحيثما تأكدت من مصادر مستقلة من أن الاتصال موجود بالفعل، فهَذَا يعني أن لديك قناة إلى العدو. أما كيف تستفيد من هَذِهِ القناة فيعتمد على براعتك، لكن لا تلعب الألعاب الساذجة، بل استخدم براعتك ضمن الحدود العملية المذكورة آنفاً ونسِّق البراعة حسب أهداف برنامجك.

شكلٌ آخرٌ من الأدوات غير المقصودة هو الأداة التقنية. التسجيل الهاتفي والميكرفون المخفي يمكنهما كلاهما أن يسوقا إليك الأحاديث المُنظَّمَة، ويمكن لشارة الراديو المُعتَرَضَة أن تسوق إليك رسائل مُفتَعَلَة. وبالفعل عندما تعلم أن العدو يعترض بعضاً من الشارات الَّتِي يبعثها المرسل الراديوي إلى عملائك، بوسعك عندها إرسال شارات إلى عُمَلَاء غير موجودين وافتعال جهاز استخبارات للعدو بِحَيْثُ يطارد الأشباح. إن تمكن العدو (وهَذَا وارد جداً هَذِهِ الأيام) من فك تشفير رسائلك، فيمكنك تحميل الشارات المُرسلة بمستلزمات الخداع أو حَتَّى إيهام العدو أن بعضاً من مسؤوليه الأبرياء تماماً تحت سيطرتك.

الهيئاتُ السريةُ تحتاجُ حارساً من الأكاذيبِ:

التاريخ، والوضع العالمي مع مطلع القرن الجديد، يقولان لنا أن الاسْتِخْبَارَات السرية وظيفة أسَاسِيَّة لأي دولة، وأن الخداعُ وظيفةٌ أسَاسِيَّةٌ لِلاسْتِخْبَارَاتِ السرية. مِمَّا يعني أنه لا يمكن لأي دولة أن تصمد طويلاً في وجه أعدائها الظاهرين أو المحتملين أو حَتَّى أصدقائها دون معلومات استخباراتية، وجزء مهم من هَذِهِ المعلومات لا يمكن تحصيله دون التَّجَسُس. فلا يمكن تنفيذ التَّجَسُس دون مكافحة الاسْتِخْبَارَات، والخداع جزءٌ أسَاسِيّ من مكافحة الاسْتِخْبَارَات.

عن المؤلِّف

ويليام آر جونسون وُلِدَ في لوفلاند، كولورادو. وانتظم في مدرسة هوتشكس في كونيكيكت وجامعة يال، الَّتِي تخرَّج منها سنة 1942 بدرجة جيدة في الأدب الإنكليزي. خلال الحَرْب العالمية الثانية عمل كضابط استخبارات مقاتل في فرقة المشاة الأمرِيكيَّة الثانية من شاطئ أوهاما (6 حزيران سنة 1944) إلى بيلسن وتشيكوسلوفاكيا سنة 1945. بعد عودته من الحَرْب درَّس الإنكليزية في جامعة كارلتون في مينيسوتا وانضم بعدها إلى السي آي إيه سنة 1948.

وكضابط حالة شاب تلقى تدريبه على يد أفضل الضباط في عمل مكافحة التَّجَسُس ومن بينهم الأمريكي آنجلتون وبيل هافري وبيل هوود. كما تدرب على يد بعض الضباط الإنكليز الَّذِينَ لا يمكن ذكر أسمائهم. وعمل إحدى عشرة سنة في النمسا وألمانيا قبل أن ترسله السي آي إيه بعيداً إلى الشرق الأقصى في عَمَلِيَّات مكافحة استخبارات من سنة 1960 حَتَّى سنة 1973. وكَانَ ضابطاً رفيعاً في محطة سايجون حَتَّى سقوط فيتنام في نيسان سنة 1975. وقضى السنة الأخيرة من خدمته في السي آي إيه يكتب كرَّاسات تدريب سرية في مكافحة الاسْتِخْبَارَات لضباط الحالة الشباب.

تقاعد جونسون في مسقط رأسه كولورادو سنة 1977، حَيْثُ نظَّم وأدار سلسلة من اللقاءات والمحاضرات حول الاسْتِخْبَارَات كعمل حكومي، على هامش مؤتمر جامعة كولورادو السنوي عن الشؤون العالمية. نشرت دار ستون تريل كتاب "ردع العدو في الوطن وفي الخارج" لأول مرة سنة 1987، بعد الحصول على تصريح من السي آي إيه. توفي جونسون سنة 2005.



عن مركز الخطابي

هو مركزُ دراساتٍ وأبحاثٍ مختصٌّ في علومِ وفنونِ الحروبِ الثَّورِيَّة، تَمَّ إنشاؤهُ في إدلب- سوريا سنة 2019. يسعى مركز الخطابي إلى إيجادِ مراجعَ شاملة تتناولُ مبادئ وإستراتيجياتِ وتكتيكاتِ الحروبِ الثَّورِيَّة، لتلبيةِ حاجةِ الثُّوَارِ التَّدرِيبِيَّةِ والبحثيَّة، كما يَهدِفُ إلى توفيرِ مصادرَ علميَّةٍ وافيةٍ عن الفنونِ السِّيَاسِيَّةِ والعَسكَرِيَّةِ والاجتماعيَّة التي يحتاجُهَا الثُّوَارُ في العالمِ العربِيّ والإسلاميّ، وذلكَ من خلالِ التحليلِ الدقيقِ والتقييمِ العلميّ لتاريخ أهمّ الثَّورَاتِ السابقة، وتقديمِ التوجيهاتِ والتحليلاتِ الدقيقةِ التي تحتاجُهَا النُّخَبُ الثَّورِيَّةُ حولَ أهمّ النوازلِ المعاصرة، والأرشفةِ الشاملةِ عن أحداثِ الثَّورَةِ السوريَّةِ على المستوى العَسْكَرِيّ والسياسيّ والاجتماعيّ.

ومنذُ نشأتِهِ، قدَّمَ الخطَّابيُّ لمتابعيهِ أكثرَ من خمسة عشرة مادةً علميَّةً، أهمُّهَا:

1. كتابُ الخطَّابي، مُلهِم الثورات المسلَّحة، ثورة الريف الثالثة (1921 - 1926م): السياق التاريخي والأبعاد السِّيَاسِيَّة والعَسْكَرِيَّة والاجتماعية.
2. بحثُ لمحةٍ عن المسارِ السياسيّ لآلِ سعودٍ في الدولة الثالثة.
3. بحثُ "أستانا"، مسارُ القضاءِ على الثَّورَةِ السورية.

4. كتابُ الاحتلالِ بين النظريَّةِ والتطبيقِ، عواملُ قوةِ عملياتِ مكافحةِ التمردِ الأمريكيَّةِ، وجدوى هَذِهِ العواملِ في أفغانستان بين 2001 و2020.
5. كتاب انتفاضةِ الصحراءِ، الثَّوَرَةُ الليبيَّةُ 1911 - 1931 وأبعادُها السِّيَاسِيَّةُ والاجتماعيَّةُ والعَسْكَرِيَّةُ.
6. كتاب التجنيد الاستخباري؛ دوافعه، مراحله، مخاطره.
7. كتاب الدفاع في الحرب الثورية؛ مدخل إلى مبادئ الدفاع وأنواعه وعوامل قوته وإجراءات السيطرة فيه خلال الحرب الثورية.
8. ترجمةُ كتابِ نشوبُ الثَّوَرَةِ المسلحةِ، دروسٌ من الفيت كونغ وصولاً إلى الدولةِ الإسلاميَّةِ، تأليف سيث جونز.
9. ترجمةُ كتابِ تكتيكاتُ طالبان جنوبَ أفغانستان بين 2005 و2008، تأليف كارتر مالكاسيان وجيري ميبرلي.
10. ترجمةُ كتابِ الجانبِ الآخرِ من الجبلِ، تكتيكاتُ المجاهدين في الحربِ الأفغانيَّةِ السوفييتيَّةِ، تأليفُ أحمد جلالي ولستر غراو.
11. ترجمةُ كتابِ مكافحةُ الانقلابِ، لجين شارب وبروس جينكيز.
12. ترجمةُ كتابٍ من الدولةِ العميقةِ إلى تنظيمِ الدولةِ الإسلاميَّةِ، الثَّوَرَةُ العربيَّةُ المضادةُ وموروثها الجهادي، لجان بيير فيليو.

يُشَرِّفُنَا اطِّلاعُكَ على أرشيفِ المركزِ أو التواصلِ معَنَا على المواقعِ الرسميَّةِ التاليَّةِ:

- الويب: (https://alkhattabirw.com/)
- الفايسبوك: (http://fb.me/alkhattabirw)
- التويتر: (https://twitter.com/alkhattabirw)
- التلغرام: (https://t.me/alkhattabirw)

يتميَّز هَذَا الكتاب بتناوله لموضوع مكافحة الاسْتِخْبَارَات بِشَكلٍ علمي منهجي، صادر عن قواعد هَذِهِ الحِرفة وتجربة الكاتب الشخصية الَّتِي تراكمت عبر السنين، بعيداً عن الأساطير والتهويلات، فهو من نوع الكتب الَّذِي يُلخِّص حياةً في كتاب. وهو يعرض هَذَا العلم: "كما هو، وليس كما ينبغي لَهُ أن يكون"،



alkhattabirw